

مکتبہ اسلامیہ

تذکرہ
میرزا محمد علی (الکلیلی)
نور علی قلی

نور علی

موسوعة المجتمعات الدينية في الشرق الأوسط

نوييليس
الأشرفية - بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة
لا يسمح بنقل أي جزء من هذا الكتاب في أي شكل من الأشكال من دون الحصول على إذن خطي من الناشر.

الطبعة الثانية ٢٠٠٣

طوني مفرج

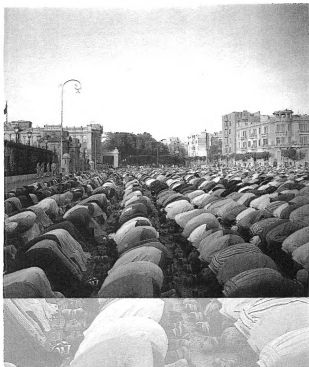
مَوْسُوعَة

المجتمعات الدينية في الشرق الأوسط

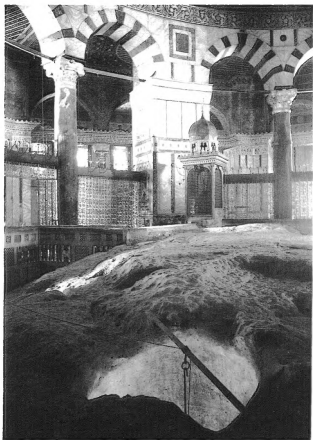
المجلد السادس

الشيعة (٢)

نوبليس



صلاة الجمعة في أحد شوارع القاهرة - مصر



داخل مسجد قبة الصخرة في القدس



تلاوة القرآن داخل أحد المساجد



المسلم في أثناء صلاته

محتوى المجلد السادس

المجلد السادس: الشيعة - ٢ -

الفصل السابع: الشيعة وفرقها .

* الإمام السابع : موسى الكاظم ٩ * علي الرضا، والأمل الخائب ٢٠ * من محمد الجواد . إلى الحسن العسكري ٢٨ .

الفصل الثامن: المهدي المنتظر .

* الإمام العسكري ٤٥ * الإمام المهدي، والغيبة، والرجعة ٥٠ .

الفصل التاسع: في مواجهة العباسيين وقادتهم الأتراك .

* دولة الأدارسة ٦١ * دولة العلويين في طبرستان ٦٥ * دولة البويهيين ٧١ * دولة الحمدانيين ٨٠ .

الفصل العاشر: القرامطة .

* ظهور القرامطة ٨٩ * الثورة القرمطية ٩٣ * أبو طاهر الجاني ٩٨ * النهاية القرمطية ١٠٣ * القرمطية : إشتراكية شيوعية مبكرة ١٠٦ .

الفصل الحادي عشر: الاسماعيليون والخلافة الفاطمية .

* الأئمة المستورون ١١٣ * مسألة أصل عبيد الله المهدي ١١٤ * أبو عبد الله الشيعي ١١٦ * الخلافة الفاطمية في طورها الأول ١٢٢ * أبو الحسن جوهر الصقلي ١٢٨ * الحاكم بأمر الله ١٣٥ * إنهاء الدولة الفاطمية ١٤٢ * الحشاشيون ١٤٦ .

الفصل الثاني عشر: العلويون النصيريون .

* في نسبتهم ونشأتهم ١٥٥ * في معتقدتهم ١٦٤ * في تاريخهم وحاضرهم ١٦٨ .

الفصل الثالث عشر: خاتمة .

* الشيعة اليوم ١٧٩ .

الفصل السابع

الشيعة وفرقها

- الإمام السابع: موسى الكاظم
- عليّ الرضا، والأمل الخائب
- من محمد الجواد، إلى الحسن العسكري

وأنا والله لئن عرّ
بالظلم في الدنيا
ليذلّن بالعدل في الآخرة»
الإمام موسى الكاظم^١.

الإمام السابع: موسى الكاظم

خلف الإمام السادس للشيعة أبا عبد الله جعفرًا الصادق المتوفى سنة ١٤٨ هـ / ٧٦٥ م. ابنه موسى، الذي لقّب بـ «الكاظم» لأنّه «كان يحسّن إلى من يسيء إليه، وكانت هذه عادته أبدًا»^٢. ولقد تعدّدت الروايات حول الملابس التي رافقت تسنّم موسى الكاظم سدة الإمامة، والتي تتعلّق بها مسألة ظهور الإسماعيلية والسبعية، وما يتّصل بذلك من ملابس. وسنحاول فيما يلي أن نستعرض أبرز ما تعدّد من تلك الروايات.

تختصر الرواية الأولى بأنّه كان لجعفر الصادق ستّة أبناء: إسماعيل (وهو البكر) وعبد الله، ومحمّد، وموسى، وعليّ، والعبّاس^٣. وكان الخليفة العبّاسي: أبو جعفر المنصور، الذي قيل إنّه أمر بدمن السّم للإمام الراحل: جعفر الصادق، قد كتب في الحال «رسالة إلى والي المدينة - حيث توفى الصادق - يأمره فيها أن يذهب فور استلامها إلى منزل سليل النبيّ المتوفى بحجة تقديم العزاء، وأن يسأل عن نصّ وصيّة الإمام بشأن خلافته، أمّا الرجل الذي ستذكره الوصيّة، فيجب قطع رأسه حالاً...». بذا اعتقد الخليفة العبّاسي، القلق على خلافته من سلالة النبيّ أحفاد فاطمة وعليّ، أنّه يستطيع كسر حلقة الأئمة، وبهذا ينتهي العبّاسيون من مشكلة السلالة المباشرة لمحمّد، ومن الخوف من إمكانية مجاها في الوصول إلى

١ - البغوي، طبعة دار صادر (بيروت) ج ٢ ص ٤١٤

٢ - ابن الأثير، الكامل في التاريخ، طبعة دار صادر (بيروت ١٩٨٢) ج ٦ ص ١٦٤

٣ - البغوي، ج ٢ ص ٢٨٢

حقوقها يوماً؛ وإذ نفذ والي المدينة أوامر الخليفة، دُهل تماماً، كما سيذهل الخليفة عندما سيطلع على مضمون الوصية. فلقد أوصى جعفر الصادق بالإمامة لأربعة أشخاص، هم: الخليفة بالذات، والوالي بالذات، وابنه الأكبر إسماعيل، وابنه الأصغر موسى...».

لا شك في أن وصية الإمام قد جاءت على هذا الشكل، ليحول دون تمكن الخليفة من القضاء على الإمامة؛ ويتضح من ذلك أن الإمام السادس، كان مدركاً لحقيقة نوايا العبّاسيين. وبالفعل، فقد حالت قائمة الأسماء هذه دون تمكن الخليفة من تحقيق مأربه القاضي بقتل خليفة الإمام السادس^١.

إلا أن إسماعيل، الابن البكر لجعفر الصادق، كان قد قضى قبل موت أبيه بحوالى خمسة عشر عاماً. وقد أحدث هذا الأمر مسألة أساسية عند شيعة عليّ.

في الواقع، كان قد شاع في المدينة أن إسماعيل بن جعفر قد توفي سنة ١٢٢ هـ / ٧٥٠ م^٢. بيد أن ظهور اسمه في وصية أبيه جعفر الذي توفي سنة ١٤٨ هـ / ٧٦٥ م. قد خلق إشكالاً كبيراً عند الشيعة، الذين قال بعضهم بأن إسماعيل لم يمُت، إنما هو حيّ غائب. وبما أن الصيغة الشرعية للشيعة تُقلد منصب الخلافة للابن البكر، فقد تمسك بعضهم بعد موت جعفر بهذه الصيغة، وقالوا بأن إسماعيل هو الإمام الشرعي الحقيقي، الذي لم يمُت مطلقاً، إنما هو في غيبة عند الله، وهو يبقى إماماً عبر الزمن، إلى أن يبعثه الله مرة أخرى يوم القيامة. وقد عُرف هؤلاء بالإسماعيلية، نسبة إلى إسماعيل، كما عُرفوا بالسبعية، نسبة إلى الإمام السابع. ولكنهم اختلفوا في هوية الإمام السابع، فصاروا فرقتين: فرقة تقول

١ - غرهارد كونسلمان، سطوع نجم الشيعة، (الترجمة العربية) نشر مديبولي، (القاهرة ١٩٩٢) ص ٧٢ - ٧٣

٢ - اختلفت المراجع في تحديد سنة وفاة إسماعيل، بين قائل بأنه توفي سنة ١٢٢ هـ / ٧٥٠ م. وقائل بأن وفاته كانت سنة ١٤٥ هـ / ٧٦٢ م. أو ما بينهما. إلا أن المدونات قد اجمعت على أنه مات قبل موت أبيه.

بأن إسماعيل، المتوفى قبل وفاة أبيه الإمام السادس، إنما هو الإمام السابع، وفرقة تقول بأن الإمام السابع إنما هو ابن إسماعيل، واسمه محمد المكتوم الذي اختفى وهو بعد في الخامسة عشرة من عمره، في المدينة المنورة، حيث ولد. ويبدو أنه هرب خوفاً من غضبة الخليفة العباسي عليه، واختبأ في مكان بالقرب من الري في بلاد فارس، ولم يعد يعرف أحد شيئاً عنه^١. وإن السبعية من أصحاب هذا الرأي، يعتبرون أن محمداً المكتوم، هو الإمام الغائب.

وهكذا، فقد واجه الابن الآخر لجعفر - موسى، الذي ورد اسمه هو الآخر في الوصية، مشكلة في الاعتراف بإمامته، وهو مدرك أن أخاه إسماعيل، قد مات في السنوات اللاحقة لكتابة أبيه للوصية.

ولم تكن تلك الصعوبة الوحيدة التي واجهت موسى. فلقد كان للإمام الراحل ولدان آخران، كانا على قيد الحياة. وإذا كان موسى الابن الأصغر لجعفر، وكان أخواه يكبرانه سناً، فقد استاء الأخوان من الوصية.

ويروى أن «موسى استطاع أن يثبت إمامته من خلال ما يشبه المعجزة، إذ وضع في فناء منزله حطباً وأشعل النار فيه، ثم ولج إلى وسط النار وبقي واقفاً هناك دون أن يلحق به أدنى أذى، حتى إن ملابسه لم تحترق. ثم طلب موسى من أخويه المتعجبين أن يدخلوا إليه وهو في النار، إن كانا موثقين أنهما على حق في طلبهما منصب الإمامة، وإذا لم يجروا أيّ منهما على ذلك، أصبح موسى الإمام السابع من دون منازع حي^٢، وتبعه الشيعة باستثناء أولئك الذين قالوا بإمامة إسماعيل.

أما الرواية الثانية التي جاءت نتيجة أبحاث دقيقة ومضنية، فتستند إلى مخطوط للهمداني نُشر سنة ١٩٥٨ يحمل عنوان^٣ «في نسب الخلفاء الفاطميين» جاء فيه:

١ - راجع د. فيليب حتي، صانع التاريخ العربي، دار الثقافة، (بيروت ١٩٦٩) ص ١٢٦ - ١٢٧

٢ - كوتسلمان، ص ٧٧

«لَمَّا اشْتَدَّتْ المحنة وعظمت التقيّة في أئام جعفر بن محمّد... كتم اسم الإمام من ولده تقيّة عليه، فلم يطلع عليه في حياة جعفر بن محمّد ولا بعد وفاته... إلّا والحق الثقات من شيعته، وكان يقول: التقيّة ديني ودين آبائي، ومن لا تقيّة له فلا دين له... فتعلّق كل فرقة من الشيعة بواحد من أربعة من ولد جعفر، وهم: موسى وإسماعيل ومحمّد وعبد الله. وكلّ منهم على غير عقد مؤكّد منه، وكان صاحب الحقّ عبد الله بن جعفر... فلم يكن قلم مقامه إلّا عند «الأبواب» والثقات تقيّة عليه. وقد تعلّق به قوم على غير هذه الحقيقة توقّعاً منهم... فلما أراد الأئمّة من ولد جعفر إحياء دعوة الحقّ، خافوا من نفاق المنافقين، فتمسّوا بغير أسمائهم، فحفظوا أسماهم للدعوة في مقام الحجيج، وتمسّوا ببارك وميمون وسعيد، للفأل الحسن في هذه الأسماء. وأشاروا بالإمامة إلى عبد الله، وتمسّى إسماعيل، ودعوا إلى أن المهدي،... اسمه محمّد بن إسماعيل، لأنّه محمّد، وهو من ولد عبد الله الذي تمسّى إسماعيل، وهما لا يوجدان، وأصحاب الحقّ سالمون آمنون، فكان كلّما قام منهم إمام تمسّى بمحمّد، والإشارة في الدعوة إلى محمّد بن إسماعيل، والمراد بإسماعيل عبد الله، والمراد بمحمّد كلّ من كان في صوره إلى أن يظهر صاحب المهور وهو محمّد، فتزول التقيّة، والأمر منتظم بهذه التسمية»...»

كان من شأن هذه الوثيقة أن تحيط اللثام عن سرّ اتباع بعض شيعة عليّ، بعد موت الإمام جعفر، لابنه إسماعيل الميت، إذ أوضحت أنّ إسماعيل الذي اتّبع، إنّما هو عبد الله الذي تمسّى، سترأ، بإسماعيل. إلّا أنّ ما أورده الشهرستاني من أنّ عبد الله هذا الذي مات بعد موت أبيه بسبعين يوماً، «لم يكن له ولد ذكر» من شأنه أن يُعيد المسألة إلى غموضها. ذلك أنّ محمّد بن إسماعيل، الذي قال الإسماعيليّون بإمامته بعد إسماعيل، في هذه الحالة، لا يكون موجوداً. كما أنّه من غير المنطقيّ، شيعياً، أن يقول هؤلاء بإمامة محمّد بن إسماعيل الحقيقيّ، الابن البكر لجعفر، بعد موت عبد الله، المسمّى سترأ بإسماعيل، لأنّ الإمامة يجب أن

١ - قيل أنّ عبد الله لم يعيش بعد أبيه أكثر من سبعين يوماً ولم يكن له ولد ذكر، وأنّ الفقرة التي قالت بإمامته تمسّى «التطحية» الشهرستاني، الملل والنحل، (القاهرة ١٩٦٨) ج ١ ص ١٦٧، وراجع الحسن بن موسى، فرق الشيعة (أستانبول ١٩٢١) ص ٦٥ - ٦٦

٢ - المهدي عبد الله، في نسب الخلفاء الفاطميين، تقدّم حسين فيض الله الهمداني، (القاهرة ١٩٥٨) ص ٩ - ١٠، راجع سامي العياشي، الإسماعيليّون في المرحلة القرموطيّة، دار ابن خلدون، (بيروت ١٩٨١) ص

تنتقل إلى ابن الإمام دون سواء. أمّا رأينا في الموضوع، فهو أنّ عبد الله، وموسى، إنّما هما شخص واحد، وأنّ عبد الله هو الابن البكر لجعفر الذي كان معروفاً بـ «أبي عبد الله».

أمّا هذه المتاهات، لا بدّ من اعتبار أنّ قسماً من الشيعة، وهم الذين عُرفوا بالإسماعيلية أو السبعية، قد قالوا بإمامة إسماعيل، أمّا سائر الشيعة، وهم الذين سيُعرفون فيما بعد بالاثني عشرية، فقد قالوا بإمامة موسى بن جعفر، سواء كان ذلك بعد موت جعفر مباشرة، أم بعد موت عبد الله المسّوّى سترأ بإسماعيل. وسيكون للبحث عودة إلى موضوع الإسماعيلية. أمّا مسار السرد هنا، فهو الاثنا عشرية.

عندما آلت الإمامة إلى موسى الكاظم سنة ١٤٨ هـ / ٧٦٥ م. كان على سدة الخلافة: المنصور، ثاني الخلفاء العبّاسيين (١٣٦ هـ / ٧٥٤ م. - ١٥٨ هـ / ٧٧٥ م.). وقد خلفه المهديّ (١٥٨ هـ / ٧٧٥ م. - ١٦٩ هـ / ٧٨٥ م.). ثمّ الهادي (١٦٩ هـ / ٧٨٥ م. - ١٧٠ هـ / ٧٨٦ م.). وجاء بعد الهادي أخوه هارون الرشيد.

بقي المنصور طوال عهده حذراً من الشيعة، عموماً، وفي آخر سنة من حياته، كان لا يزال يأمر بحبس كلّ من يظهر من الشيعة داعيةً أو متطرفاً^١. إلّا أنّه بعد ما حلّ في العام ١٤٥ هـ / ٧٦٢ م. بأحفاد الحسن، إبراهيم وأخيه محمّد ووالدهما عبد الله ومن سار معهم في حركتهم الانقلابية، وقد تمكّن المنصور من إبادتهم والقضاء على حركتهم تماماً^٢، قد أدّى إلى هدوء الشيعة، بجميع فرقهم، طوال بقية عهد المنصور. وعندما مات المنصور، كان لا يزال في سجنه بعض أحفاد الحسن، ومنهم الحسن بن إبراهيم بن عبد الله بن الحسن، الذي حاول الفرار بعد

١ - راجع: ابن الأثير، الكامل، ج ٦ ص ٢٥

٢ - راجع الفصل السابق، الشيعة ١ (الفصل السادس) من هذه الموسوعة.

موت المنصور بمحاولة حفر نفق تحت السجن، غير أن وشاية أعلمت الخليفة المهديّ بالأمر، فأمر بنقل الحسن إلى سجن آخر، تمكن الحسن من الفرار منه، ولكنّ المهديّ عاد واعتقله. ولمّا مثل الطالبي أمام الخليفة، قال له:

«يا أمير المؤمنين، إنك قد بسطت عدلك لرعيّتك، وأنصفتهم، وأحسنّت إليهم، فعظم رجاؤهم، وقد بقيت أشياء لو ذكرتها لك لم تدع النظر فيها، وأشياء خلف بابك تعمل فيها ولا تعلم بها، فإن جعلت إليّ السبيل إليك رفعتها».

واذ وثق الخليفة بكلام الطالبيّ، استجاب لرغبته، فكان هذا الأخير يدخل إليه كلّما أراد، «ويرفع إليه النصائح في الأمور الحسنة الجميلة، من أمر الثغور، وبناء الحصون، وتقوية الغزاة، وتزويج العزّاب، وفكّك الأسرى والمحبوسين، والقضاء على الغارمين، والصدقة على المتعقّين». وهكذا نشأت صداقة متينة بين الخليفة والталبيّ، وقد كتب العباسيّ توقيعاً «بأنّه قد اتخذ أخاً في الله ووصله بمائة ألف».

لكنّ هذا لم يمنع المهديّ من السير على خطى والده في الحذر من آل عليّ، ومن كرههم، ومن محاولة التخلّص منهم^٢، بالدسائس والاعتقال، حتّى إنّه كان يرفض أن يقال بأنّ ابن أبي طالب «وارث الإمامة من بعد الرسول»^٣. ويُسْتَدَلّ من بعض المدوّنات أنّه كان يسجن الإمام موسى الكاظم لا لشيء إلاّ لأنّه كان يخشى من خروجه عليه، إلى أن قرأ يوماً، وهو يصلي، آية تقول: «فهلّ ضيّبتم إن تولّيتُمْ أن تُفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم»^٤، فأحضر الإمام إليه، وقال له: «يا موسى! إنّي قرأت هذه الآية فخفت أن أكون قد قطعت رحمك، فوقّي لي أنّك لن تخرج عليّ». وعندما ردّ الإمام بالإيجاب، أطلق له سبيله^٥.

١ - ابن الأثير، الكامل، ج ٦ ص ٢٧ - ٢٨

٢ - المرجع السابق، ج ٦ ص ٧١ و ٧٢

٣ - المرجع السابق، ص ٨٤

٤ - الآية - ٢٢: ٤٧

٥ - ابن الأثير، الكامل، ج ٦ ص ٨٥

وموت المهديّ مسموماً بعد أحد عشر عاماً من الحكم، وانتقال الخلافة إلى ابنه موسى الهادي، ظهر الحسين بن عليّ بن الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب بالمدينة.

يردّ الشيعة سبب خروج الحسين هذا، إلى «ظلم العباسيّين ومطاردتهم لأبناء عليّ أمير المؤمنين». وكان مع الحسين جماعة من أهل بيته، منهم إدريس، ويحيى، وسليمان بنو عبد الله بن الحسن. وإذ تمكّن أحفاد عليّ في بداية الأمر من طرد عامل العباسيّين من المدينة المنورة، بايع الناس الحسين على كتاب الله وسنة نبيّه، وأقام وأصحابه بالمدينة أياً ما يتجهّزون، ثم خرجوا إلى مكة، فقابلهم بها جيش الحاكم العباسيّ يوم التروية الثامن من ذي الحجة (١٦٩ هـ / ٧٨٥ م). فدارت الدوائر على الحسين، فقتل وجماعة من أهل بيته وأصحابه، وجمعت رؤوسهم، فكانت مئة وثيفاً، وأرسلت إلى الخليفة. وكان من بين الرؤوس رأس سليمان بن عبد الله بن الحسن المثنى، وكان مقتلهم بموضع يقال له «فخّ» على ثلاثة أميال من مكة. أمّا يحيى فإنه فرّ من الوقعة إلى بلاد الديلم على شواطئ بحر قزوين، حيث دعا الناس إلى بيعته، وقد تجاوبوا، وبايعوا حفيد عليّ، الذي اشتدّ أمره وقويت شوكته هناك، إلى أن قتله الرّشيد فيما بعد. أمّا إدريس، بن عبد الله بن الحسن، فإنه فرّ إلى مصر، ومنها انتقل إلى المغرب، حيث سيؤسّس دولة الأدارسة^١.

لم تدم خلافة الهادي سوى سنة وثلاثة أشهر، وموته سنة ١٧٠ هـ / ٧٨٦ م. آلت الخلافة العباسيّة إلى أخيه هارون الرّشيد، الذي كان في الثانية والعشرين من عمره.

١ - الشيخ محمّد جواد مغنّيّة، دول الشيعة في التاريخ، (كربلاء، ١٩٦٥) ص ٨ - ١٠، ابن الأثير، الكامل، ج ٦ ص ٩٠ - ٩٤، المسعودي، مروج الذهب، (القاهرة ١٩٦٤) ج ٢ ص ٢٠٨، اليعقوبي، ج ٢ ص ٤٠٥.

كان أول ما نفذ هارون الرشيد ضد الشيعة، أنه مكر يحيى بن عبد الله ابن الحسن الذي كان قد قوي في بلاد الديلم، حيث «اشتدت شوكته، وكثرت جموعه، وأتاه الناس من الأمصار». وتمكّن الرشيد بواسطة بعض السعاة من إقناع يحيى، حفيد الحسن، بالمجيء إلى بغداد، بعد أن منحه الأمان بيمين مغلظة منصوبة بخط يده، وقد أشهد العلماء والأكابر عليها. وإذ حضر يحيى إلى بغداد، أكرمه الرشيد، وأمر له بمال كثير في العلانية، غير أنه سرّاً، أمر بحبسه. وفي النهاية تمكّن الخليفة العباسي من الغدر بحفيد الحسن الذي مات في سجن بغداد سنة ١٧٦ هـ / ٧٩٢ م^١. وبعد ثلاث سنوات، أمر الرشيد بسجن الإمام موسى الكاظم، الذي نُقل من المدينة إلى سجن الخلافة ببغداد دون مقاومة. وقد ذكر الذين أشرفوا على حبس الإمام الشيعي السابع، أنه «كان إذا صلى العتمة، حمد الله ومجّده ودعاه إلى أن يزول الليل. ثم يقوم فيصلي، حتى يصلي الصبح، ثم يذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس، ثم يتعد إلى ارتفاع الضحى، ثم يرقد، ويستيقظ قبل الزوال، ثم يتوضأ ويصلي، حتى يصلي العصر، ثم يذكر الله، حتى يصلي المغرب، ثم يصلي ما بين المغرب والعتمة...». وذكروا أنه لما كان محبوساً، بعث إلى الرشيد برسالة جاء فيها: «إنه لن ينقضي عني يوم من البلاء إلا ينقضي عنك معه يوم من الرخاء، حتى ينقضي جميعاً إلى يوم ليس له انقضاء يخسر فيه المبطلون»^٢.

تعددت الروايات حول الأسباب الحقيقية التي كانت وراء قيام هارون الرشيد بسجن الإمام الشيعي وحول ظروف هذا العمل. منها رواية تقول بأن «الرشيد اعتمر في شهر رمضان من سنة ١٧٩ هـ / ٧٩٥ م. فلما عاد إلى المدينة، دخل

١ - مخنية، دول الشيعة في التاريخ، ص ١٩، ابن الأثير، الكامل، ج ٦ ص ١٢٥، قنابل، المسمودي، مروج الذهب، ج ٢ ص ٢٥٢، البقوي، ج ٢ ص ٤٠٨.

٢ - ابن الأثير، الكامل، ج ٦ ص ١٦٤.

إلى قبر النبي يزوره، ومعه الناس، فلما انتهى إلى القبر وقف فقال: «السلام عليك يا رسول الله يا ابن عمّ». وقد رام الرّشيد من ذلك الاقتدار بنسبه على من حوله. وهنا دنا موسى بن جعفر، وهو السليل المباشر للرسول عبر ابنته فاطمة، وقال: «السلام عليك يا رسول الله، يا أبي الحبيب». وهنا تغيّر وجه الرّشيد وقال: «هذا الفخر يا أبا الحسن جدّاً». ثم أخذ معه إلى العراق، وحجّبه^١.

ويقول بعض الروايات إن هارون الرّشيد كان قد استغلّ رحلة الحجّ هذه إلى مكة، ليختبر الإمام السابع، فكان الخليفة العبّاسيّ يريد معرفة ما إذا كان موسى ابن جعفر الكاظم يقف وراء الساخطين والمحرّضين على الثورة، خاصة وأنّ الخليفة العبّاسيّ كان يعاني من أنّ هناك من يعيش في هذه المدينة المقدّسة ويستطيع الاستناد إلى صلة القرى الوطيدة مع الرسول، وكان له مكانة مرموقة عند هيجان المشاعر في العراق، الذي يميل أكثر أهله إلى شيعة عليّ. وكان الرّشيد قد حقّق بعض المكانة والاحترام عند هؤلاء الشيعة، إثر ما رُوي من أنّ الخليفة، وهو في رحلة صيد، قد توقّف حصانه فجأة عن المسير معانداً، وإذ دُهِش الخليفة وصحبه من ارتعاش الحصان الذي أبى التّقدّم، تفحصوا المكان، فوجدوا نتوءاً صغيراً في الرمال، ليس من شأنه أن يلفت النظر، لكنّ السلوك الغريب للجواد، جعل الخليفة يأمر بنبش الرمال هناك، ولشدهما كانت دهشتهم كبيرة إذ وجدوا جثة سليمة كان بجمجمتها ثقب في الجبهة، «فأدرك» الخليفة وصحبه في الحال أنّ هذه الجثة إنّما هي لعليّ بن أبي طالب... وعلا الهتاف الذي بدأ من قبل حاشية هارون الرّشيد، وسرعان ما عمّ شواطئ دجلة والفرات.

بهذا، علا شأن الخليفة عند شيعة عليّ، الذين اعتبروا أنّ الرّشيد يتمتّع برحمة الله ورضاه، فإنّه، تعالى، لا يمكن أن يكلّف ملعوناً بمثل هذا الحدث الكبير.

١ - المرجع السابق.

وقد أُنِيعَ الرشيد هذا الحدث بإقامة ضريح بسيط فوق القبر. وحول هذا القبر، الذي بقي محميّاً طويلاً ببناء لائق، سرعان ما نشأت المدينة الشيعيّة المقدّسة: النجف الأشرف، التي هي أهمّ قبلة لحجيج الشيعة بجانب كربلاء، حيث دفن الحسين.

أمّا الخليفة، فكان على يقين من أنّ أهميّة مقبرة عليّ بالنسبة لمشاعر الشيعة، تفوق أهميّة منزل الإمام السابع موسى بن جعفر الكاظم، حتّى وإن كان عليّ ميتاً، والكاظم على قيد الحياة. فمن كان يريد أن يحجّ إلى مكان مقدّس، لن يتّجه إلى المدينة ليمجّد الإمام بعد اليوم، إنّما هو سيذهب إلى النجف الأشرف ليصليّ عند ضريح عليّ^١.

بعد مرور أربع سنوات على سجنه، مات الإمام موسى الكاظم في بغداد سنة ١٨٣ هـ / ٧٩٩ م. وقد اختلفت الروايات حول ظروف موته، فمنها ما ذكر بأنّه قضى في سجن الرشيد^٢، وعندما توفّي، أحضر الخليفة القواد والكتاب والهاشميين والقضاة ومن حضر ببغداد من الطالبين، ثمّ أمر بالكشف عن وجه الإمام، وقال السجّان للحاضرين: أتعرفون هذا؟ - قالوا: نعرفه حقّ معرفة، هذا موسى بن جعفر. - فقال السجّان: أترون أنّ به أثراً وما يدلّ على اغتيال؟ - قالوا: لا - ثمّ غُسل وكفّن وأُخرج ودُفن في مقابر قریش في الجانب الغربي^٣.

بيد أنّ رواية أخرى منقولة عن عبد الله بن مالك الخزازي الذي كان على شرطة الرشيد، تقول بأنّ الخليفة قد استدعى ليلاً رئيس شرطته على جناح السرعة، وعندما دخل هذا إليه، وجده جالساً على فراشه مغموماً. وبعد سكوت دام حوالي الساعة، كلّم الخليفة رئيس شرطته، فأخبره عن أنّه رأى في منامه

١ - راجع كوتسلمان، ص ٨٣ - ٨٤.

٢ - ابن الأثير، الكامل، ج ٦ ص ١٦٤.

٣ - اليعقوبي، ج ٢ ص ٤١٤.

حبشياً قد أتاه ومعه حربة، فقال له: «إن لم تُخَلِّ عن موسى بن جعفر الساعة، نحررتك بهذه الحربة». وأمر الخليفة رئيس شرطته بأن يذهب ويطلق سراح حفيد الحسين، ويأن يعطيه ثلاثين ألف درهم وأن يقول له: «إن أحببت المقام فلك عندي ما تحب، وإن أحببت الماضي إلى المدينة فالإذن في ذلك إليك». ويروي الحزاعي أنه ذهب إلى السجن، وأبلغ إلى موسى بما أمره الخليفة، وقال له: «لقد رأيت من أمرك عجباً». فكان من الإمام الشيعي أن أخبر الحزاعي بأنه إذ «كان نائماً، أتاه النبي (سم) فقال: يا موسى، حُبست مظلوماً فقل هذه الكلمات فإِنَّكَ لا تبيت هذه الليلة في الحبس. فقال الكاظم: «بابي وأمي ما أقول؟» فقال: «قل يا سامع كل صوت، ويا سابق الفوت، ويا كاسي العظام لحماً ومنشرها بعد الموت، أسألك بأسمائك الحسنى وبإسمك الأعظم الأكبر المخزون المكنون الذي لم يطلع عليه أحد من المخلوقين، يا حليماً ذا أناة لا يقوى على أناته، يا ذا المعروف الذي لا ينقطع ابداً، ولا يحصى عدداً، فرَّج عني». فكان ما ترى^١. وتذكر هذه الرواية أن الإمام موسى الكاظم قد توفي بعد ذلك، وتحديدًا سنة ١٨٦ هـ / ٨٠١ م. في بغداد مسموماً. غير أن المعتمد في سلسلة الأئمة أن الإمام الكاظم قد قبض سنة ١٨٣ هـ / ٧٩٩ م. وقد خلفه في الإمامة، ابنه البكر، علي الرضا. وهو واحد من ثمانية عشر ذكراً، لهم ثلاث وعشرون أختاً، هم مجموع أبناء موسى الكاظم، الإمام الشيعي السابع من أئمة الاثني عشرية، وكان له من العمر إذ ذاك ثمان وخمسون سنة. وقد أوصى موسى بن جعفر ألا تتزوج بناته، فلم تتزوج واحدة منهن إلا أم سلمة، فإنها تزوجت بمصر، وقد تزوجها القاسم بن محمد بن جعفر بن محمد، «فجرى في هذا بينه وبين أهله شيء شديد، حتى حلف أنه ما كشف لها كنفاً، وأنه ما أراد إلا أن يحجَّ بها»^٢.

١ - المسعودي، مروج الذهب، ج ٢ ص ٢٥٩ و ٢٦٥

٢ - اليعقوبي، ج ٢ ص ٤١٤ - ٤١٥

«إن مشي الرجال مع الرجل
فتنة للمتبع ومذلة للتابع»
علي الرضا^١

علي الرضا، الأمل الخائب

كان من الطبيعي أن يعقب الابن البكر لموسى، واسمه علي، أباه في تولي الإمامة إثر وفاة موسى. وكان علي، الذي وُلد بالمدينة سنة ١٤٨ هـ / ٧٦٥ م. قد بلغ يومها (سنة ١٨٣ هـ ٧٩٩ م.) الرابعة والثلاثين من عمره. وكان علي الإمام الشيعي الثامن الشاب، أن يبقى طوال السنوات العشر الأولى من عهد إمامته، وهي السنوات العشر المتبقية من عهد هارون الرشيد، أن يبقى حذراً، يقظاً، متخوفاً من ملاقاته المصير الذي لقيه والده الإمام السابع علي يد الخليفة العباسي الذي سطع نجمه فبرز سطوع نجم الإمام، حتى عند الشيعة أنفسهم^٢. وكان الرشيد، في هذه الحقبة منشغلاً بالنزاع الذي نشب بين شرق الدولة الإسلامية وغربها، وبذلك الذي اشتد بأرض الشام بين القيسية واليمانية، الحزبين اللذين ظهرا بمختلف الأسماء. ففي عهد هارون الرشيد سُفكت دماء كثيرة في دمشق وحوارن والبقاع والأردن وحمص. وكان هذا القتال قد نشب واستمرّ سنتين متواصلتين بسبب أن قيسياً سرق بطيخة من بستان يماني^٣. حتى إن الخليفة فكر بقيادة حملة تأديبية عليهم، ثم عاد فكلف بها قائداً من البرامكة، تمكن من تجريد المتقاتلين بالشام من سلاحهم تماماً^٤.

كذلك كان علي هارون الرشيد في تلك الحقبة نفسها أن يهتم بجماعة أخرى

١ - اليقوي، ج ٢ ص ٤٥٢

٢ - راجع، ابن الأثير، الكامل، ج ٦ ص ٢٥١، كونسلطن، ص ١٨٥، اليقوي، ج ٢ ص ٤١٤ و ٤٥٢

٣ - ابن الأثير، الكامل، ج ٦ ص ١٢٨

٤ - الطبري، تاريخ الرسل والملوك، نشر (لیدن ١٨٧٩) ج ٢ ص ٦٣٩

من أحلاف الشيعة، هم البرامكة، أبناء الأسرة الفارسية العريقة المتحدرة من كاهن بوذي كبير اسمه برمك، وقد قام أفرادها بجلال الأعمال، وبذلوا بسخاء نادر، حتى غدت لفظة «برمكي» مرادفة للجدود^١. بيد أن هارون الرشيد قد قرّر القضاء عليهم نظراً لما حققوه من مهابة ووجاهة، فكان أن أوقع بهم في السنة الرابعة لإمامة عليّ الرضا (١٨٧ هـ / ٨٠٢ م). ومن ثمّ قضى عليهم فيما عرف بنكبة البرامكة^٢. ولكنّ واقع الإمام الشيعي الثامن: عليّ الرضا، قد تبدّل بموت هارون الرشيد سنة ١٩٢ هـ / ٨٠٨ م) ونشوب النزاع بين أبنائه وورثته.

كان من جملة أبناء الرشيد الذكور الاثني عشر، محمّد البكر، وهو الملقّب بالأمين، والثاني عبد الله، وهو الملقّب بالمأمون. وكان الرشيد قد أوصى بالخلافة لولديه الأمين فالمأمون من بعده. وقد فرض على ولديه هذين أن يوقع كل منهما على تعهّد بأن يحترم وصيّة أبيه في هذا الشأن، وأن يخلص لأخيه كل الإخلاص. وقد تمّ ذلك سنة ١٨٦ هـ / ٨٠١ م. بخلاف حجّ الرشيد إلى مكة، حيث كتب الشقيقان التعهّدين على نفسيهما بخطّ يديهما، وقد شهد الشهود على الكتّابين اللذين غلّقا على باب الكعبة، وبعد أن قرّنا مراراً على الناس، أودعا الكعبة^٣. إلّا أن هذا لم يمنع من اقتتال الشقيقين بشأن الخلافة، بعد موت الرشيد، وانقسام الأمبراطورية الإسلامية بينهما بشكل واضح الفرز. ذلك أن الأمين، كان من أمّ عربية، وهي زبيدة أمّ جعفر بنت جعفر المنصور، بينما كانت أمّ المأمون، أمّ ولد، فارسية، اسمها مراجل الباذغيسية^٤. ومع أن بعض المؤرّخين يذكر أن أمّ المأمون الفارسية قد ماتت فور ولادتها للمأمون^٥. فقد تحزّب أهل فارس بأكثريةهم لهذا

١ - حنّ، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢ ص ١٦٢

٢ - راجع: ابن الأثير، الكامل، ج ٦ ص ١٧٥ وما يليها، الطبري ج ٣ ص ٦٧٦ - ٦٨٠، المسعودي، ج ٢ ص ٣٧٧ - ٣٩٥.

٣ - نص الكتّابين وتعهدَي الأخوين في «اليقوي»، ج ٢ ص ٤١٦ - ٤٢١

٤ - راجع: ابن الأثير، الكامل، ج ٦ ص ٢١٦، اليقوي، ج ٢ ص ٤٢٢ و ٤٤٤، المسعودي، مروج الذهب، ج ٢ ص ٢٩٦ و ج ٤ ص ٤، السيوطي، تاريخ الخلفاء، (الطبعة ١٩٥٢) ص ٢٩٠ و ٢٩٧ و ٢٠٦

٥ - السيوطي، ص ٢٠٦

الأخير ضد أخيه المولود من أم عربية، وكذلك فعل أهل العراق، وأكثرهم من الشيعة.

كان هارون الرشيد قد بايع، إضافة إلى ابنه، الأمين، وبعده المأمون، إلى ابنه الثالث، القاسم الملقب بالمؤمن، بولاية العهد بعد المأمون، « فإذا أفضت الخلافة إلى المأمون، كان أمر القاسم إليه، إن شاء أن يقره أقره، وأن يخلعه خلعه » . وكان القاسم، وهو الابن الثالث للرشيد، مثل المأمون، من أم من حريم الخليفة. وكانت بداية الفتنة بين الأمين والمأمون، عندما عمل الأمين بنصيحة بعض المقربين منه. فبعد أن كان قد أمر بالدعاء لابنه موسى بالإمرة، بعد الدعاء للمأمون والمؤمن، أمر بعد وقت قصير بإسقاط اسم القاسم، المؤمن، وراسل المأمون وهذا الأخير وإلى على خراسان، طالباً منه الموافقة على تقديم اسم ابنه موسى على اسمه هو! ولكن المأمون قد رفض هذا الأمر بعد استشارة أعوانه، فما كان من الأمين إلا أن نكث عهده لأبيه وللمؤمنين، وخلع المأمون من ولاية العهد، وأحل مكانه طفله موسى بعد أن لقبه بـ « الناطق بالحق » ... وأرسل إلى الكعبة من أتاء بكتائبي التعمد للذين وضعهما الرشيد فيها ببيعة الأمين والمأمون، ومرتجهاً^١.

كانت ردة فعل شيعة خراسان على عزل المأمون ابن الفارسية من ولاية العهد عنيفة، وكان أول ما فعلوه، أنهم صاروا يسمون المأمون إمام المؤمنين^٢. فردّ الأمين بإلغاء العملة التي كان قد ضربها المأمون بخراسان، وبإضافة اسم ابنه الثاني، عبد الله، إلى الدعاء، ولقبه بـ « القائم بالحق » وأمر بعض قواته بالسير إلى خراسان لمحاصرة المأمون^٣. وبعد معارك عديدة بين الأمين، وعلى رأس جيوشه قادة

١ - المسعودي، مروج الذهب، ج ٣ ص ٢٦٤

٢ - راجع، ابن الأثير، الكامل، ج ٦ ص ٢٢٧ - ٢٢٩، السيوطي، ص ٢٩٧ - ٣٠٠، المسعودي، مروج الذهب، ج ٣ ص ٤٠٥ - ٤٠٦

٣ - ابن الأثير، الكامل، ج ٦ ص ٢٢٤

٤ - السيوطي، ص ٢٩٨

٥ - ابن الأثير، الكامل، ج ٦ ص ٢٢٩ - ٢٤٧

يخاصمون الشيعة، والمأمون، وجيوشه بأكثريتها الساحقة من الشيعة، وقد دارت تلك المعارك في فارس وفي العراق، دارت الدوائر على الأمين، ولم يكن قد مضى على خلافته سوى أربع سنوات وسبعة أشهر وواحد وعشرين يوماً، لما وضع رأسه بين يدي أخيه المأمون، الذي رذّء إلى العراق ليُدفن مع جثته^١.

يتضح الفارق في الانتماء السياسي، إذا صحّ التعبير، بين فريق الأمين وفريق المأمون، مما جاء في بعض المدونات، من أنه إثر مقتل الأمين، دخل أحد خدم أمه زبيدة إليها وقال لها: «ما يجلسك وقد قُتل أمير المؤمنين؟» - فقالت: «ويلكلا وما أصنع؟» - فقال: «تخرجين فتطلبين بثأره كما خرجت عائشة تطلب بدم عثمان» - فقالت: «أخساً لا أم لك، ما للنساء وطلب الثأر ومنازلة الأبطال؟» - ولما كتبت أم الأمين، زبيدة، إلى المأمون شعراً تعاتبه على قتل أخيه، قرأ المأمون الشعر، فبكى، ثم قال: «اللهم إني أقول كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، كرم الله وجهه، لما بلغه قتل عثمان: - والله ما قتلت، ولا أمرت، ولا رضيت^٢» -.

قبل مقتل الأمين، كان عدد من البلدان لا بأس به قد بايع المأمون، وبعد مقتل الأمين سنة ١٩٨ هـ / ٨١٣ م - لم يبق أحد إلا أعطى طاعته للمأمون، الذي «كان معروفاً بالتشيع^٣». وكان أهم إجراء أساسي إتخذه الخليفة العباسي السابع، أنه بعد سنتين من توليه الخلافة، خلع أخاه الآخر: المؤمن، عن ولاية العهد، وجعل ولي العهد من بعده، الإمام الشيعي الثامن: علي بن موسى الكاظم «ولقبه الرضى من آل محمد^٤»، و«بايع له ودُعي له على المنابر، وضربت الدنانير والدراهم

١ - راجع: المسعودي، مروج الذهب، ج ٢ ص ٤٢٠ - ٤٢٤؛ اليعقوبي، ج ٢ ص ٤٤١ - ٤٤٢؛ السيوطي، ص ٢٩٩ وما يليها؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٦ ص ٢٨٢ - ٢٨٨

٢ - المسعودي، مروج الذهب، ج ٢ ص ٤٢٢ - ٤٢٤

٣ - السيوطي، ص ٢٠٧؛ المسعودي، مروج الذهب، ج ٤ ص ٥

٤ - المسعودي، مروج الذهب، ج ٢ ص ٣٢٦؛ قابل السيوطي، ص ٢٠٧؛ اليعقوبي، ج ٢ ص ٤٤٨

باسمه^١»، وقد جاء عليها «المأمون أمير المؤمنين، وعليّ الرضا إمام كل المؤمنين»^٢.

وتأكيداً على الهوية الشيعية للدولة، أمر المأمون الناس بخلع الأسود، وارتداء الأخضر، رمز التشيع، وكتب بذلك إلى عمال المناطق^٣. وزاد في تقريب الإمام الشيعي إليه، فزوجه ابنته^٤، أم الفضل. وفي تبريره لتولية العهد لعلّي جمع المأمون جميع الخواص والأولياء، وأخبرهم «أنه نظر في ولد العباس، وولد عليّ، فلم يجد أحداً أفضل ولا أحقّ بالأمر من عليّ بن موسى الرضا»^٥. حتى إن بعض المدونات، ذكر أن المأمون، من فرط تشيعه، «هم أن يخلع نفسه ويفوض الأمر إلى عليّ الرضا»^٦...

قابل بنو العباس إقدام الخليفة العباسي على تعيين الإمام الشيعي، حفيد عليّ، ولياً للعهد، بالرفض الصارخ، بحجة أنهم لا يقبلون «بخروج الخلافة من ولد العباس»^٧. ولم تقصر أشهر قليلة حتى نجح الرافضون من بني العباس في إقناع البغداديين بالتمرد على المأمون، فأنكروا خلافته، وبايعوا إبراهيم بن المهدي العباسي بالخلافة، ولقبوه بالمبارك. وسرعان ما بايع بنو هاشم «المبارك» الذي استولى على الكوفة، وعسكر بالمدائن^٨. وهكذا، دبت الاضطرابات في أكثر أنحاء

١ - البقوي، ج ٢ ص ٤٤٨

٢ - كونسلمان، ص ٨٩

٣ - ابن الأثير، الكامل، ج ٦ ص ٢٢٦، البقوي، ج ٢ ص ٤٤٨، السيوطي، ص ٢٠٧

٤ - السيوطي، ص ٢٠٧، المسعودي، مروج الذهب، ج ٤ ص ٢٨

٥ - المسعودي، مروج الذهب، ج ٤ ص ٢٨، ابن الأثير، الكامل، ج ٦ ص ٢٢٦

٦ - السيوطي، ص ٢٠٧

٧ - ابن الأثير، الكامل، ج ٦ ص ٢٢٦، السيوطي، ص ٢٠٧، البقوي، ج ٢ ص ٤٤٨، المسعودي، مروج

الذهب، ج ٤ ص ٢٩

٨ - ابن الأثير، الكامل، ج ٦ ص ٢٤١، قابل، البقوي، ج ٢ ص ٤٥٠، المسعودي، مروج الذهب، ج ٤

ص ٢٨

الأمبراطورية الإسلامية، وكادت الحرب أن تستشري بين المأمون والشيعة والمؤيدين من جهة، والعباسيين ومؤيديهم، وجلّهم من السنة، من جهة ثانية، خاصة وأن أهل بغداد قد أضافوا إلى لقب المبارك، الذي أعطوه للخليفة الذي بايعوه، لقب «الخليفة السني»^١.

وبينما الأوضاع على هذه الحال من الاضطراب، مات الإمام الشيعي الثامن، وليّ عهد الخلافة، الذي جاء تعيينه من قبل المأمون، عليّ الرضا، وقيل إنه مات مسموماً بالعنب، وشاع بين الناس، خاصة الشيعة منهم، أن المأمون، هو الذي أمر بدمّ السم للإمام، لأنّه أراد أن يتخلص من سبب الثورة عليه. إلا أن بعض الرواة والمدونين يستبعد هذا الأمر^٢.

كان إقدام الخليفة العباسي السابع، المأمون، على تعيين الإمام الشيعي الثامن، عليّ الرضا، ولياً لعهد الخلافة، وتحصيل المبايعة له من أمصار الأمبراطورية الإسلامية، قد جاء إثر بعض الاضطرابات التي أحدثها قادة شيعة في بداية عهد هذا الخليفة، الذي يدين، أصلاً، للشيعة بتقلبه على أخيه الأمين، ويتفرّد بالخلافة الإسلامية. ذلك أنّه كان قد خرج بالعراق أبو السرايا السريّ بن منصور الشيباني، واشتدّ أمره، ومعه أحد أحفاد الحسن، محمد بن إبراهيم، وهو المعروف بابن طباطبا، كما ثار بالمدينة حفيد آخر للحسن، هو محمد بن سليمان، وفي البصرة تمرد حفيدان آخران للحسن، عليّ بن محمد وزيد بن موسى. وعندما مات ابن طباطبا، حلّ محله في قيادة ثورة العراق أحد أحفاد الحسين، محمد بن محمد ابن يحيى. في الوقت نفسه، ظهر في اليمن من أحفاد الحسن إبراهيم بن موسى، وبمكة ونواحي الحجاز، أحد أحفاد الحسين، محمد بن جعفر. وقبل أن يتمكن

١ - ابن الأثير، الكامل، ج ٦ ص ٢٤٦

٢ - راجع ابن الأثير، الكامل، ج ٦ ص ٢٥١، قابل، اليعقوبي، ج ٢ ص ٤٥٢، المسعودي، مروج الذهب، ج ٤ ص ٢٨

المأمون من السيطرة على الوضع، ظهر تأثير طالبي آخر بالمدينة المنورة من أحفاد الحسين، هو الحسين بن الحسن، المعروف بالأفطس^١.

يلاحظ إذاً أن المأمون قد اتخذ قراره بتعيين الإمام الشيعي خليفة له في ظل تلك الأحداث الخطيرة المتمثلة بثورة أحفاد الحسن والحسين، في الحجاز واليمن والعراق؛ وبالفعل، فمع هذا التعيين، واستبدال الأخضر بالأسود، هدأ الشيعة، على أن هذه الهدأة، قابلهما ظهور معاكس، ثورة عائلة الخليفة بالذات.

هذا الواقع، جعل الشيعة فيما بعد يتهمون المأمون بقتل الإمام، بهدف التخلص من ثورة أسرة العباس، مثلما تخلّص بتعيينه ولياً للعهد، من ثورة الشيعة.

وبالرغم من أن المأمون قد راسل بعض المقرّبين منه، عند موت الإمام، يعلمهم بأن موت هذا الأخير «إنما هو مصيبة حلّت به»؛ ومن أن المأمون قد «سار في جنازة الرضا، حاسراً في مبطنة بيضاء، وهو بين قائمتي التعشّي يقول: إلى من أروح بعدك، يا أبا الحسن! ... وقد أقام عند قبره ثلاثة أيام يؤتى في كل يوم برغيف وملح، فيأكله»^٢؛ وبالرغم من أن المأمون قد «صلى على الإمام» وهو شديد التأثر؛ وبالرغم من أن الضريح الذي دُفن فيه «الرضا» في مشهد، والذي يؤمن كثيرون من الشيعة بأن زيارته أهم من الحجّ إلى الكعبة في مكة، هذا الضريح لحفيد الرسول، قد قام الخليفة المأمون ببناؤه^٣، فإن الشيعة يعتبرون المأمون، قاتلاً للإمام الشامن، ويروي الزوّار أنه على جدار الضريح، لا تزال الصحاف التي أكل الإمام منها العنب المسموم^٤.

١ - المسعودي، مروج الذهب، ج ٤ ص ٢٦ - ٢٨؛ اليعقوبي، ج ٢ ص ٤٤٧ - ٤٤٨

٢ - ابن الأثير، الكامل، ج ٦ ص ٢٥١

٣ - اليعقوبي، ج ٢ ص ٤٥٢

٤ - المسعودي، مروج الذهب، ج ٢ ص ٢٨

٥ - كونسلمان، ص ٩٢

٦ - المرجع السابق.

في الواقع، لا يستطيع أحد اليوم أن يؤكد، أو أن ينفي، ما إذا كان المأمون قد قتل علياً الرضا أم لا. إلا أن المعروف من الوقائع المدونة، يفيد بأن المأمون قد أظهر الكثير من التقرب نحو الشيعة، من ذلك أنه لعن معاوية، عدو علي، علناً، ونادى بأن «برئت الذمة من أحد من الناس ذكر معاوية بخير أو قدمه على أحد من أصحاب الرسول^١»؛ وبأن المأمون قد ردّ إلى أحفاد الحسن والحسين «قدك^٢» بعد حرمان آل علي نحو مائتي سنة من خيراتها^٣؛ إضافة إلى ما أظهره في شأن إحلال الأخضر، رمز شيعة علي، محلّ الأسود، رمز بني العباس في اللباس والبيارق، وإلى إدلائه بالكثير من الآراء الدينية المتوافقة مع المبادئ الشيعية، غير أن المأمون، الذي كان عند تعيينه الإمام علياً الرضا ولياً للعهد، قد برز هذا الإجراء بأنه «لم يجد بين بني العباس وبني علي من هو أحقّ منه» عاد بعد موت الإمام وبرز الأمر بأنه «فعل ما فعل لأنّ أبا بكر لما ولي لم يول أحدًا من بني هاشم شيئاً، ثمّ عمر ثمّ عثمان كذلك، ثمّ ولي علي، فولّى عبد الله بن عباس البصرة، وعبيد الله اليمن، ومعبدا مكة، وقتلما البحرين، وما ترك أحدًا منهم حتى ولّاه شيئاً، فكانت هذه مئة في أعناقنا حتى كافأته في ولده بما فعلت^٤».

وواقع الحال، أنه بينما كان الأخضر يعود ليغيب في دولة بني العباس، حيث عاد الأسود للظهور، بناء على أمر المأمون نفسه، كان الأمل الشيعي، بدوره، يأفل مع الأخضر، لتحلّ مع الأسود، خيبة أخرى مريرة. ولم يستطع الإمام الثامن، علي الرضا، أن يورث شيعة علي أكثر من اعتبار بأنه أقدس شهدائهم، إذ كان «المطر

١ - المسعودي، مروج الذهب، ج ٤ ص ٤٠، السيويني، ص ٢٠٨.

٢ - قدك: واحة في الحجاز على مقربة من خيبر، كان أهلها من المزارعين اليهود، اشتهرت قديماً بشمرها وقمحها، أرسل النبي علياً على رأس مئة من رجاله لمحاربتهم ثمّ ساحهم على نصف أملاكهم. وكان الرسول قد وهبها لابنته فاطمة، إلا أن أبا بكر حجبها عنها. وتعدّ هذه الحادثة من أسباب نقمة الشيعة على أبي بكر.

٣ - البغوي، ج ٢ ص ٤٦٩.

٤ - السيويني، ص ٢٠٨.

يسقط لدعائه، بل كان في استطاعته أن يتنبأ بسقوط مطر السحابة المعينة على المنطقة المعينة، وكان يملك القدرة على إنبات الذهب على الصخر إن هو هوى عليه بعضاً، وكان يعرف مكنون السرائر، وميعاد دتو الأجل. وفي قلب شتاء قارس كان يجعل العشب ينمو، والعنب ينضج^١. ... ومنذ مات عليّ الرضا، صارت «مشهد» قدس أقداس الشيعة في بلاد فارس، فهي تضم ضريح الإمام عليّ الرضا. وقد تحول البناء المتواضع منذ زمن بعيد إلى جامع فخم ذي سحن واسع، دخوله محرم على غير المسلمين. وفي حرم هذا الجامع يقوم قبر الإمام الثامن الذي توفي سنة ٢٠٣ هـ / ٨١٨ م، حيث يستطيع الزائر، من خلال ستار فضي، أن يرى الجثمان مسجى.

من محمد الجواد إلى الإمام العسكري

لم يكن غياب الإمام الثامن، عليّ الرضا، سنة ٢٠٣ هـ / ٨١٨ م. مجرد موت إمام في مسار تاريخ الشيعة، بل كان أكثر من ذلك بكثير.

فإن غياب عليّ الرضا، إضافة إلى ما عناه من فقدان الأمل الشيعي بالخلافة، عني أيضاً تضعف شأن الإمامة، ولو إلى حين. وعندما يفقد الشيعة بعضاً من شأن الإمامة التي جعلوها لهم، أصلاً، بديلاً عن القيادة والمرجعية اللتين فقدوهما بفقدانهم مركز الخلافة، فذلك يعني التضعف والتيه.

والسبب في كل ذلك، أن الابن البكر للإمام الراحل: محمداً، كان في السابعة من عمره، عندما مات أبوه. وإذا كان التقليد يقضي بأن تؤول الإمامة إلى الابن البكر للإمام الراحل، فلم يكن بدءاً من أن يكون ذلك الطفل بالذات، ذو السنوات السبع، هو الإمام.

١ - كونسلمان، ص ٩٢

وعندما كان الخليفة المأمون يرسل أقرباء العباسيين وسواهم من الثائرين عليه في بغداد بأنه عيّن حفيد عليّ وليّاً للعهد، وكان مضمون رسالته أن «عليّاً الرضا مات، وأنهم إنمّا تقموا ببيعتهم، أمّا وقد مات، فلم يعد عندهم من حجة في عدم الدخول في طاعته»^١، كان الشيعة ينظرون في أمر الإمامة وكان الطفل محمّد آنذاك في المدينة؛ وبعد عودة الخليفة المأمون بوقت قصير إلى بغداد، واستعادته السيطرة التامة عليها، وعودته عن تبني الأخضر، بالعودة إلى اللواء واللباس الاسودين^٢، نُقل الإمام الطفل إلى بغداد. ويُروى أن أول مواجهة بين الخليفة المأمون والإمام الطفل، قد جرت بعد وقت قصير من حمل الإمام إلى بغداد، إذ كان يلعب مع أترابه في الطريق، وكان الخليفة يمرّ مسرعاً مع حرسه، فاختنفى رفاق الإمام في أركان البيوت، أمّا هو، فبقي واقفاً، فكان أن توقّف المأمون وخاطبه مندهشاً بجراته، فجاء ردّ الإمام الطفل: «يا أمير المؤمنين: إن الطريق ليست ضيقة عليك وعلى رجالك وعليّ أنا، وأنا لم أتربّما يغضبك ولهذا فلست أخشاك، وأنت لست من يؤذي بريئاً»^٣.

كان لا بدّ من أن يدع هذا الموقف الجريء من قبل الطفل تأثيراً في قلب الخليفة، الذي سيحاول، مرة أخرى، أن يفيد من العلاقة العائليّة على الأقلّ، مع أحفاد عليّ، ليُبقي على ولاء الشيعة له، وذلك بتزويج محمّد بن عليّ، من ابنته زينب، وإن كانت هذه شقيقة أمّ من سيتزوجها.

وفي تدبير آخر من هذا القبيل، إستعمل المأمون أحد أحفاد عليّ بن أبي طالب: عبيد الله ابن الحسن بن عبيد الله، والياً على الحرمين^٤؛ كما أنّه أمر بلعن

١ - راجع: ابن الأثير، الكامل، ج ٦ ص ٢٠٣، السيوطي، ص ٢٠٧.

٢ - ابن الأثير، الكامل، ج ٦ ص ٢٥٧، اليعقوبي، ج ٢ ص ٤٥٢ - ٤٥٤، السيوطي، ص ٢٠٧.

٣ - كونسلمان، ص ٩٤.

٤ - راجع: المسعودي، مروج الذهب، ج ٤ ص ٢٨، كونسلمان، ص ٩٥، اليعقوبي، ج ٢ ص ٤٥٤.

٥ - ابن الأثير، الكامل، ج ٦ ص ٢٥٨.

معاوية على المنابر^١. وعندما جرم قاضي المأمون ببغداد، الوليد الكندي، رجلاً إتهم بشتن أبي بكر وعمر، فحكم عليه بالضرب وبالتطواف على جمل، غضب المأمون، وأمر بسجن القاضي سجناً مؤبدًا^٢.

كل هذه الإجراءات، جعلت الشيعة يرتاحون إلى خلافة المأمون، أو على الأقل، يهدون بخلال عهده، الذي كانت نهايته بموته سنة ٢١٨ هـ / ٨٣٣ م. إذ لم تطالنا المدونات بأي ظهور أو خروج شيعي يذكر في هذه الحقبة من التاريخ. وقد تزامن موت الخليفة المأمون ونهاية خلافته، إلى حد ما، مع موت الإمام التاسع، محمد بن علي، الملقب بالجواد^٣، الذي توفي في السنة التالية لموت المأمون (٢١٩ هـ / ٨٣٤ م). دون أن يبلغ الخامسة والعشرين من عمره^٤. إلا أن حلم المأمون بخلق أسرة توحد بين العباسيين والطلبين لم يتحقق، ذلك أن زينب التي زوجها من الإمام الفتي محمد الجواد، لم تنجب، وبذلك مات الإمام، ومات الخليفة، دون أن «يكون جدًا لامرئ ولده رسول الله وعلي بن أبي طالب»^٥ كما تمنى يوم زفأ ابنته للإمام.

أما مسألة قول المأمون ببعض آراء المعتزلة الدينية، خاصة فيما يتعلق «بخلق القرآن» فهي وإن كانت قد شغلت الخلافة في السنوات الأخيرة من عهد المأمون إلى حد خطير، بالنظر للإجراءات التي اتخذها الخليفة ضد من لا يقول بهذا الرأي من الفقهاء والعلماء^٦، فهي لم تؤثر في علاقة الخليفة بالشيعة.

وبانتقال الخلافة إلى العباسي الثامن، محمد بن هارون الرشيد، المعتصم،

١ - راجع، المسعودي، مروج الذهب، ج ٤ ص ٤٠ - ٤١، السيوطي، ص ٢٠٨.

٢ - البقوي، ج ٢ ص ٤٦٨ - ٤٦٩.

٣ - محمد المهدي الحسيني الشيرازي، هكذا الشيعة (للج ١٢٨٢ هـ) ص ١٢.

٤ - المسعودي، مروج الذهب، ج ٤ ص ١٥٢، دفن محمد الجواد مع جدّه موسى الكاظم في ما عرف بعد ذلك باسم الكاظمية التي أصبحت من العتبات المقدسة عند الشيعة.

٥ - البقوي، ج ٢ ص ٤٥٤.

٦ - راجع، البقوي، ج ٢ ص ٤٦٨، السيوطي، ص ٢٠٨ - ٢١٢، ابن الأثير، الكامل، ج ٦ ص ٤٢٢.

الذي كان أمياً، قوض أركان الدولة العباسية بإدخال الجنود الأتراك إلى قيادتها العسكرية، وإن كان قد تمكن من القضاء على الزم، الذين عاثوا فساداً بين البصرة وبغداد، فأجلاهم إلى قيليقية، وقضى على حكم بابك في أذربيجان، وأنزل بالبيزنطيين هزيمة نكراء واحتل عمورية، وبني سامراء، فقد بقي الشيعة على شيء من الهدوء، ذلك أن المعتصم لم يبذل كثيراً في نهج السياسة الذي اتبعه المأمون.

بينما كان المأمون على فراش الموت، وفي ختام وصيته الشفوية إلى وليّ العهد، أخيه، محمد أبي إسحاق المعتصم، قال المأمون وهو يعاني سكرات الموت، «يا أبا إسحاق! عليك عهد الله وميثاقه، وذمة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لتقومن بحق الله في عبادته، ولتؤثرن طاعة الله على معصيته، إذ أنا نقلتها من غيرك إليك» - قال المعتصم: «اللهم نعم!» فاستأنف المأمون بصعوبة: «هؤلاء بنو عمك من ولد أمير المؤمنين علي، صلوات الله عليه، فأحسن صحبتهم، وتجاوز عن مسيئتهم، واقبل من محسنهم، ولا تغفل صلاتهم في كل سنة عند محلها، فإن حقوقهم تجب من وجوه شتى...». غير أن أول ما لاقاه الشيعة في عهد الخليفة الجديد، أن زوجة الإمام، بنت المأمون، لما قدمت معه من المدينة إلى المعتصم، سمّت له^٢. ومن الصعب تبرئة الخليفة من مثل هذا العمل، وإن لم يكن هناك أي إثبات على تورطه فيه. لكن معاملة المعتصم للشيعة وأحفاد علي، منذ توليه الخلافة، لم تتسم بالعداء، وإن كانت فاترة بعض الشيء.

مرة أخرى، يتسّم منصب الإمامة الشيعية طفل. فلقد كان عمر علي، الابن البكر لمحمد الجواد، خمس سنوات حين مات والده. وهكذا بدأت الإمامة العاشرة

١ - ابن الأثير، الكامل، ج ٦، ص ٤٢٠ - ٤٢١

٢ - المسمودي، مروج الذهب، ج ٤، ص ١٥٢، وهناك رأي يقول بأن الإمام محمد الجواد مات في عهد الواثق، المرجع السابق، ص ٧٧

للشيعة كما بدأت التاسعة على يد طفل. وهذا ما جعل البخّائين يميلون إلى اعتبار أن الخلفاء العباسيين، إنما كانوا يرومون من خلال اغتيال الأئمة في عهد طفولة أبنائهم الأبيكار، ضعفة الشيعة. وهذا ما حصل فعلاً في بداية عهد الخليفة العباسي الثامن، المعتصم، والإمام الشيعي العاشر، عليّ الهادي. بيد أن هذا الواقع، لم يكن سوى إيدان بتقهقر دولة العباسيين من جهة، وبسلوع نجم الشيعة من جهة ثانية. وإن هذا الإمام الذي بدأ عهده طفلاً، سوف يُعايش سبعة خلفاء عباسيين، هم: المعتصم، والواثق، والمتوكل، والمتنصر، والمستعين، والمعتز، والمهتدي؛ هذا الأخير، هو وحده الذي عايش إمامة عليّ الهادي، وبقي من بعده خليفة، وإن لسنة واحدة.

جلاً ما ورد في المدونات عن معاملة المعتصم للشيعة، أنه عمد إلى التضييق على بعض أحفاد عليّ بن أبي طالب، وعلى إخافتهم، بما جعل أحد أحفاد الحسين، محمد بن القاسم، العابد الزاهد الورع إلى أبعد حد، يهرب من الكوفة إلى خراسان، بسبب التهديدات التي جاءت من المعتصم. وبالرغم من أن محمداً قد تنقل بين مدن فارسية عديدة، فقد تمكّن المعتصم من القبض عليه بواسطة عملائه، فحبسه، ثم قتله بالسم. وقد اتبع محمداً بعض فرق الزيدية التي اعتبرت أنه لم يمُت، وأنه حيّ يرزق، و « سيخرج ليملا الأرض عدلاً كما ملئت جوراً، وأنه مهديّ هذه الأمة، وقولهم فيه كقول الكيسانية في محمد ابن الحنفية، وقول السبعية (الإسماعيلية) في إسماعيل بن جعفر^١ ». لكن أمر تضييق المعتصم على محمد بن القاسم، ليس مؤكداً، ذلك أن بعض المراجع يضع مسألة هذا الطالبي في باب « الظهور... والدعوة إلى نفسه بالخلافة »، ويذكر أن المعتصم عامله بالحسنى لما سجنه، وأن أنصار الطالبي هربوا من السجن، ولم يعد يُعرف عنه شيء^٢.

١ - المسعودي، مروج الذهب، ج ٤، ص ٥٢ - ٥٣؛ قابل، يعقوبي، ج ٢، ص ٤٧١ - ٤٧٢

٢ - ابن الأثير، الكامل، ج ٦، ص ٤٤٢

بعد حكم استمر ثمانني سنوات وثمانية أشهر^١، مات المعتصم، وخلفه وليّ عهده، ابنه، هارون، ولقبه: الوائقي.

قال الوائقي بما قاله أبوه المعتصم، مقولة عمّه المأمون، في خلق القرآن، وتشدد في ذلك. وكان يقرب إليه أتباع المعتزلة^٢.

وكان المعتصم، قبل أن يموت، قد أحضر الإمام الصغير من المدينة إلى عاصمته الجديدة: سامراء، بعد الانتهاء من بنائها. وعندما أرسل الخليفة قائد حرسه سنة ٨٣٦ م. إلى المدينة المنورة ليحضر عليّ الهادي، كان عمر الصبي قد قارب الثمانني سنوات. ويروي قائد حرس المأمون، يحيى بن حرثمة تفاصيل تلك الحادثة فيقول: «كان عليّ أن أعود بعليّ بن محمد إلى سامراء، حتى يبلغ الخليفة بما يفعله بالمدينة، وعندما وصلت إلى المدينة، انفجر أهل بيته بالنحيب والعيول الذي لم أسمع بمثله من قبل، فحاولت أن أهدئ من روع المنتحبين مؤكداً لهم بأن ليس لديّ أمر بإيذاء عليّ بن محمد، وعندما بحثت في بيته لم أعثر إلا على مصحف وكتب دعاء. وأخذت عليّاً كما أمرت، وقد أكبرته كثيراً. وذات يوم بعد أن مرّ علينا أكثر من أسبوع في الطريق، وعند شروق الشمس، عجبت لارتداء عليّ عبايته ولربطه ذيل حصانه عالياً، بالرغم من أنّ السماء كانت صافية والشمس مشرقة على الصحراء، ولكن لم يمض وقت طويل حتى تجمّعت السحب، وهطل المطر عاصفاً، فالتفت عليّ إليّ وقال: - أعرف أنك تعجب لهذا، وربما تعتقد أنّ لي علاقة بانقلاب الجو، ولكن الأمر ليس كذلك، إنّما أنا عشت في الصحراء وأعرف الريح التي تسبق المطر، فأنا قادر على شمّ المطر، وهكذا تأهّبت في الوقت

١ - لقب المعتصم بالمعتن، لأنّه ثامن الخلفاء العباسيين، والثامن من ولد العباس. وثامن أولاد الرّشد، وولد سنة ٧٨ هـ، وعاش ثمانياً وأربعين سنة، وبرزه العقرب وهو ثامن برج، وفتح ثمانية فتوح، وقتل ثمانية أعداء، وخلف ثمانية صبيان، وثمان إناث، ومات لثمان بقين من ربيع الأول، وقد ملك ثمان سنوات وثمانية أشهر وثمانية أيّام (السيوطي ص ٢٢٤)

٢ - السيوطي، ص ٢٤٦، البقوي، ج ٢ ص ٤٨٢

المناسب لانقلاب الجوز». ومنذ ذلك الحين، وعليّ الهادي يعيش في سامراء، وقد بقي هناك طوال عهد الواثق^١.

وإذ كان الإمام الشيعي العاشر، طوال عهد الواثق الذي لم يدم أكثر من خمس سنوات وتسعة أشهر، صبيّاً، لم يتجاوز عمره في نهاية عهد الواثق الثامنة عشرة، لم يسجل التاريخ أيّ حدث يُذكر له طوال هذه المدة، وقد يكون هذا ما جعل لقبه «الهادئ». ولقد سار الواثق على خطى عمّه المأمون في إرضاء أحفاد عليّ وإكرامهم، حتّى قيل إنّه «ما أحسن أحد إلى آل أبي طالب ما أحسن إليهم الواثق الذي ما مات وفيهم فقير^٢». ولم يقتصر كرم الواثق على آل أبي طالب، لكنّه، على ما يبدو، أجزل العطاء لسائر الهاشميين؛ ولمّا توفيّ الواثق، بقيت نساء أهل المدينة زمنّاً يخرجن كلّ ليلة إلى البقيع، فيندبنه ويبكين حزناً عليه، لما كان يكثر من الإحسان إلى أهل المدينة^٣.

موت الواثق سنة ٢٣٢ هـ / ٨٤٧ م. وانتقال الخلافة إلى أخيه، جعفر بن المعتصم، المتوكل على الله، الخليفة العبّاسي العاشر، تبدّلت الأحوال الإيجابية التي سادت علاقة الشيعة بالخلافة طوال ثلاثين سنة، مذ عيّن المأمون الإمام الشيعي الثامن، عليّاً الرضا، وليّاً لعهد الخلافة، وقد سار خلفا المأمون، المعتصم والواثق، على خطى المأمون في إكرام أحفاد عليّ ومداراتهم، وفي القول بأن القرآن مخلوق. غير أنّ المتوكل، أبدل في نهج التعاطي هذا، وعادت بعهد الاضطرابات إلى الوسط الشيعي من جديد.

ما أن آلت الخلافة إلى المتوكل، حتّى أمر «بترك النظر والمباحثة في الجدل (بشأن القرآن) وبترك ما كان عليه الناس في أيام المعتصم والواثق والمأمون. وأمر

١ - راجع، كونسلمان، ص ٩٩ - ١٠٠، المسعودي، مروج الذهب، ج ٤ ص ١٧٠.

٢ - السيوطي، ص ٣٤٢، ابن الأثير، الكامل، ج ٧ ص ٢١.

٣ - البغوي، ج ٢ ص ٤٨٢، ابن الأثير، الكامل، ج ٧ ص ٢١.

الناس بالتسليم والتقليد، وأمر شيوخ المحدثين بإظهار السنة والجماعة^١. ولم يكن قد مرّ زمن طويل على توليه الخلافة، عندما أمر المتوكل بانتقال الإمام الشيعي العاشر، عليّ الهادي، من المدينة، بعد أن كان الإمام قد انتقل إليها من سامراء إثر موت الوائقي. أمّا سبب طلب الخليفة العباسي العاشر إلى الإمام الشيعي العاشر، الانتقال من المدينة، فهو، على ما يبدو، «شيوع كلام عن أن قوماً يقولون إنه الإمام^٢»؛ من شأن هذا أن يعني إلغاء الإمامة الشيعية، أو على الأقل، محاولة إلغائها من قبل المتوكل. وليس هذا ببعيد أبداً، لأن المتوكل اضطلع، عموماً، كلٌّ من لا يتّبع السنة، وأنزل أشدّ الشروط العمريّة قساوة بأهل الذمة^٣؛ وكان المتوكل «شديد البغض لعليّ بن أبي طالب وأهل بيته، وكان يقصد من يبلغه عنه أنه يتولّى عليّاً وأهله بأخذ المال والدم^٤»، حتّى إنّه «كان يبغض من تقدّمه من الخلفاء المأمون، والمعتصم، والوائقي، في محبة عليّ وأهل بيته^٥». وقد بلغ كره المتوكل لعليّ بن أبي طالب، أنّه كان من جملة ندمائه، عبادة المخنث، الذي كان يقفّ عليّاً، إذ «يشدّ على بطنه، تحت ثيابه، مخدة، ويكشف رأسه، وهو أصلع، ويرقص بين يدي المتوكل، والمغنون يغنون، إشارة إلى عليّ؛ قد أقبل الأصلع البطين، خليفة المسلمين، والمتوكل يشرب، ويضحك»؛ وعندما اعترض المنتصر، بن المتوكل، على سلوك أبيه هذا، قائلاً له: «يا أمير المؤمنين، إن الذي يحكيه هذا الكاتب ويضحك منه الناس هو ابن عمك، وشيخ أهل بيتك، وبه فخر، فكلّ أنت لحمه إذا شئت، ولا تقطع هذا الكلب وأمثاله منه» قال المتوكل للمغنيين: «غنوا جميعاً غار الفتى لابن عمه، رأس الفتى في حرّ أمه^٦».

١ - المسعودي، مروج الذهب، ج ٤ ص ٨٦، اليعقوبي، ج ٢ ص ٤٨٤، السيوطي، ص ٢٤٦

٢ - اليعقوبي، ج ٢ ص ٤٨٤

٣ - ابن الأثير، الكامل، ج ٧ ص ٥٢، اليعقوبي، ج ٢ ص ٤٨٧

٤ - ابن الأثير، الكامل، ج ٧ ص ٥٥، كونسلمان، ص ١٠٢

٥ - ابن الأثير، الكامل، ج ٧ ص ٥٦

٦ - ابن الأثير، الكامل، ج ٧ ص ٥٥

وتذكر المدونات أن جماعة تَمَنَّ أشتهروا ببغض عليّ « كانوا ينادمون المتوكل ويجالسونه، ويخوفونه من العلوتين، ويشيرون عليه بإبعادهم، والإعراض عنهم، والإساءة إليهم، ولم يبرحوا به حتى ظهر منه ما كان، فغطّت هذه السيئة جميع حسناته^١ ».

أمر المتوكل بهدم قبر الحسين بن عليّ، وما حول القبر من المنازل والدور، وبأن يُستعمل مكان القبر للزراعة، وبأن يُمنع الناس من إتيان المكان، ومَن خالف الأمر بزيارة المكان المقدّس، قُبض عليه وسُجِنَ وعُذِبَ^٢. وكان المتوكل إذا شكّ بولاء أحدهم للشيعة، أو بتشيّعه، امتحنه، حتى إذا ما تأكّد له ذلك، أنزل فيه عقاب الموت؛ فعندما اتصل بالمتوكل النحويّ الشهير يعقوب بن إسحاق المعروف بابن السكّيت، سأله الخليفة: « أيّ أحبّ إليك المعتزّ والمؤيد (وهما ولدا الخليفة) أو الحسن والحسين؟ » فذكر النحويّ الحسن والحسين، بما هما أهل له، فما كان من المتوكل إلّا أن أمر جنده من الترك بدوس بطن النحويّ حتى قضى نجه^٣.

ومن أخبار اضطهاد المتوكل لأحفاد عليّ، أنّه اتهم أحدهم: يحيى بن عمر حفيد الحسين، بأنّه جمع إليه الناس ببعض النواحي، فأخذ، وخُبِسَ، وضُرب^٤. وعندما كان يبلغ المتوكل عن إقدام أحدهم على سبّ أبي بكر وعمر وعائشة وحفصة وعثمان، كان يأمر بإعدامه^٥.

سعى المتوكل إلى النيل من الإمام الشيعيّ عليّ الهادي، بشتّى الوسائل، إلّا أنّ حكمة الإمام الذي لم يخرج يوماً على هدوئه رغم المصاعب والتحذيرات، قد حالت دون تمكّن الخليفة منه. وبحجّة أنّ في بيت الإمام سلاحاً، بعد أن كان

١ - ابن الأثير، الكامل، ج ٧ ص ٥٦

٢ - ابن الأثير، الكامل، ج ٧ ص ٥٥، المسعودي، مروج الذهب، ج ٤ ص ١٢٥، السيوطي، ص ٢٤٧

٣ - ابن الأثير، الكامل، ج ٧ ص ٩١، السيوطي، ص ٢٤٨

٤ - ابن الأثير، الكامل، ج ٧ ص ٥٢

٥ - ابن الأثير، الكامل، ج ٧ ص ٧٩

المتوكل قد أمر بانتقال الإمام من المدينة إلى سامراء ليبقى تحت بصره، وجه إليه ليلاً جنوداً من المرتزقة الأتراك وغير الأتراك، ولما داهموا، لم يجدوا «سوى مذبذبة من شعر عليه، وكان بيته خالياً حتى من بساط، وأرض البيت رمل وحصى، وعلى رأس الإمام ملحفة من الصوف وهو متوجه إلى ربه يترنم بأيات من القرآن في الوعد والوعيد» ولم يكن من الجنود إلا أن أخذوا ما على الإمام، وحملوا هذا الأخير إلى المتوكل في جوف الليل، فمثل بين يديه، والمتوكل يشرب وفي يده كأس. فلما رآه أعظمه وأجلسه إلى جانبه، وإذا لم يكن في منزله سلاح وكتب... ولا حالة يتعلل عليه بها، ناوله الكأس الذي في يده، فقال عليّ: «يا أمير المؤمنين! ما خامر دمي ولحمي قط، فاعفني منه». - فعفاه، إلا أنه فرض عليه أن ينشده شعراً، ورغم ممانعته في بادئ الأمر، وإذا لم ير الهادي بدءاً من ذلك، أنشد الخليفة شعراً جاء فيه:

أين الوجوه التي كانت منعمة من دونها تضرب الاستار والكلل
فأفصح القبر عنهم حين ساء لهم تلك الوجوه عليها الدود يقتل.

أراد الهادي أن يذكر الخليفة بالموت، وهو مرعب الملوك والجبابرة، وعندما أنشد الإمام أبياته، تيقن الحضور أنه سائر إلى هلاك لا محالة، فأشفقوا عليه، بانتظار ردة فعل الخليفة، ولكن الذي حصل، هو أن المتوكل قد بكى طويلاً، حتى بلغت دموعه لحيته، وبكى معه الحاضرون، ثم أمر برفع الشراب، وقال للإمام: «يا أبا الحسن، أعليك دين؟» - قال: «نعم، أربعة آلاف دينار» فأمر المتوكل بدفعها إليه وردّه إلى منزله مكرماً. غير أن هذه المنّة، لم تكن المطلوبة من قبل الإمام وشيعة عليّ، الذين وجدوا أنفسهم مرة أخرى في مجال الاضطهاد والجور للذين سادا طوال عهد المتوكل، الذي دام أقل من خمس عشرة سنة بقليل، والذي انتهى سنة ٢٤٧ هـ / ٨٦١ م. باغتياله على أيدي قادته الأتراك وباشترارك ابنه البكر.

١ - المسعودي، مروج الذهب، ج ٤، ص ٩٥، كونه سلمان، ص ١٠٢

المنتصر، الذي سيبايع من بعده بالخلافة، وهو ذلك الذي كان قد لام أباه لتصرفاته غير اللائقة مع بني أبي طالب. وكان المتوكل، ثالث خليفة عباسي يموت في عهد إمامة علي الهادي.

كان عهد المنتصر قصيراً، بحيث لم يتجاوز الأشهر الستة. وقد تضاربت الأخبار حول ظروف موته، إنما الثابت أن للجنود الأتراك الذين كانوا قد سيطروا على البلاط، ضلعاً في قتله^١. والقايت أيضاً، أن المنتصر قد رفع عن العلوتين ظلم أبيه المتوكل، فأزال عن آل أبي طالب ما كانوا فيه من الخوف والمحنة، وأنهى عهد منعهم من زيارة قبر الحسين، وردّ على آل الحسن والحسين فذك، وأطلق أوقاف آل أبي طالب، وترك التعرض لشيعتهم، ودفع الأذى عنهم^٢. حتى إنه قيل إن المنتصر كان قد خطّط لقتل أبيه المتوكل بسبب تصرفاته القبيحة، وكان أقيح تصرفاته مع الشيعة وأوليائهم، وقد شاور المنتصر جماعة من الفقهاء في قتل أبيه، وأعلمهم بتصرفاته وبمذاهبه، فأشاروا بقتله^٣.

بانتقال الخلافة من المنتصر، إلى ابن المعتصم المستعين، عادت الاضطرابات لتعم الأمبراطورية الإسلامية، وليكون للطالبيين فيها وجود.

أما السبب الأساس في تلك الاضطرابات فكان استثناء أمر الأتراك الذين باتوا يسيطرون على الخلافة تماماً، فيقتلون الخليفة متى شاؤوا، وينصبون من يناسبهم، ويميلون عليه الأحكام. فبعد قتلهم المتوكل بالاشتراك مع ابنه المنتصر، قتلوا المنتصر، وعينوا المستعين، دون أن يكون للأسر العربية الإسلامية العريقة أي تأثير على مجرى الخلافة. وسرعان ما تنكر الأتراك للمستعين بسبب إقدامه على

١ - راجع السيوطي، ص ٢٥٧، المسعودي، مروج الذهب، ج ٤ ص ١٢٢ - ١٢٤، ابن الأثير، الكامل، ج ٧ ص ١١٥ - ١١٦

٢ - السيوطي، ص ٢٥٨، المسعودي، مروج الذهب، ج ٤ ص ١٢٥، ابن الأثير، الكامل، ج ٧ ص ١١٦

٣ - ابن الأثير، الكامل، ج ٧ ص ١١٥

قتل أو نفي بعض قادتهم، فخاف المستعين عاقبة انقلاب الأتراك عليه، وهرب من عاصمة خلافته: سامراء، إلى بغداد، فسارع الأتراك إلى خلعه، وتعيين ابن المتوكل، محمد أبي عبد الله، المعتز بالله، ذي الثمانية عشر عاماً، خليفة مكانه. وقد جهّز هذا الأخير جيشاً لمحاربة المستعين في بغداد، وبعد قتال استمرّ أشهراً، سقط فيه عدد كبير من الضحايا، خلع المستعين نفسه، وهذا ما لم يمنع من قتله بعد أشهر. وكانت مدة ولاية الخليفة العباسي الثاني عشر: المستعين، حوالي أربع سنوات (٢٤٨ - ٢٥٢ هـ / ٨٦٢ - ٨٦٦ م).

هذه السنوات من منتصف القرن الثالث للهجرة، شهدت أكثر من ثورة طالبيّة في أكثر من مكان، إضافة إلى الاضطرابات التي عمّت أكثر مناطق الأمبراطورية الإسلامية، والتي معها بدأ نجم الخلافة العباسيّة بالأفول.

أهمّ تلك الثورات الشيعيّة، كان ما جرى منها سنة ٢٥٠ هـ / ٨٦٤ م. على يد يحيى بن عمر، حفيد عليّ من ابنه الحسين، وهو المكنّى بأبي الحسين.

قام أبو الحسين بثورته بالكوفة، وقد انضمّ إليه الزيديّون من الشيعة، إضافة إلى عامة الشيعة والأعراب والناقمين على الأتراك، بيد أنّ هؤلاء قد تمكّنوا بعد قتال من قمع الثورة وقتل حفيد عليّ وكبار أنصاره^١.

في الوقت نفسه، ظهر بطبرستان حفيد آخر للحسين، هو الحسن بن زيد^٢، فثار على رأس أهل طبرستان على عاملها العباسي، وسرعان ما بايعه أهل الديلم وكلاز وشالوس والرويان وجبال طبرستان ومنها أصمغان وقادوسيان. ثم دخل أمل وطرد عاملها العباسي، فكثر جمعه، وبذلك دخل سارية حيث استولى الحسن على مخلفات العامل العباسي الذي فرّ منها مع عياله. ولما سيطر الحسن على

١ - ابن الأثير، الكامل، ج ٧ ص ١٢٦ - ١٣٠، المسعودي، مروج الذهب، ج ٤ ص ١٤٧، اليعقوبي، ج ٢ ص ٤٩٧

٢ - ابن الأثير، الكامل، ج ٧ ص ١٢٠ - ١٢٤

طبرستان، وجّه إلى الري قريبه الذي يحمل اسمه أيضاً، حسن بن زيد، فملكها، واستعمل عليها رجلاً من العلويين اسمه محمد بن جعفر. إلا أن الري لم تبقى طويلاً تحت سيطرة الحسن بن زيد، الذي تمكن من إحكام قبضته على طبرستان. فكانت هذه الثورة الشيعية الوحيدة الناجحة من بين عدة ثورات طالبيّة جرت في الحقبة نفسها.

ففي الكوفة، ظهر أحد أحفاد الحسين، واسمه الحسين بن أحمد، واستخلف بها أحد أحفاد الحسن، واسمه محمد بن جعفر المكنى بأبي أحمد، وبعد وقت قصير تمكن المعتز من التغلّب على هذه الثورة.

في الوقت نفسه، قامت ثورة علوية في نينوى، باءت بالفشل.

وفي قزوين، ثار حفيد^١ حسيني، هو الحسين بن أحمد الملقب بالكركي، فسيطر عليها.

وبمكة، ظهر إسماعيل بن يوسف، وهو من أحفاد الحسن، فنهب أموال العباسيين هناك، وأخذ كسوة الكعبة، وما كان في الكعبة وخزائنها من ذهب وفضة ومال، وأخذ من الناس نحواً من مائتي ألف دينار، وخرج منها بعد ما نهبها وأحرق بعضها بعد خمسين يوماً من الثورة. ومن هناك انتقل إلى جدة، حيث قام بثورة مماثلة^٢.

هذه الثورات، من شأنها أن تنبئ عن مدى الكبت الذي عاناه الشيعة عامة، وآل أبي طالب خاصة، طوال حكم العباسيين، وقد تفاقم مع سيطرة الأتراك على الخلافة، فأضحى الطالبيون والشيعة في وضع لا يطاق.

١ - ابن الأثير، الكامل، ج ٧ ص ١٦٤ - ١٦٦، المسعودي، مروج الذهب، ج ٤، ص ١٨٠، ٢٠٧، ٢٠٨.
٢٧٢، ٢٧٣ وما بعدها، اليعقوبي، ج ٢ ص ٤٩٧ - ٤٩٨.

في هذه الأثناء ، بقي الإمام العاشر ، عليّ الهادي ، هادئاً ، ولم يُعرف عنه أنه أقدم على قيادة أو تدبير أيّ نزاع . واستمرّ حفيد الحسين على نهجه المتعاطفي بأمور الدين دون سواها ، في عهد خلافة المعتزّ (٢٥٢ . ٢٥٥ هـ / ٨٦٦ - ٨٦٩ م) . الذي خلف المستعين بعد أن خلع هذا الأخير نفسه . والمعتزّ ، وهو الخليفة العبّاسيّ الثالث عشر ، وابن الخليفة العاشر : المتوكل ، يدين بخلافته هو الآخر للقادة الأتراك الذين أوصلوه إلى سدّتها ، وعندما حاول التخلص منهم بالتجائه إلى الجند المغاربة ، عزلوه وقتلوه وأحلّوا محلّه المهدي بن الواثق ، الذي سيلاقي المصير نفسه فيما بعد .

قبل ذلك التاريخ ، وفي خضمّ هذه الأحداث القلقة ، مات الإمام الشيعيّ العاشر ، عليّ الهادي سنة ٢٥٤ هـ / ٨٦٨ م . وهو بسامراً ، فبعث المعتزّ بأخيه أحمد بن المتوكل ليمثّله في الجنازة ، وقد صلّى أحمد على الفقيه الكبير في الشارع المعروف بشارع أبي أحمد ، ولكنّ الحشد العظيم من الناس الذين اجتمعوا بالمناسبة ، وكثر بكائهم ونحيبهم ، جعل الدولة تردّ النعش إلى دار الإمام ، حيث دفن ، وعمره أربعون سنة ، وله من الذكور ولدان : الحسن ، وجعفر . وقيل إنّ الإمام العاشر قد مات هو الآخر ، مثل أبيه ، مسموماً^١ .

وموت عليّ الهادي ، تنتقل إمارة الشيعة إلى ولده البكر ، الإمام الحادي عشر ، الحسن العسكري .

١ - راجع : اليعقوبي ، ج ٢ ص ١٥٠٢ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٧ ص ١٨٩ ، المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٤ ص ١٦٩ - ١٧٠ .

الفصل الثامن

المهدي المنتظر

- الإمام العسكري
- الإمام المهدي، والغيبة، والرجعة

الإمام العسكري

عند وفاة الإمام العاشر: علي الهادي، سنة ٢٥٤ هـ / ٨٦٨ م. كان له ولدان هما: الحسن، وجعفر^١. وكان من الطبيعي أن تؤول الإمامة بعد وفاته إلى ابنه البكر: الحسن.

كان عمر الحسن يومذاك ثلاثاً وعشرين سنة. فهو قد ولد بالمدينة سنة ٢٣١ هـ / ٨٤٥ م. وقد جاء سامراً مع أبيه حين استدعاه المتوكل، وسكن وإياه في محلة تُعرف بالعسكر، لذلك لُقّب بالعسكري.

بدأ الإمام الشيعي الحادي عشر إمامته في وقت كانت الدولة الإسلامية بحالة غير مستقرة. فالمرتزقة، من الأتراك وسواهم، الذين استقدمهم العباسيون في الأساس، ليشكلوا حرس الخلافة، «كانوا قد غدوا أشد نفوذاً من الخليفة نفسه، واستطاعوا، بين الحين والحين، أن يحملوا الخليفة صاعراً على ما يشاؤون»^٢. حتى إن عدداً من الخلفاء العباسيين قد اضطر إلى الهرب منهم، ونادراً ما تمكن هؤلاء الخلفاء من النجاة من بطش الأتراك الذين أصبحوا قادرين على اغتيال الخليفة الذي لا يعمل بإرادتهم وعلى أن يستبدلوا به من يلائم هواهم من بني العباس. ولم يعد هؤلاء الأتراك يخشون سوى نفوذ أبناء سلالة الرسول، أي، أحفاد علي وفاطمة، وبخاصة أولئك الأئمة منهم، فلم يبق سوى هؤلاء ممن يوسعه أن يشكل خطراً على سلطتهم، وهم المرتزقة الذين لا يستندون في سلطتهم إلى أية شرعية دينية^٣.

في الوقت نفسه، شاع بين الناس ما زاد في قلق العسكر التركي: «سيكون للإمام الحادي عشر ابن، هو المهدي، الذي سيقود البشرية عبر الطريق الصحيح

١ - العقوبي، ج ٢ ص ٥٠٢

٢ - حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢ ص ١٨٥

٣ - راجع: كونسلمان، ص ١٠٢ - ١٠٤

نحو رحمة الله وجته^١ . وذلك استناداً إلى أحاديث منسوبة إلى الرسول، منها ما رواه الترمذي^٢ ، وأبو داود^٣ ، من رواية أم مسلمة: « لا تذهب الدنيا حتى يملك العرب رجل من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي » ومنها الحديث الذي رواه ابن مسعود^٤ : « لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يخرج فيه رجل مني أو من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً » وفي سنن أبي داود^٥ : « ولو لم يبق من الدهر إلا يوم لبعث الله رجلاً من أهل بيتي يملأها عدلاً كما ملئت جوراً » ومنها أيضاً أن الرسول « نظر إلى الحسن^٥ وقال : إن ابني سيد سيخرج من صلبه رجل يسمى باسم نبيكم يشبهه في طقه ولا يشبهه في خلقه يملأ الأرض عدلاً » وفي سنن الترمذي وأبي داود^٦ : « المهدي من عترتي من ولد فاطمة » وزاد أبو داود : « يملك الأرض سبع سنين » .

وقد حدث في تلك الأثناء ما جعل الناس يتوقعون أن يكون المهدي، ابن الإمام الحسن العسكري بالذات، ذلك أنهم كانوا يتناقلون كلاماً منسوباً إلى الإمام

١ - المرجع السابق.

٢ - الترمذي (محمد بن عيسى) (٢٠٩ - ٢٧٩ هـ / ٨٢٤ - ٨٩٢ م) : إمام ومحدث. كانت له رحلات وأسماة في خراسان والعراق والحجاز في طلب الحديث. وله في ذلك كتاب «الجامع الصحيح» أو «السنن». يمتاز بملاحظاته النقدية على رجال الإسناد وتبيينه مواضع الخلاف بين المذاهب. من كتبه: «العلل»، «الشمائل النبوية» - منجد الإعلام -

٣ - أبو داود (سليمان بن الأشعث السجستاني) (توفي ٢٧٥ هـ / ٨٨٩ م) : إمام أهل الحديث في زمانه. أصله من سبستان. استقر في البصرة وتوفي فيها. رحل وجمع وصنف وخرج. أخذ عن الإمام ابن حنبل وسمع الكثير عن مشايخ الشام ومصر والجزيرة وخراسان والعراق. له كتاب «السنن» - منجد الإعلام -

٤ - ابن مسعود (عبد الله) (توفي سنة ٣٢ هـ / ٦٥٢ م) صحابي هذلي. خدم النبي مدة حياته، سادس من أسلم، أول من جهر بالقرآن في مكة. هاجر إلى الحبشة. أحد المبشرين بالجنة. من أتقنوا تلاوة القرآن. روى عن النبي. - منجد الإعلام -

٥ - ... إلا أن الحسن العسكري وولده محمد المهدي هما من سلالة الحسين وليس الحسن.

٦ - راجع الدكتور صابر طعيمة، الشيعة معتقداً ومذهباً، المكتبة الثقافية (بيروت ١٩٨٨) ص ٥٨ - ٦١، والحسن بن موسى، فرق الشيعة، (استنبول ١٩٣١) ص ١٩ - ٢٠

الثامن: عليّ الرضا، قال فيه: «بعدي سيكون ابني محمد بن عليّ النقي^١، إمام المؤمنين، ويحيي عليّ بن محمد حسن بن عليّ، ويكون ابنه هو المهديّ المنتظر^٢».

لقد كانت فكرة المهديّ، إضافة الى ما نقله من اعتبارات دينية، ذلك القيس الذي من شأنه أن يعد الناس بالتحرّر من ظلم ذلك الواقع القاسي الناتج من ظلم الخلفاء، ومن ثمّ من ظلم عسكريهم وقد أصبحوا الحاكمين استبداداً بأمرهم. ذلك أنّ الأمل بظهور المهديّ، كان أملاً بتحقيق العدالة وإزالة الجور، فالمهديّ هنا، هو الأمل المنتقد المرسل من العالم المقدّس^٣.

أمام هذا الواقع، كان على القواد الأتراك أن يراقبوا الإمام الحادي عشر بيقظة وحذر، خاصة لجهة الحمل، فإن مجرد حمل امرأة من الإمام الحادي عشر، كان يعني خطر مجيئ المهديّ المنتظر، مع كلّ ما كان يشكله ذلك عليهم وعلى سلطانهم من خطر.

هنا، تورد الرويات أنّ الإمام العاشر، عليّ الهادي، كان قد زوّج ابنه الحسن، سراً، أميرة بيزنطية، تعددت القصص المتواترة حول ظروف وصولها الى بيت سليل الرسول. ويمكن اختصار جوهر مضمونها على الشكل التالي:

كان للإمام العاشر، عليّ الهاديّ، صديق اسمه بشر بن سليمان، كلّفه الإمام ذات يوم بشراء جارية لابنه الحسن، فأعطاه كتاباً «بلغة النصارى» وصرة فيها ٢٢٠ ديناراً، وطلب إليه أن يقصد ميناء دجلة ببغداد، وأن يقف هناك حيث ترسو سفن الشام، وعندما يرى السفينة التي يملكها عمرو بن يزيد، سيجد عليها فتاة تغطّي جسدها بقطعتين من الحرير، وهي تتكلّم بلغة النصارى، صائحة لاعنة كلّ من يحاول لمسها...

١ - كان للإمام العاشر لقبان، الأول: عليّ الهادي، والداني: عليّ النقي. أي أنّ عليّ النقي هو نفسه عليّ الهادي.

٢ - راجع: كونسلمان، ص ١٠٥ - ١٠٦.

٣ - راجع: سامي العياش، الإسماعيليون في المرحلة القرميطة، دار ابن خلدون، (بيروت ١٩٨١) ص ٤٠ - ٤١.

وقال الإمام لرسوله ، « إذا ما تعرّفت على هذه الجارية ، أعطها الكتاب ودعها تقرأ » .

ويروي صديق الإمام الذي نفّذ المهمة ما حدث في ميناء بغداد فيقول إنه عندما تعرّف على الفتاة ، وأعطاهما الخطاب ، قرأته في الحال . وكانت وهي تطالعه تجهش بالبكاء . ثم قالت للنّحاس ، « بعني لهذا الرجل وإلا قتلت نفسي » . وتمّ الاتفاق على أن يدفع رسول الإمام مبلغ ٢٢٠ ديناراً ثمن الجارية . ورافقت هذه الرجل برضى تام ، لا بل بسعادة ، وهي تقبّل كتاب الإمام وتضعه على صدرها . وأثناء الرحلة الطويلة من بغداد الى سامراء ، روت الجارية حكايتها الغريبة لصديق الإمام ، فقالت إنها أميرة من بنات قيصر بيزنطية ، وأمها تنتسب لسيمون ، أحد حوارى عيسى ؛ وقد أراد جدّها القيصر أن يزوّجها لابن أخيه ، فتمتّ جميع التحضيرات التي تليق بأعراس أبناء القياصرة ، وكانت الفتاة قد بلغت عامها الثالث عشر .

في موعد العرس ، حضر الى البلاط سبعمائة نبيل من الامبراطورية ، وأربعة آلاف فارس ، ورجال البلاط . وكان القيصر يجلس على عرش مزين يتقدّمه أربعون درجة ، وقد رُصّع بالماس . وبجوار القيصر ، جلس ابن أخيه العريس ، وكانت تماثيل القديسين موضوعة بقرب جذران القاعة .

وبخلال الاحتفال ، وقف القيصر وأمر بفتح الإنجيل ، وما أن تمّ ذلك حتّى ارتفع مقعد العريس عن الأرض ، فوقع الرّجل أرضاً ، وكذلك سقط عدد من التماثيل وتحطّم ، فعمّ الفرع المكان ، وقد تطيّر الحاضرون من هذه الظاهرة . إلّا أن القيصر أصرّ على إتمام الزواج ، فأعيد ترتيب المكان ، وأعيد الاحتفال من بدايته ، وعند الوصول الى فتح الإنجيل ، حلّ الفرع بالقوم مرّة أخرى إذ سقط مقعد العريس وتحطّمت التماثيل بوقوعها أرضاً ، وعجز العريس عن الجلوس مجدّداً على مقعده ؛ وهنا ركب الخوف اللاه والفرسان وأهل البلاط ، وسادهم ما يشبه الجنون ، حتّى فرّوا من المكان ، أمّا القيصر فقصّد مخدعه وهو كسيف الحائط .

وروت الأميرة - الجارية أنها في تلك الليلة، رأت في حلمها عيسى وجميع حواريه، يقفون في المكان الذي حصلت فيه أحداث العرس، وظهر محمد أمام عيسى، وجاء بعده علي، وبعد علي جاء أخفاده الأئمة يحقهم النور، فعانق عيسى محمداً الذي قال له: «يا روح الله، لقد أتيت في طلب حفيذة حواريك سيمون لحفيدي حسن بن علي الإمام الحادي عشر»: فنظر عيسى الى سيمون وقال: «النبيل والمجد حلاً هنا ليوحدوا بين نسبك الشريف والنسب الشريف لمحمد». فوافق سيمون على زواج الأميرة البيزنطية من حسن بن علي، ثم صعد الجميع الى منصة صُنعت من نور.

وروت الأميرة - الجارية أنها بعد ذلك الحلم، لم تجد الشجاعة لترويهِ لأي كان. وقد انقطعت عن الطعام، وعن الخمر، ولم يمض وقت طويل، حتى أصابها الهزال، وسرعان ما مرضت ووهنت، ولم تستعد بعض عافيتها إلا بعد انتزعها من القيصر قراراً بإطلاق سراح المسلمين الأسرى لدى الأمبراطورية البيزنطية؛ وروت الأميرة البيزنطية التي سارت جارية أنها استعادت بعد ذلك قوتها تماماً، إذ ظهرت عليها في الحلم فاطمة ابنة الرسول، ومعها مريم العذراء، وقد أختا عليها بالذخول في دين الإسلام وبأن تشهد: أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وعلياً ولي الله... فلم تتردد لحظة واحدة، وشهدت هذه الشهادة التي، كما قالت، تلتها عليها فاطمة ومريم. وكما قالت، صار وجود الحسن بن علي، بعد هذا الحلم، ميلاً ليا إليها، وشعرت بقربه، فكان ابن الإمام يرقد بجوارها بجسده وروحه. وقد حقق الحسن، ابن الإمام العاشر، أمنية أبيه بالزواج بها. وقبل نهاية الرحلة من بغداد الى سامراء كان بشار بن سليمان قد عرف خاتمة حكاية الجارية التي اشتراها بتكليف من الإمام العاشر، وقالت الجارية: «... وإذ أصبحت زوجة لابن الإمام، لم أستطع البقاء في بيزنطية، فأردت الرحيل الى بلاد زوجي، لذلك ارتديت ملابس الرجال، وانضممت الى فرقة من الجنود كانت ذاهبة الى بلاد المسلمين، غير أنني وقعت في الأسر بخلاف هجوم شنه الفرسان المسلمون، وعندما رفضت أن

أُتِجِرْدَ من ملابسي مثلما أُتِجِرْدَ سائر الأسرى، اكتُشِفَ أمرى، وإذ عرف المسلمون الذين أسروني بأنّى امرأة، عاملوني باحترام، ولكنّهم جعلوني جارية.

وتقول الحكاية إنّ الإمام العاشر كان راضياً تماماً عن رسوله بتار بن سليمان. وفي أول لقاء للإمام بمنزله في سامراء مع الفتاة البيزنطية، أعجب بها، وسألها: «أفضلين ألف دينار أم بشرى طيبة؟». فاختارت الأميرة البيزنطية البشرى، فقال لها الإمام العاشر: «كزوجة لابني، ستلدين ابناً، من خلاله يسود العدل الأرض، وسيصطفى ابنك ليكون مخلص الدنيا».

مع شيوع هذه الروايات في سامراء، أصبح الإمام الحادي عشر مراقباً بشكل دقيق من قبل العسكر، حتّى إنّهُ لم يعد بوسعه أن يقرب نساءه دون مراقبتهم. وقد غاب عن هؤلاء أنّ البيزنطية كانت قد حملت من الحسن العسكري، وأنّ المهديّ لا بدّ مولود منها.

الإمام المهديّ، والغيبية، والرجعة

يقول الشيعة بأنّ هذه المرأة البيزنطية قد ولدت في سامراء قبل وفاة الحسن العسكري بأربع أو خمس سنوات. وتروى أساطير كثيرة عن هذا الطفل، فيذكرون أنّه تكلم عند ولادته، فشهد الشهادتين وصلى على الأئمة، ثمّ هبطت طيور من السماء وخفقت بأجنحتها عند رأسه، فنادى الإمام العسكري واحداً منها، فدفع إليه المولود وقال: «خذوه فأرضعوه وردّوه إلينا كلّ أربعين يوماً»! فأخذ الطائر وصعد به الى السماء، ثمّ أمر الإمام باقي الطيور بمثل ذلك، فطاروا وراءه، ثمّ قال: «استودعك الذي استودعت أم موسى»^١.

١ - راجع: كونسلمان، ص ١٠٦ - ١٠٩.

٢ - راجع: د. صابر طعيمة، ص ٥٨.

كان الشاهد على كل ما جرى من قبل هذا الطفل، عمته حليلة، التي روت أيضاً أنه وُلد مختوماً، ولم يُرِط بأمه بحبل سُرِّي، وعلى الذراع اليمنى للمولود قرأت هذه الكلمات: «ظهر الحق على الأرض وزُهِق الباطل ولم يعد له مكان على الأرض». وقد سجّلت الروايات تعجُّب العمّة حليلة من أمر الطفل، فكانت تراه كل أربعين يوماً، فتعجب كل مرة من نموه ونضجه السريعين، وإذا سألت أباها الإمام عن سرّ ذلك النمو السريع، أجابها «بأن الطفل من الأئمة، كلما أتى عليه شهر كان كمن أتت عليه سنة؛ وأنه يتكلّم في بطن أمه، ويقرأ القرآن، ويعبد ربه عزّ وجلّ، وتعلّمه الملائكة وتنزل عليه صباح مساء». ولما سألت حليلة أباها عن الطائر الذي أخذه قال: «إنه روح القدس، يهدي الأئمة ليؤدّوا رسالته عزّ وجلّ، وبعضهم يؤتيهم العلم».

وتقول الروايات الشيعة إنّه عندما كان الإمام العسكري سنة ٢٦٠ هـ / ٨٧٣ م. في حال النزاع^١، وكان المهديّ، الذي أطلق عليه والده اسم محمد، في الرابعة من عمره، وإذا كان العسكريّ يجتهد لشرب الدواء، ويده ترتعش بصورة جعلت القدح يصطك بأسنانه، وضع الإمام الدواء جانباً، وطلب من خادمه أن يذهب ويحضّر له الطفل الذي يدعو، فدخل الخادم الغرفة التي أشار عليه الإمام بدخولها، ورأى الطفل يصيح بالدعاء، رافعاً سبابته إلى السماء. وعندما انتهى الطفل من دعائه، ابتسم، وظهرت أسنانه.

وأمام الإمام المحتضر، وقف الطفل لسمع كلمات أبيه: «سيكون لك البيت وآله قريباً، وقريباً سأكون بين يدي الله. أعطني أنت الدواء لأشربه». وهنا توقّف الإمام عن الارتعاش، ثم قال للطفل: «جهّزني للصلاة».

سرعان ما أخذ الصبيّ منشقة الإمام وقام بالوضوء، ومسح رأس أبيه وقدميه بالطيب. بعد ذلك، قال الإمام المتأهب لمغادرة الدنيا: «يا بني، أنت سيد

١ - د. سابر طعيمة، ص ٥٨ - ٥٩، كونسلمان، ص ١١٢ - ١١٣.

٢ - ابن الأثير، الكامل، ج ٧ ص ٢٧٤، المسعودي، مروج الذهب، ج ٤ ص ١٩٩.

كلّ زمان، أنت المهديّ الهادي، أنت على الأرض دليل وجود الله. أنت آخر الأئمة، طاهراً تشملك كل الفضائل، وقد بشر رسول الله (سليم) بجيئك وتنبأ باسمك. وهذا العلم أخذته عن آبائي وستأخذه أنت عني^١.

بعد هذه الكلمات، مات الإمام الحادي عشر. وقد تُنوّزع في سبب موته، بين قائل بأنّه جاء إثر مرض طبيعي، وقائل بأنّه نتيجة سمّ دُسّ له بإرادة الخليفة العبّاسيّ المعتمد. ويموت الإمام العسكريّ، أصبح ابنه محمّد المهديّ الإمام الثاني عشر عند غالبية الشيعة، وهم الذين عُرفوا بالاثني عشرية، أو بالقطعية، بينما تنازع الباقيون من الشيعة في «المنتظر من آل النبيّ بعد وفاة الإمام العسكريّ، فافترقوا الى عشرين فرقة^٢».

فعندما توفي الإمام الحادي عشر، حاول أن يصلي عليه أخوه جعفر، وطبقاً للتقاليد، يكون منصب الإمامة للذي قام بهذه الصلاة. غير أنّ محمّداً، وقد كان في الرابعة من عمره، أمسك بيد عمّه وهو يهّم بالصلاة وأزاحه جانباً، ثمّ قام هو بأداء الصلاة، مشبّهاً بذلك أنّه الإمام. بيد أنّ هذا لم يقض على طموح جعفر، وتذكّر المدوّنات أنّه بعد موت الإمام العسكريّ بأيّام قليلة، جاء حُجّاج من المدينة الإيرانيّة قُمّ الى سامراء ليعرفوا من الذي ستؤول إليه الإمامة بتكليف من الله، ويبدو أنّ جعفرأ قدّم نفسه لهؤلاء. على أنّه الإمام الشرعيّ. وعندما أثار هؤلاء موضوع التقليد الذي يقضي بانتقال الإمامة من الأب الى الابن، ردّ جعفر بأنّ الله هو الذي يقرّر بقاء التقليد أو زواله. وإذا لم يشأ الحُجّاج تصديق جعفر إلّا في حال إثباته أنّ الله أراد حقّاً تكليفه بزعامة آل بيت الرسول من خلال علامة واضحة، وكانت تلك العلامة، تتمثّل في أن يكون لدى الإمام المقدرة على معرفة أسمائهم ومقدار المال الذي يحمله كلّ منهم؛ غضب جعفر وحجّته أنّ أيّ إمام لم يتعرّض لمثل هذا الامتحان، وطالب الحُجّاج الإيرانيّين بأن يخضعوا له، لأنّه هو وحده الذي

١ - كونسلمان، ص ١١٢ - ١١٤

٢ - المسعودي، مروج الذهب، ج ٤ ص ١٩٩

بوسعه أن يتكلم منصب الإمامة بأمر الله كخليفة لأخيه الحسن، وحبته في ذلك أن الإمام الحسن بن علي، وهو الإمام الثاني، قد خلفه أيضاً أخوه الحسين، إلا أن هذه الحجة لم تُقنع الحُجَّاج، وفي هذه اللحظة، دخل غلام إلى حيث كان الجمع، وأعلن الحُجَّاج قَمَ أن سيده كلفه بذكر أسماء الرجال ومقدار الأموال التي يحملها كل منهم، ودهش الحُجَّاج لصحة ما سمعوا، وأصروا على معرفة هذا السيد الذي كلف الغلام بهذا الأمر، ولكن جعفرأ حاول منع حصول ذلك بقوله للحُجَّاج: «يا أهل قم، إنكم أهل الإيمان فهل تُخذعون بحيلة شيطان؟» وقبل أن ينهي جعفر كلامه، رأى الحُجَّاج، بوضوح وجلاء أمامهم، صبيّاً في حوالى الرابعة من عمره، وسمعوه يقول: «يا جعفر لماذا تطلب ما هو حقّ شرعيّ لي؟». هذا المشهد، بحسب الرواية، لم يستغرق أكثر من برهة، إحتفى بعدها طيف الطفل، فخرج أهل قم من بيت الإمام الحادي عشر وهم حيارى، وتنتهي الرواية إلى أنه بعد خروجهم، قام جعفر بالبحث عن الصبي في البيت بلا جدوى. وقد افترض بعض الباحثين أن أفراد العائلة، لا بدّ من أنهم قاموا بإخفاء الصبي خوفاً من مؤامرات عمّه جعفر، وقد كان بيت الإمام الحادي عشر في سامراء مبنياً فوق أقبية متشعبة وسرايب كان يلجأ إليها الإمام متخفياً بخلال ملاحقة عملاء أصحاب السلطة له، وكان الصبي يعرف سرّ هذه الأنفاق^١. وقد اعتبر بعض مراجع الشيعة أن محمداً المهديّ كان عمره يومذاك ستاً أو سبع سنوات^٢.

هنا يبدأ سرّ غيبة الإمام الذي لا يعتبره الشيعة ميتاً، إنّما هو «حيّ يرزق يعيش في الخفاء، وبأمر الله سيرجع في نهاية الزمن». واختفاء الإمام الثاني عشر، لا يعني أنه سعد إلى السماء، فهو يعيش بين الناس، يتصل ببعضهم، وكثيرون يؤمنون بإمكان مخاطبته. «ويقول المجلسي^٣ إن من يريد من الرافضة الاتصال

١ - كونسلمان، ص ١١٢ - ١١٦

٢ - د. صابر طيمية، ص ٥٩

٣ - المجلسي (محمّد الباقر) (١٠٣٧ - ١١١٠ هـ / ١٦٢٧ - ١٧٠٠ م)، شيخ الاسلام في أسفهان. ولد وتوفي في أسفهان. على يده تمّت غلبة التشيع على التصوف في إيران. أمر بإجلاء الصوفيّة عن العاصمة أسفهان وذلك بموافقة الشاه حسين الصفوي (١١٠٦ هـ / ١٦٩٦ م) اشتهر بكتابه «بحار الأنوار».

بالمهديّ، فعليه أن يكتب على رقعة من الرقاع صيغة معيّنة ثم يضعها عند قبر أحد الأئمة، أو يجعلها في طين نظيف ثم يرميها في البحر أو في بئر عميقة، وبهذه الطريقة تصل رقعته إلى الإمام الغائب فينظر فيها». ويروي مؤرخو الشيعة الكثير عن ظهور المهديّ للناس في بعض الأوقات والمناسبات، ومنها أنه يظهر لبعض المؤمنين عند حاجتهم إليه أو أنهم يرونه بعد الصلاة^١.

على أيّ حال، فإنّ غيبة محمّد المهديّ قد بدأت حين وفاة والده الإمام الحسن العسكريّ، سنة ٢٦٠ هـ / ٨٧٣ م.، ولا تزال. ثم إن هذه الغيبة، تُقسم في اعتبار الشيعة إلى غيبتين: الغيبة الصغرى، والغيبة الكبرى.

أمّا الغيبة الصغرى، فقد استمرّت حوالي سبعين سنة، بقي خلالها الإمام الغائب دائم الصلة بقواعده وأصحابه عن طريق وكلائه ونوابه والثقات من أصحابه الذين كانوا يشكلون همزة الوصل بينه وبين الناس المؤمنين بخطّة، وقد أشغل مركز النيابة عن الإمام في هذه الفترة أربعة تَمَنّ أجمعت تلك القواعد على تقواهم وورعهم ونزاهتهم التي عاشوا ضمنها، وهم: عليّ التوّاليّ، عثمان بن سعيد العمريّ، ثمّ محمّد بن عثمان بن سعيد العمريّ، ثمّ أبو القاسم الحسين بن روح النوبختي، وكان آخرهم أبو الحسن عليّ بن محمّد السمرّيّ.

مارس هؤلاء الأربعة مهام النيابة على التوّالي، وكان كلّما مات أحدهم، خلفه الآخر، وذلك بتعيين من الإمام الغائب؟. وكان النائب، من هؤلاء الأربعة، يتصل بالقواعد ويحمل أسئلتهم إلى الإمام، ويعرض مشاكلهم عليه، ويحمل إليهم أجوبته شفويّاً أحياناً، وتحريريّاً أحياناً أخرى. وقد لاحظ المؤمنون أنّ التوقيعات والرسائل كانت تردّ من الإمام المهديّ بخطّ واحد واسلوب واحد طيلة نيابة النواب الأربعة التي استمرّت حوالي سبعين عاماً، إنتهت بنهايتها الغيبة الصغرى.

١ - د. صابر طيمه، ص ٥٩

ولما كان هؤلاء النواب قد درج السابق منهم على تعيين خليفته قبل موته، فأوصى النائب الأول عثمان بن سعيد بالنياية الى ابنه جعفر بعد وفاته، وأوصى جعفر بها الى أبي القاسم التويختي، الذي أوصى بها الى الحسن السمرري، ولما سألوا هذا الأخير عمّن يخلفه بعد موته، قال: «لله أمر هو بالغه»، ولم يوص لأحد بعده، فكانت نهاية النياية، ونهاية الغيبة الصغرى^١.

أما الغيبة الكبرى، فتبدأ منذ ذلك التاريخ (حوالي ٣٣٠ هـ / ٩٤١ م.) ولن تنتهي إلا بظهور المهدي، آخر الزمان، ليخلص البشرية. ويربط المعتقد بين رجعة الإمام الثاني عشر، ونشوب حرب الجهاد، ويقسمها المعتقد الى درجات مختلفة، فقبل رجعة الإمام وظهوره، يُنتظر أن يأتي عليّ، أول الأئمة، وسيحمل عليّ خاتم سليمان وعصا موسى، وبهذا يتم التعرف على زوج ابنة الرسول، وسيقوم بجمع جيوشه على ضفة الفرات عند الكوفة، حيث بشكل متوالٍ، يتجمع حول عليّ الأئمة الذين خلفوه، ويقول المعتقد بانتصار الإمام الأول على الشر الذي لن يستسلم بسهولة، فإن خصم عليّ سيكون الشيطان الذي يقود جيشاً قوياً جباراً. ويذهب المعتقد الى افتراض أن أتباع الشيطان سيكونون أكثر عدداً من أتباع عليّ، إذ في النهاية سيحارب مع الشيطان كلّ من أيّده، ولو مرة واحدة، خلال التاريخ المديد للبشرية، وإذا كان النجاح سيحالف هذا الجيش الشيطاني في بداية الأمر، فإن نهاية أكبر معارك التاريخ وأقساها سوف تكون بانتصار جيش عليّ، يعون السماء، على الشيطان، فيظهر محمد في سحابة على رأس جيش من الملائكة، وإذا برى الشيطان محمداً يهرب مع جنده، فيقتله محمد برمحه معه من نور، ويُفني جيشه، فيفقد الشر سلطانه الى الأبد، وتقوم الساعة.

وفي المعتقد الشيعي أنه في يوم الحساب، سيرجع الى هذه الدنيا فريقان، أحدهما من علت درجته في الإيمان وكثرت أعماله الصالحات وخرج من الدنيا على

١ - المرجع السابق، ص ٥٩ و ٧٤ - ٧٥

اجتناب الكبائر والموبقات، فيُريه الله دولة الحقّ ويعطيه من الدنيا ما كان يتمناه،
والآخر من بلغ في الفساد وانتهى في خلاف المحقّين الى أقصى الغايات وكثر ظلمه
لأولياء الله واقتترافه السيئات. وسيكون جزء من عقاب الأشرار أنهم سيرون
حسن ثواب المؤمنين والأخيار، ثم يبدأ عذابهم الأبدى. وسوف يشارك في الحكم
على هؤلاء، الإمام المهديّ، الذي سينادي الموتى من قبورهم، بادئاً بأفضل الأخيار،
وسيكون الحسين على رأسهم، وأسوأ الأشرار، وسيكون على رأسهم يزيد بن
معاوية، وسيلقى يزيد عذاباً أبدياً، هو ومن معه، من الذين سيطر الشرّ على
إرادتهم. أمّا الأموات الذين لم يتطرقوا في خيرهم أو شرهم، فيظلّون راقدين في
قبورهم حتّى إذا ما انتهى عقاب الأشرار وثواب الأخيار، حوكم هؤلاء محاكمة
جماعيّة. وأمّا الذين انضمّوا الى شيعة عليّ قولاً وفعلًا فلن تمسّهم النار^١، وقد
استدلّ على هذا التصور علماء الشيعة، ومنهم أبو عليّ الطبرسي^٢ في تفسيره للآية:
«وَيَوْمَ نُحْشِرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بآيَاتِنَا فهُمْ يَوْرَعُونَ»^٣.

أبرز من تحدّث عن هذا المعتقد من أهل الشيعة، الشريف المرتضى^٤، الذي
نقل عنه أحمد أمين^٥ في كتابه ضحى الإسلام، والشيخ محمد بن محمد بن
النعمان، الفقيه الشيعي الملقّب عندهم بالشيخ المفيد^٦، ومحمد بن الحسن الحرّ

١ - المرجع السابق، ص ٨٤، كونه سلمان، ص ١١٦ - ١١٨.

٢ - أبو عليّ الطبرسي (توفي ٥٤٨ هـ / ١١٥٢ م)، مفسّر يُعرف بالطبرسي الكبير صاحب التفسير. له
«مجمع البيان في تفسير القرآن» وهو أشهر التفاسير عند الشيعة - منجد الأعلام -

٣ - سورة النمل، الآية ٨٢.

٤ - الشريف المرتضى علي بن الحسين (٢٥٥ - ٤٢٦ هـ / ٩٦٦ - ١٠٤٤ م)، فقيه الشيعة في عصره. ولد
وتوفي في بغداد. شاعر مجيد ومؤلف مكثّر. كان لأوحد أهل زمانه علماً وكلاماً وحديثاً وشرعاً، وكان
مثالاً للثقافة الكاملة. من مؤلفاته: «الأمالي» - منجد الأعلام -

٥ - أحمد أمين (١٨٨٦ - ١٩٥٤)، ولد في القاهرة، من أعضاء المجمع العلمي العربي، أسس الجامعة
الشعبية. من مؤلفاته: «فجر الإسلام» و«ضحى الإسلام» و«ظهر الإسلام» - منجد الأعلام -

٦ - محمد بن محمد بن النعمان الملقّب بالشيخ المفيد، (توفي ٤١٢ هـ / ١٠٢٢ م)، فقيه الشيعة في
عصره، نشأ وتوفي في بغداد. من ألقابه أيضاً «ابن المعلم». مؤلف مكثّر. من مؤلفاته كتاب
«الارشاد» الذي تحدّث فيه عن معتقد الرّجعة.

العالمي^١. وابن بابويه^٢، وسواهم؛ وخلاصة قول هؤلاء في الترجمة أنها تعني عندهم «بأن الله سيُرجع قسماً من الأموات إلى الحياة الدنيا، وذلك عند خروج المهدي المنتظر، ولن يرجع إلا من علت درجته في الإيمان، أو من بلغ الغاية من الفساد، ثم يصير الجميع بعد ذلك إلى الموت. وتقوم عقيدة الترجمة أساساً على الاعتقاد بأن الرسول والحسن والحسين وباقي الأئمة، وكذلك بعض خصومهم كأبي بكر وعمر وعثمان، يرجعون إلى الدنيا، ويُعذب من اعتدى على الأئمة ولغصب حقوقهم، فيُصلب أبو بكر وعمر على شجرة زمن المهدي بعد أن يُضربا بالسياط. والقصد من هذه الترجمة أن ينتقم المهدي من أعداء أهل البيت الذين يشاهدون من ظهور كلمة الحق وعلو كلمة أهل البيت ما أنكروه عليهم. ويعتمد الشيعة الرافضة بقولهم بالترجمة على الآية^٣ «ولا تخافي ولا تحزني إن رادؤهُ إليك وجاعلوه من المرسلين»^٤.

منذ بدء الغيبة الكبرى للإمام الثاني عشر في النصف الأول من القرن العاشر الميلادي، فقد الشيعة الاثنا عشرية مرجعيتهم الموثوقة في هذه الدنيا. ويتفق الباحثون على أن الشيعة ترى أنه يستحيل وجود حكومة مثالية في غياب الإمام المهدي، وإن أحسن ما يمكن التوصل إليه في مثل هذه الحال، هو إقامة حكم بموافقة جمهور العلماء، برغم أن مثل هذه الحكومة ليست مثالية قط^٥.

١ - الحر العاملي (محمد بن الحسن) (١٠٣٢ - ١١٠٤ هـ / ١٦٢٢ - ١٦٩٢ م) فقيه شيعي ولد في مشغرة (لبنان) وتوفي في مشهد الرضا (إيران). رحل من جبل عامل وأقام في إيران فاشتهر فيها. من مؤلفاته: «أمل الأمل» وكتاب «الوسائل» في الحديث، وعليه معول مجتهد الشيعة حتى اليوم - منجد الأعلام -

٢ - ابن بابويه محمد بن علي القمي (توفي ٣٨١ هـ / ٩٩١ م) عالم شيعي لُقّب بالصدوق. ولد في قم وتوفي بالري. مؤلف كثير. أشهر كتبه: «من لا يحضره الفقيه» وهو أحد كتب الشيعة الكبرى في علم الحديث. - منجد الأعلام -

٣ - سورة القصص، الآية الأولى؛ راجع: د. صابر طيمعة، ص ٧٩ - ٨٥

٤ - الدكتور سيد حسين نصر، الإسلام أهدافه وحقائقه، الدار المتحدة للنشر (بيروت) ص ٩٩، راجع: طوني مفرج، حرب الردة، دار المجرىة (بيروت ١٩٧٩) ص ١٠١ - ١٠٦

الفصل التاسع

في مواجهة العباسيين وقادتهم الأتراك

- دولة الأدارسة
- دولة العلويين في طبرستان
- دولة البويهيين
- دولة الحمدانيين

بينما تمكن أئمة الاثني عشرية من المحافظة على الحد الأدنى من التعايش مع الخلفاء العباسيين وقادتهم الأتراك، رغم التضييق الجائر الذي مارسه هؤلاء على الشعب عامة، وعلى الشيعة خصوصاً، فقد شهدت الأمبراطورية الإسلامية طوال العهد العباسي حركات ثورية شيعية في مختلف أقاليمها، مما أدى أحياناً إلى نشوء دول شيعية مختلفة الأصول في حقبات مختلفة ولمدد كانت تقصر أو تطول بحسب الظروف. وكان من بين هذه الدول، دولة الأدارسة في المغرب (٧٨٨ - ٩٨٤ م.) ودولة العلويين في طبرستان (٨٦٤ - ٩٢٨ م.) ودولة البويهيين التي سادت أصفهان وشيراز وكرمان (٩٣٢ - ١٠٥٥ م.) وبغداد (٩٤٥ م.) ودولة الحمدانيين في بعض أنحاء الشام (٨٩٢ - ٩٩١ م.) إضافة إلى الخلافة الفاطمية (٩٠٩ - ١١٧١ م.) التي قامت أول أمرها في تونس، ثم أخضعت الشمال الإفريقي كله، ثم مصر، ثم امتدت حدودها إلى شواطئ الأطلسي ووسطت نفوذها على بلاد الشام وفلسطين ولبنان.

دولة الأدارسة

في السنة الأولى من عهد الخليفة العباسي الرابع، الهادي موسى بن محمد المهدي (١٦٩ - ١٧٠ هـ / ٧٨٥ - ٧٨٦ م.) ثار بالمدينة الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، ومعه جماعة من أهل بيته. وكان سبب هذه الثورة تضييق العباسيين على آل أبي طالب وسواهم من الهاشميين. وإذا تمكن الثائرون من طرد عامل العباسيين من المدينة، كانت ردة فعل الخليفة عنيفة، فشن حملة على الحجاز قتل بنتيجتها الحسين وجماعة من أهل بيته وأصحابه، وجمعت رؤوسهم، فكانت تزيد على المائة. وكان مقتلهم بموضع يقال له «فخ»، على مسافة ثلاثة أميال من مكة.

نجا من آل الحسن الذين ناصروا أخاهم الحسين في هذه الثورة، إدريس بن عبد الله بن الحسن، الذي فر من «فخ» إلى مصر، وكان على بربرها يومذاك

رجل يتشيع لأهل البيت، اسمه واضح، وهو مولى صالح بن منصور. وعندما علم واضح بلجوء الطالب إلى مصر، قصده في مخبئه، وعرض عليه خدماته.

رغب إدريس ببادرة الرجل المتشيع، وطلب منه أن يحمله على البريد إلى أرض المغرب. وقد تجاوب واضح مع رغبة حفيد الحسن، فلحق إدريس بالمغرب الأقصى، ونزل بمدينة «وليلي»^١، وكان فيها عامل للعباسيين اسمه إسحاق بن محمد بن عبد الحميد، فأجار هذا إدريس، وأكرمه، وخلع طاعة العباسيين ووالاه. واجتمعت قبائل البربر إلى حفيد الحسن، فبايعته ودخلت في طاعته. وهكذا بدأ نشوء دولة الأدارسة في المغرب الأقصى، بينما اقتصر الخليفة العباسي الخامس: هارون الرشيد، من عامل البريد في مصر لنقله إدريس إلى المغرب، فأعدمه وصلب جثته انتقاماً^٢.

عمرت دولة الأدارسة الشيعية في بلاد المغرب أقل من قرنين بقليل (٧٨٨ - ٩٨٤ م). وقد خلف إدريس في حكمها ابنه المسمى هو أيضاً إدريس، بعد أن تمكن الأول من السيطرة على المناطق المغربية التي كانت أكثرية أهلها على دين اليهودية والمسيحية، فأجبرهم على اعتناق الإسلام الشيعي، وشملت فتوحاته سهل «تادلا» الواقع بين أطلس الأعلى والمحيط الأطلسي، والذي يخترقه نهر أم الربيع فيروي أراضيه الخصبة ومدينة التلمسان وسهلها الواقعة اليوم في الجزائر، هذا السهل الفني بالينابيع والكروم والبساتين. وبنى إدريس الأول في مدينة تلمسان مسجداً متقناً، خلد اسمه بحفره في صفحة منبره.

لاحقت غصبة الخليفة العباسي الخامس: هارون الرشيد، إدريس إلى بلاد المغرب، فأرسل إليه إدريس الشماخ اليعامي، مولى المهدي، الذي تظاهر بالتشيع

١ - ويلي: مدينة في المغرب الأقصى (مراكش)، وهي التي عُرفت أيضاً باسم «قصر فرعون».

٢ - ابن الأثير، الكامل، ج ٦ ص ٩٠ - ٩١، اليعقوبي، ج ٢ ص ٤٠٤ - ٤٠٥، المسعودي، مروج الذهب، ج ٢ ص ٢٢٦ - ٢٢٧.

٣ - حتي، صانمو التاريخ العربي، ص ١٤٤.

لأهل البيت، فقرّبه إدريس منه ورفع منزلته حتى قيل إنه آثره على نفسه وأنزله في بيته. ثم شكّا إدريس إليه ألماً في أسنانه، فصنع عميل الرّشيد لإدريس دواء مسموماً وأشار إليه أن يداوي فمه به عند طلوع الفجر، معطياً لنفسه مجال الفراق خلصة أثناء الليل^١. وهكذا تمكّن الرّشيد بواسطة عميله أن يقتال إدريس بن عبد الله في قصره بوليلى سنة ١٧٦ هـ / ٧٩٢ م. ولم يكن قد وُلد بعد ابنه الوحيد، الذي كانت حاملاً به جارية بربريّة اسمها كنزة. وكان لإدريس الأول مولى مخلص يُدعى راشداً، فأقدم راشد، عند موت إدريس، على جمع رؤساء البربر ووجوه الناس، واقترح عليهم انتظار وضع الجارية، «فإن ولدت ذكراً أحسنّا تربيته حتى يبلغ مبلغ الرجال، وبايعناه تمسكاً بدعوة أهل البيت وتبركاً بذريّة الرسول، وإن كان أنثى نظرهم لأنفسكم». وقرّ الرأي على ذلك، وناب مولى إدريس عنه حتى وُلد للجارية طفل ذكر، فسمّاه راشد إدريس، وأنشأ تربية تليق بمقامه، فأقرأه القرآن حتى حفظه وهو ابن ثماني سنوات، ثم علّمه الحديث والسنة والفقه واللغة، ورواه الشعر وأمثال العرب، وعزّقه أيّام الناس والملوك، ودرّبه على ركوب الحيل ورمي السهام. ولما بلغ إدريس الثاني الحادية عشرة من عمره، بايعته الرعيّة.

نشأ إدريس الثاني ليكون رئيس دولة، وقد كان ما نشأ من أجله. وإذا استقام حكمه، وفدت عليه العرب من إفريقية والأندلس ملتفين حوله. ومع هذا الإقبال البشريّ، قرّر إدريس الثاني إنشاء مدينة فاس، فبدأ بإنشاء المساجد والمدارس والأسواق، وأصدر تعميماً إلى الرعيّة جاء فيه أنّه كل من بنى موضعاً أو غرسه فهو له، فازدهر الغرس والبناء سريعاً، وزاد إقبال المستوطنين حتى شمل القرس. وفي أوّل خطبة له في مسجد فاس، قال إدريس الثاني:

«اللهم إنك تعلم أنّي ما أردت بناء هذه المدينة مباحاة، ولا مفاخرة، ولا رياء، ولا سمعة، ولا مكابرة، وإنما أردت أن أعبد بها، ويتلى بها كتابك، وثقام بها حدودك.

١ - ابن الأثير، الكامل، ج ٦ ص ١٢٠، قابل: يعقوبي، ج ٢ ص ٤٠٥.

وشرائع دينك، وستة دينك، ما بقيت الدنيا. اللهم وفق سلكها للخير، وأعنيهم عليه،
وأكنهم مؤونة أعدائهم، وأدرر عليهم الأرزاق، وأعنيهم سيف الفتنة والشقاق، إنك
على كل شيء قدير»^١.

وهكذا، انتقلت عاصمة دولة الأدارسة من ويليلى إلى فاس، تلك المدينة
الجديدة الرائعة الحصينة، التي يشقها نهر دائم التدفق إلى نصفين، وتشعب منه
جداول تجري في الدور والحمامات والشوارع والأسواق، وفي أكثر بيوتها تتفجر
العيون. فقد كانت نموذجاً عن فردوس.

وطد إدريس الثاني أركان الدولة التي أسسها والده، ووسّع نطاقها بعد أن
أخضع لها بعض المناطق المجاورة. وقد عاش نحواً من ست وثلاثين سنة، إذ توفي
في سنة ٢١٣ هـ / ٨٢٨ م. تاركاً اثني عشر ولداً ذكراً.

خلف إدريس الثاني ابنه البكر: محمد. فقسّم هذا الأخير دولة الأدارسة
على إخوته الراشدين، وأعطى كلاً منهم إمارة، وأبقى القصار في عهده. وبوفاة
محمد سنة ٢٢١ هـ / ٨٣٥ م. آلت القيادة إلى ابنه عليّ الذي حكم الدولة حتى
وفاته سنة ٢٣٤ هـ / ٨٤٨ م. فخلفه أخوه يحيى الذي وسّع سلطان الدولة، وقد
شهدت بعهد الممتد حتى سنة ٢٦٤ هـ / ٨٧٧ م. نمواً وازدهاراً ملحوظين. ولكن
ابنه الذي خلفه، واسمه هو الآخر يحيى، قد أساء السيرة وانصرف إلى اللهو
والعبث، ممّا ألّب عليه أهل فاس، ففرّ إلى الأندلس حيث لاقى حتفه. ولم يستلمع
ابن عمّه عليّ بن عمر أن يسيطر على الدولة بعد أن استولى على الحكم إثر
اعتزال يحيى الثاني، إذ كان عليه أن يفرّ بسبب ثورة الخوارج عليه. فحاول يحيى
الثالث، وهو حفيد إدريس الثاني، أن يستعيد استقرار الدولة، غير أن دولة
الأدارسة كانت قد أصبحت عرضة لزحف الفاطميين الذين تمكّنوا من فرض
سيادتهم على القسم الشرقي منها، بينما فرض أمويو الأندلس سيادتهم على

١ - الشيخ محمد جواد مغنّية، دول الشيعة في التاريخ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات (كربلاء، ١٩٦٥ م)
ص ١٦ - ١٧

قسمها الغربي، وانتهت بذلك دولة الأدارسة الشيعية في حوالى العام ٩٨٤ م. وقد ترك الأدارسة الشيعة في المغرب أثراً جليلاً، إضافة إلى تشريع الإسلام فيها، إذ ازدهرت العلوم في عهدهم، وتحضر أهل البوادي، ونشأت المدن الواسعة، وانتشرت المساجد والمدارس، وعمّ العدل والأمن في الجزء الأكبر من عهدهم بشكل قلما عرفت مثله دول الإسلام في تلك الحقبة من التاريخ^١.

دولة العلويين في طبرستان

ذكرنا في الفصل السابق خبر ظهور الحسن بن زيد بن محمد بن اسماعيل ابن زيد بن الحسن بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب بطبرستان، ومبايعة أهلها له، وسيطرته عليها نحواً من تسعة عشر عاماً. وكان ظهور الحسن بن زيد في ٢٥٠ هـ / ٨٦٤ م.

جاء ظهور الحسن بن زيد في طبرستان إثر جور العامل العباسي فيها، وتقلل أهلها الذين كانوا على استعداد للسير في أية حركة تناهض الحكم القائم. وكان أهل طبرستان وأهل الديلم قد تراسلوا على التعاون والتعاقد من أجل التخلص من نير الوالي العباسي سليمان بن عبد الله بن طاهر. وما أن تجاوب الحسن بن زيد مع دعوة أهل طبرستان والديلم لقيادتهم، حتى انضم إلى هؤلاء في مبايعة أهل كلار وشالوس والرميان من المناطق المجاورة لطبرستان والديلم، ثم انضم إلى هؤلاء سكان الجبال والوهاد المجاورة. وجرت الحرب بين الثائرين بقيادة حفيد عليّ، وبين رجال العامل العباسي بقيادة محمد بن أوسى البلخي في مدينة أمل بسهل مازاندران جنوبي بحر قزوين، فتمكن الحسن من دخول المدينة بعد قتال شديد. وإذا عمل المنتصرون في نهب المدينة، انضم إليهم عدد كبير من رؤاد القتال والمغامر، فأعاد الحسن تنظيم فرقته، وشنّ هجوماً على العامل العباسي سليمان

١ - للمزيد من أخبار دولة الأدارسة، راجع: «الاستقما» لأخبار دول المغرب الأقصى».

ابن عبد الله في مدينته سارية، وبعد قتال شديد بدأ اصحاب زيد بالدخول إلى المدينة، ففرّ العامل العباسي، تاركاً عياله وأمواله وراءه. بيد أن الحسن، الذي استولى على الأملاك، أمر بإرسال النساء والأولاد في مركب إلى سليمان الذي لجأ إلى مدينة جرجان جنوب شرقي بحر قزوين. وقيل إن سليمان قد انهزم اختياراً لأنه كان متشيعاً لأهل البيت.

ولما سيطر الحسن على طبرستان، وجّه جنداً إلى الري بقيادة قريب له اسمه هو الآخر حسن بن زيد، فاستولى عليها، وجعلها تحت إمرة رجل من الشيعة اسمه محمد بن جعفر. ويبدو أن محمداً هذا قد أساء السيرة، فكهروه أهل الري، وتخلّوا عنه، مما مكن الجند العباسي من أسره بعد دحر جيشه، فاضطر الحسن إلى أن يوجّه عسكره من جديد بقيادة رجل يدعى واجناً، إلى الري، فتمكن واجن من استعادتها بعد قتل القائد العباسي ودحر جيشه.

كلّ هذه الأحداث جرت في سنة ٢٥٠ هـ / ٨٦٤ م. إذ كان عهد الخليفة العباسي الثاني عشر، المستعين (٢٤٨ هـ / ٨٦٢ م. - ٢٥٢ هـ / ٨٦٦ م.).

بيد أنه في السنة التالية لهذه الأحداث، أمر الخليفة العباسي عامل طبرستان، سليمان بن محمد، بأن يستعيد طبرستان، وزوّده بجيش كبير من أجل هذه الغاية. فاضطر الحسن بن زيد إلى التخلي عن طبرستان للديلم، فدخل العامل العباسي طبرستان وراح يتقبّل اعتذار أهلها، فصّح عنهم، ونهى أصحابه عن القتل والنهب والأذى. ومن شأن هذا التصرف أن يدلّ على صحّة تشيع سليمان.

في هذه الأثناء، جرت أحداث أخرى بالكوفة، حيث نشبت الثورة على يد طالبيّ آخر، هو الحسين بن أحمد بن حمزة بن عبد الله بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب، الذي سمّى والياً عليها، طالبياً آخر، هو محمد بن جعفر بن حسن بن جعفر بن الحسن بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب، وأجلى عنها عامل العباسيين أحمد بن نصير الخزاعي. ولما وجهت الخلافة جنودها لاستعادة الكوفة، دافع عنها

أهلها العلويون دفاعاً مستميتاً، وأبادوا الفرقة المهاجمة، بيد أن القائد العباسي، عاد وهاجمها بفرقة أخرى، حتى دخلها، وأحرقها انتقاماً، فهرب منها حفيد علي، بعد أن سيطر القائد العباسي عليها تماماً.

في الوقت نفسه، ثار علوي آخر في نينوى، مجهول الهوية، ولكن ثورته باءت بالفشل، رغم إزعاجه الدولة العباسية، التي كان عليها أيضاً أن تواجه ثورة حفيد آخر لعلي في قزوين وزنجان، هو الحسين بن أحمد بن إسماعيل بن محمد ابن إسماعيل الأرقط ابن محمد بن علي بن الحسين بن علي المعروف بالكركي، بعد أن طرد العامل العباسي وسيطر على الناحية.

وفي مكة، ظهر إسماعيل بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، فانتهب منزل العامل العباسي فيها ومنازل أصحاب السلطان، وقتل الجند وجماعة من أهل مكة، واستولى على كل مال طالته يده، بما في ذلك الأموال العائدة إلى الكعبة. وبعد أن نظف الثائر الطالبي مكة من الأموال والذهب والفضة، أحرق بعضها وسار إلى المدينة، فتوارى عاملها، وبقي رجال إسماعيل محاصرين مكة حتى أذاقوا أهلها الأمرين. وقد جاءت هذه الثورة انتقاماً طالبياً لما لقيه أحفاد علي من جور وذلة ومهانة على أيدي العباسيين. وقد سار هذا الطالبي إلى جدة وفعل بها ما فعله بمكة، دون أن تتمكن منه قوى الخلافة. إنما العكس قد حصل، إذ خلع الخليفة العباسي الثاني عشر المستعين، نفسه من الخلافة، فخلفه المعتز بن المتوكل (٢٥٢ هـ / ٨٦٦ م). ثم إن الثائر الطالبي، إسماعيل بن يوسف، قد مات في السنة نفسها بعد أن فعل كل ما فعل.

وبينما هذه الأحداث تتفاعل، تمكن الحسن بن زيد العلوي من استعادة طبرستان بسهولة. وكان الخليفة المعتز قد خلع على أيدي قاداته الأتراك (٢٥٥ هـ / ٩٦٥ م). وخلفه المهتدي. بينما كانت ثورة الزنج قد بدأت، كما عمت الاضطرابات بغداد والموصل والبصرة والكوفة. وقبل أن يتم الخليفة المهتدي سنة من حكمه، خلعه الأتراك كما خلعوا سلفه المعتز، وجعلوا مكانه أحمد بن المتوكل.

ولُقّب بالمعتمد على الله. وبينما أوضاع الخلافة على هذه الحال من التردّي ظهر في الكوفة عليّ بن زيد، واستولى عليها، وأزاح عنها نائب الخليفة، واستقرّ بها. وتمكّن العلويّ من صدّ هجوم عتيف شتّه عليه جند الخلافة، بيد أنّه تنحّى عنها لما علم بتسيير حملة كبرى لقتاله، ولكنّ الخليفة عاد وتمكّن منه بعد حين عندما عاد إلى سامراء، فأرسل من قتله هناك.

وسط هذه الفوضى، وسع الحسن بن زيد مجال سيطرته، فقصّد جرجان، واستولى عليها، رغم محاولة أمير خراسان محمد بن طاهر الدفاع عنها، ولكنه بقي في حال نزاع مع الخلافة العباسيّة التي كان عمّالها يشنون على دولته الهجمات المتقطّعة، وكان الحسن ينتصر حيناً، وينهزم لبعض الوقت حيناً آخر، فينتقل إلى أرض الديلم ليعود فيحرّر طبرستان ويسودها. وبقي على هذه الوتيرة حتّى وفاته سنة ٢٧٠ هـ / ٨٨٣ م. بعد أن أسّس دولة شيعيّة وقادها طوال تسع عشرة سنة وثمانية أشهر، فتولّى مكانه أخوه محمد بن زيد. وكان الحسن، إضافة إلى حنكته الحربيّة والسياسيّة، عالماً بالفقه والعربيّة، وملمّاً بالشعر، وكان مميّزاً بفضيلة الجود^١.

استتب الأمر لخليفة الحسن: محمد بن زيد، فحكم الدولة العلويّة مدّة سنتين بلا قلاقل تُذكر. وكان محمد فاضلاً، أديباً، شاعراً، عارفاً، حسن السيرة، بإجماع المؤرّخين. وتدلّ سيرته على أنّه كان متسامحاً، وكانت له نظره الخاصّة والواقعيّة إلى الأمور. ويوم استأذن عليه جماعة من المكفوفين، قال: «أدخلوا... فإنّه لا يخبّنا إلّا كلّ كسير أعور!».

في السنة الثّانية لحكمه، تعرّضت الرّئيّ لهجوم عتيف من القادة الأتراك العاملين تحت الرّاية العباسيّة. وكان العهد للخليفة العباسيّ الخامس عشر: المعتمد

١ - راجع: ابن الأثير، الكامل، ج ٧، ص ١٣٠ - ١٢٤ و ١٦٢ - ١٦٧ و ١٧٧ و ٢٠٢ و ٢٢٨ و ٢٢٥ و ٢٢٩ - ٢٤٠ و ٢٤٨ و ٢٦٨ و ٢٦٩ و ٢٨٨ و ٣٢٥ و ٤٠٧ - ٤٠٨، للمسعودي، مروج الذهب، ج ٤ ص ١٥٢ و ١٨٠، اليقوي، ج ٢ ص ٤٦٨، مقنّي، ص ٢٤.

(٢٥٦ هـ / ٨٧٠ م - ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م). فقتل من جيش ابن زيد ستة آلاف رجل، وأسر ألفان، وغنم الأتراك من خيرات الري ما لم يروا مثله، على حد تعبير من رووا. وفرق الأتراك عمالهم في مناطق الري. وبعد ثلاث سنوات (٢٧٥ هـ / ٨٨٨ م). أرسل العباسيون حملة إلى جرجان، أزالوا عنها حكم محمد بن زيد. وإذا سار محمد إلى أستراباد، حاصره الجند العباسي مدة سنتين، حتى شهدت المدينة قلة ومجاعة. وإذا تمكن محمد من الفرار بعد سنتين، انتقل إلى سارية، فتبعه الجيش العباسي، فانتقل إلى طبرستان، ثم إلى أرض الذيلم. وبقي محمد ملاحقاً من قبل الجيش العباسي إلى أن مات ولي عهد الخليفة المعتمد: الموفق بالله، سنة ٢٧٨ هـ / ٨٩١ م. ذلك أن الموفق، وهو طلحة بن جعفر المشوك، إذ كان ولياً للعهد بعهد أخيه المعتمد، كان الحاكم الفعلي، فظهر ضعف المعتمد عن القيام بأعباء الدولة. والموفق، هو الذي تمكن من القضاء على ثورة الزنج سنة ٨٨٣ بمعاونة لؤلؤ.

في هذه الأثناء، كان محمد بن زيد قد عاد إلى الذيلم، وكان قائد الحملة العباسية التي انتزعت منه طبرستان والري وجرجان وغيرها من النواحي: رافع بن هرثمة، وكان مقيماً في الري، فراسل محمداً عارضاً عليه الصلح مقابل إعادتها إليه. وهكذا استعاد ابن زيد الجزء الأهم من الدولة العلوية لحكمه. غير أن مشكلة من نوع آخر قد واجهت الدولة العلوية بعد سنتين (٢٨٠ هـ / ٨٩٣ م). إذ غارت المياه في الري وطبرستان، حتى عذت المياه على الناس، وغلّت الأسعار، واستمرّ الشحّ سنتين متتاليتين^١.

رغم ذلك، فقد تمكن محمد سنة ٢٨٢ هـ / ٨٩٥ م. من إرسال اثنين وثلاثين ألف دينار إلى أحد أتباعه في بغداد، لثوّر على أهل البيت من الطالبيين في بغداد والكوفة والمدينة. ويبدو أن محمداً كان يرسل قرابة هذا المبلغ من المال للغاية نفسها في كل عام. وفي سنة ٢٨٧ هـ / ٩٠٠ م. قتل محمد بن زيد في إحدى

١ - راجع: ابن الأثير، الكامل، ج ٧ ص ٤١٨ و ٤٥٧ و ٤٦٥ و ٤٦٧ و ٤٧٤ و ٥٠٤ و ٥٢٧، المسعودي، مروج الذهب، ج ٤ ص ٢٦٦، مغنية، ص ٢٤ - ٢٨.

المعارك الحربية وهو يحاول استرداد جرجان، إذ كانت دولته قد استقرت على طبرستان والديلم. وقد قتله والي خراسان محمد بن هارون، واستولى على دولته. ولكن الخليفة العباسي السابع عشر: المكتفي (٢٨٩ هـ / ٩٠٢ م - ٢٩٥ هـ / ٩٠٨ م). أسر ابن هارون بعد ثلاث سنوات من قتل هذا الأخير محمد بن زيد، وكان سبب أسره أنه استقل عن الخلافة ولم يذعن لتهدداتها. وعادت طبرستان، وجرجان، والديلم، والري إلى الحكم العباسي.

بقيت طبرستان حوالي ثلاثة عشر عاماً خارج إطار الحكم الشيعي، إلى حين ظهور الحسن بن علي بن الحسن بن عمر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب المعروف بالأطروش، وبالناصر الكبير، وبالناصر للحق. وكان الأطروش عالماً وشاعراً ومؤلفاً من أئمة الشيعة الزيدية، نشر الإسلام بين أهل الديلم على شواطئ بحر قزوين، فذهبوا مذهب التشيع، واعتنقوا الزيدية تحديداً.

ظهر الأطروش في سنة ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م. بعد أن كان قد قضى سنوات يدعو الناس إلى الإسلام في بلاد الديلم. وإذ أساء العامل العباسي معاملة شيعة الديلم، قادهم الأطروش في هجوم عنيف شنه على عاصمة طبرستان: أمل، واستولى على مجمل طبرستان والري، واستعاد السيطرة الشيعية على المناطق التي خضعت لحكم الحسن بن زيد وابنه محمد. فانتقم بذلك لأقاربه من أهل بيت علي، وهو من كان قد قاتل مع محمد بن زيد، فأصيب بضربة سيف على رأسه، مما سبب له الصمم، فلقب بالأطروش. وذكر المؤرخون أن الحسن بن علي الأطروش عدل في حكمه، ولم ير الناس مثله في عدله وحسن سيرته وإقامته الحق.

استمر حكم الحسن بن علي الأطروش لطبرستان ومحيطها أربع سنوات، انتهت بوفاته سنة ٣٠٤ هـ / ٩١٦ م^١.

خلف الحسن بن علي الأطروش في حكم طبرستان، صهره الحسن بن القاسم

١ - راجع: ابن الأثير، الكامل، ج ٨ ص ٨١ - ٨٦ و ١٠٥، المسعودي، مروج الذهب، ج ٤ ص ٢٠٨ و ٢٧٢ - ٢٨٥، مقننة، ص ٢٨ - ٢٩

العلويّ الملقّب بالداعي. وهو من كان أعانه على استعادة طبرستان قبل أربع سنوات، وأظهر في القتال بطولة نادرة.

حاول الداعي توسيع رقعة دولته العلوية، فأرسل في سنة ٢٠٨ هـ / ٩٢٠ م. عامله على الديلم؛ ليلي بن النعمان الديلمي، على رأس جيش يقصد الاستيلاء على نيسابور، ولكن ليلي قتل، وباءت المحاولة بالفشل.

استمرّ حكم الداعي لطبرستان والديلم والريّ وجوارها حتّى سنة ٢١٦ هـ / ٩٢٨ م. إذ تمكّن قادة العباسيّين الأتراك من انتزاعها منه، وقُتل به خلال هجوم عنيف شتّوه عليه، وقد تخلّى عنه جنوده لما كان يأمر به من استقامة، ولمنعهم من تعاطي الخمر ومن ظلم الرعيّة، حتّى باتوا يبغيضونه^١.

بمقتل الحسن بن القاسم الملقّب بالداعي، انتهت دولة العلويّين في طبرستان التي دامت زهاء خمسين سنة. وكان انتقام الأتراك من شيعة طبرستان رهيباً، إذ قتلوا قادتهم، واعتقلوا كبارهم، وسلبوا أغنياءهم، فندم بعضهم على تخليه عن الداعي، واضطر البعض الآخر إلى التخلّي عن تشييعه لأهل البيت وعن مذهب الزيدية.

دولة البُويهيّين

تعدّدت الروايات حول نسب آل بُويه، بين قائمة بأنهم ينتسبون إلى سلالة الملك يزديجرد بن هرمز من ملوك الفرس، وقائمة بأنهم من سلالة شهريار آخر ملوك الفرس، ولكن ما من خلاف على أنّهم من سلالة ملوك فارس، وعلى أنّ الجدّ الأوّل لهذه الأسرة، هو أبو شجاع بُويه من سكان الديلم، وكان رجلاً متوسط الحال، ماتت زوجته تاركة له ثلاثة أولاد، اعتنى بتربيتهم وسط الفقر والعوز.

١ - راجع: ابن الأثير، الكامل، ج ٨ ص ٨٢ و ١٠٥ و ١٢٤، المسمودي، مروج الذهب، ج ١ ص ٢٠٨ و ٢٨٢ - ٢٨٥، مفتحة، و ص ٢٩ - ٣٠.

والأولاد الثلاثة هم: أبو الحسن عليّ، وأبو العليّ حسن، وأبو الحسن أحمد. وقد تنبأ أحد المنجمين لأبي شجاع بأن أولاده الثلاثة سيملكون الأرض ومن عليها، ويعلو ذكرهم في الآفاق، ويولد لهم جماعة ملوك. فظنّ الرجل أن المنجم يسخر منه، فأمر أطفاله بصفعه، فصفعوه.

كان ذلك في بداية القرن الرابع للهجرة.

بيد أن نبوءة المنجم لم تكن كاذبة تماماً. فقد صدق الجزء الأكبر منها، وإن لم يملك البويهيون الأرض ومن عليها، إنما هم ملكوا دولة شيعيّة أخرى، دامت أكثر من ١٢٠ سنة (٩٣٢ - ١٠٥٥) طالت أصفهان وشيراز وكرمان، وأحياناً بغداد. وغدا أمير المؤمنين العلوية بيد البويهيتين إلى أن غلبهم السلطان السلجوقي طغرل بك سنة ١٠٥٥.

بدأ الشبان الثلاثة كفاحهم بانضمامهم إلى حركة شيعيّة زيدية في بلاد الديلم، بقيادة بعض أنصار الدولة العلوية التي انتهى أمرها بمقتل الحسن بن القاسم الداعي، وكان على رأس تلك الحركة رجل ديلمّي اسمه مارداويج. ولقب أبو الحسن عليّ نفسه بعماد الدولة، وأبا عليّ الحسن بركن الدولة. وسرعان ما احتلّ الرجلان وأخوهم عليّ مكانة مرموقة عند مارداويج، الذي قلّد كلّاً منهم ناحية من نواحي الديلم، وكانت ناحية أبي الحسن أحمد، كرج.

أحسن الإخوة الثلاثة حكم المناطق التي ولّوا عليها، حتّى أحبّهم الناس، وانضوا تحت ألويتهم. وسرعان ما راحوا يتعاونون على الحكم، والقتال، فاستولوا على أصفهان، ثم أفلق الخليفة العباسي من جهة، وأرعب مارداويج نفسه من جهة أخرى، فشَنّ هذا الأخير حملة على أصفهان أثقأها البويهيون بالانتقال إلى أرتجان واحتلالها، ثم راحوا يشنّون الغزوات على التوبندجان وكازرون وغيرهما من بلاد فارس، حتّى جنوا أموالاً كثيرة، وياتوا قبل نهاية ٣٢١ هـ / ٩٣٣ م. في وضع قياديّ ممتاز. وفي بداية السنة التالية، استولوا على يراز حرباً.

بعد هذا التقدّم السريع، أطلق على أبي الحسن أحمد من أبناء بويه لقب معزّ الدولة، وكلفه أخواه بالسير إلى كرمان، وامتلاكها، وزوداه بجيش ومال لهذه الغاية. وبخلال سيره، استولى على السيرجان، وعلى بَمَ وجيرفت، رغم إصابته بجروح بليغة، منعتَه من الوصول إلى كرمان. غير أنّه في السنة التالية (٣٢٦ هـ / ٩٣٧ م.) قاد حملة على الأهواز فاحتلّها. وبعد سنتين، تمكّن أخوه ركن الدولة من استعادة أصبهان. وفي ٣٣٠ هـ / ٩٤١ م. سار ركن الدولة وأخوه عضد الدولة البديهيّان إلى الريّ واستوليا عليها وأخضعها لدولة البويهيين. وبعد سنتين سقطت واسط بيد أخيهما الثالث معزّ الدولة. وفي ٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م. استولى على بغداد، مسلماً، إذ أمر الخليفة العبّاسي الثاني والعشرون، المستكفي، بعدم مقاومته. بل إن هذا الخليفة العبّاسي هو الذي ثبت له لقب معزّ الدولة، وثبت لأخويه لقبَي عماد الدولة وركن الدولة، وأمر أن تُضرب ألقابهم وكناهم على الدنانير والدراهم. ويظهر من ذلك أن المستكفي (٣٣٣ هـ / ٩٤٤ م. - ٣٣٤ هـ / ٩٤٦ م.) قد استعان ببني بويه على القادة الأتراك الذين كانوا قد سيطروا على الخلافة. بيد أن معزّ الدولة أطاح المستكفي بعد حين، فخلفه المطيع (٣٣٤ هـ / ٩٤٦ م. - ٣٦٣ هـ / ٩٧٤ م) ومنذ ذلك الحين، سيطر البويهيون على الخلافة العبّاسيّة سيطرة تامة، فلم يبقَ للخليفة وزير، إنّما كان له كاتب، يدبّر إقطاعه وإخراجاته لا غير. وكان من أعظم الأسباب في ذلك «أن أهل الديلم كانوا يتشيعون ويغالون في التشيع، ويعتقدون أن العبّاسيين قد غصبوا الخلافة وأخذوها من مستحقّيها... ويبدو أن معزّ الدولة قد استشار جماعة من خواص أصحابه في إخراج الخلافة من العبّاسيين والبيعة للمعزّ لدين الله العلويّ، أو لغيره من العلويّين، ولكنّ خواصّه نصحوه بعدم الإقبال على مثل هذه المخاطرة».

تسلّم معزّ الدولة العراق بأسره، ولم يبقَ بيد الخليفة منه شيء. «إلا ما أقطعه معزّ الدولة بما يقوم ببعض حاجته». ففي ٣٣٦ هـ / ٩٤٨ م. احتلّ معزّ الدولة البصرة، وفرض ضريبة على الموصل.

في هذه الأثناء، سار أخوه ركن الدولة إلى طبرستان فملكها، وكذلك فعل بجرجان.

ولما توفي عماد الدولة أبو الحسن علي بن بويه بمدينة شيراز في ٣٢٨ هـ / ٩٥٠ م. بسبب قرحة مزمنة في كليته، سلم القيادة إلى ابن أخيه ركن الدولة، واسمه فتاخسرو، ولقبه عضد الدولة. بيد أن «إمارة الأمراء» قد انتقلت من عماد الدولة، بفارس، إلى أخيه ركن الدولة.

في هذه الحقبة، أضحت الخلافة العباسية، واقعاً، بيد البويهيين بعد أن أحكم معز الدولة قبضته على مركزها بغداد، وأصبح القادة الأتراك يعملون بأمرته مع جنودهم. وقد أظهر معز الدولة تشيماً رسمياً، بعد أن بنى داراً عظيمة له في المدينة التي جعلها مركز حكمه. فقبل نهاية سنة ٣٥٣ هـ / ٩٦٣ م. أمر في الثامن عشر من ذي الحجة، «بإظهار الزينة في البلد، وأشعلت النيران بمجلس الشرطة، وأظهر الفرح، وفتحت الأسواق بالليل، كما يُفعل ليالي الأعياد، وقد فعل ذلك فرحاً بعيد الغدير، يعني غدير ختم، وضربت الدبادب والبوقات، وكان يوماً مشهوداً». وكان قبل سنة من ذلك التاريخ، قد أمر العامة ببغداد بأن يكتبوا على المساجد العبارة التالية:

«لعن الله معاوية بن أبي سفيان، ولعن من غصب قاطمة رضي الله عنها فدكا، ومن منع أن يُدفن الحسن عند قبر جده عليه السلام، ومن نفى أبا ذر الغفاري، ومن أخرج العباس من الشورى».

وإذ كادت هذه الكتابة أن توقع فتنة طائفية في بغداد لما قام بعضهم بـ «حكها» ليلاً، وقد عزم معز الدولة على إعادة كتابتها، أشار عليه مستشاروه بأن يستبدل بالعبارة أخرى أقل إثارة، فاقترح بالنصيحة، وأحل مكانها عبارة «لَعَنَتِ الظالمين لآل رسول الله صلعم، واكتفت بلعن معاوية دون سواء».

وعندما حل العاشر من محرم، أمر معز الدولة الناس أن «يفلقوا دكاكينهم،

ويبتلوا الأسواق والبيع والشراء، وأن يظهرُوا النياحة، ويلبسوا قباياً عملوها بالمسوح، وأن يخرج النساء منثرات الشعور، مسودات الوجوه، قد شققن ثيابهنّ، يدرن في البلد بالنوائح، ويلطمن وجوههنّ على الحسين بن عليّ، ففعل الناس ذلك، ولم يكن للسنة قدرة على المنع منه لكثرة الشيعة، ولأنّ السلطان معهم».

ولم يمض وقت طويل حتّى استولى معزّ الدولة على عُمان التي ظهرت دراهمها سنة ٣٥٥ هـ / ٩٦٥ م. واسمه على دنانيرها.

إلا أنّ معزّ الدولة مات أثناء محاولته الاستيلاء على واسط، فاضطرّ قاداته على أن يصالحوا واليها عمران بن شاهين دون الاستيلاء على هذه المنطقة العراقية الواقعة بين البصرة والكوفة، ومدينتها التي أسسها الحجاج بن يوسف الثقفي قبل مائتين وستين سنة من ذلك التاريخ^١.

هذا الجبار الذي دوّخ العباسيين والأتراك، أحد الإخوة العصاميين الثلاثة من أبناء بويه، قد قضت عليه جرثومة، ما فرقّت بين صعلوك وسلطان، فمات بمرض الزحار سنة ٣٥٦ هـ / ٩٥٦ م. بخلال حربه على واسط. ولما شعر بدنو أجله، قفل عائداً إلى قصره ببغداد، وهناك، سارع إلى التصدّق بأكثر ماله، واعتق ممالিকে، ورّد شيئاً كثيراً على أصحابه.

وكان معزّ الدولة قبل ذلك التاريخ بثلاث سنوات قد عيّن ابنه بختيار ولياً لعهد، وسلّم جميع ماله إليه، وأوصى قاداته به. وهكذا خلف بختيار والده، وتكتّى بعزّ الدولة.

١ - راجع ابن الأثير، الكامل، ج ٨ ص ٢٦٤ - ٢٧٢ و ٢٧٥ - ٢٧٨ و ٢٢٤ - ٢٢٦ و ٢٤٠ - ٢٤٢ و ٣٦٠ و ٤١٧ و ٤٥٠ - ٤٥٢ و ٤٦٩ - ٤٧٠ و ٤٨٢ - ٤٨٤ و ٥١٠ - ٥١٢ و ٥٢٤ و ٥٤٢ و ٥٥٨ و ٥٦٥ - ٥٧٤، مغنّية، ص ٢٤ - ٤٠، السيد مير عليّ، مختصر تاريخ العرب، (١٩٢٨) ص ٢٦٠ وما يليها.

خالف عزّ الدولة، على ما يبدو، جميع وصايا أبيه، القائلة بوجوب طاعة عمه ركن الدولة واستشارته في كل مايفعله، ويطاعة عضد الدولة ابن عمه لأته أكبر منه سناً وأقدم بالسياسة، ووصاه بتقرير كاتنييه أبي الفضل العباس بن الحسين وأبي الفرج محمد بن العباس لكفائتهما وأمانتهما، ووصاه بالذي لم والأتراك وبالحاجب سبكتكين... فذهبت كل هذه الوصايا أدراج الرياح، وانصرف عز الدولة إلى اللهو واللعب ومعاشرة النساء والمساخر والمغتنين، وجافى كاتني أبيه وحاجبه الأمين فقاطعوه، ونفى كبار الديلم عن مملكته طمعاً بإقطاعاتهم وأموالهم وأموال المتصلين بهم، فكان عليه بعد ذلك أن يواجه نقمة هؤلاء ونقمة الأتراك. وسرعان ما نشبت الفتنة في بغداد بين السنة والشيعة، وأصبحت المدينة عرضة للنهب والسلب وفقدان الأمن. وبقي عزّ الدولة يختار لا يهتم إلا بنفسه. واضطره الضعف والقلّة إلى الركون الى الدسائس، فزاد وضعه سوءاً مع قادته وحلفائه ورعيّته، مما أذى إلى ثورة قادته الأتراك عليه في ٣٦٤ هـ / ٩٧٤ م. فناصر سنة بغداد هؤلاء القادة لأنهم كانوا سنة. بينما ناصر شيعتها عزّ الدولة، فوقعت الاضطرابات وسفكت الدماء بغزارة. وبدأ السنة يظهرون الغلبة على الشيعة يوماً بعد يوم. ولم تنفع محاولات ركن الدولة، عم عزّ الدولة في نجدة ابن أخيه، أمّا ابن عمه، عضد الدولة، فراح يتحين الفرص للانقضاض عليه طمعاً بحكم العراق. وبالفعل، وقبل نهاية هذه السنة، كان وضع عزّ الدولة قد قارب الانهيار تماماً، فسار ابن عمه عضد الدولة نحو العراق، متظاهراً بنجدته، غير أنه في الواقع، كان قاصداً إزاحته والاستيلاء على إمارته.

تمكّن عضد الدولة من دخول بغداد بعد عبور الفرات وتغلّبه على الأتراك وأعوانهم السنة، فانتزع الخليفة العباسي الطائع من بين أيديهم، وكانوا قد اتخذوه رهينة، وأعادته إلى دار الخلافة، واستقرّ في قصر ابن عمه، دون أن يُظهر نيّته بالاستيلاء على العراق خوفاً من أبيه ركن الدولة، فراح يحرض جند ابن عمه عليه، ويحرّضه، في الوقت نفسه، عليهم وعلى إخوته، إلى أن رأى عزّ الدولة،

بختيار، عاجزاً عن الحكم، فاستعفى، وآلت القيادة إلى ابن عمه الداهية، عضد الدولة.

كان لهذا التطور فعل بدء التناحر في الدولة البويهية بسبب الصراعات التي ستنشأ بين أفراد الأسرة البويهية. وقد أدرك أحد الأثقاء الثلاثة مؤسسي الدولة، وهو الوحيد الباقي على قيد الحياة: ركن الدولة، أدرك خطورة ما بدأ يجري، وإذا بلغه ما فعله ابنه عضد الدولة، «ألقي نفسه عن سريره إلى الأرض وتمرغ عليها، وامتنع عن الأكل والشرب عدة أيام، ومرض مرضاً لم يشف منه باقي حياته». وبخلال مرضه، أمر ركن الدولة ابنه عضد الدولة بإعادة العراق إلى ابن عمه (ابن شقيق ركن الدولة) بختيار عز الدولة، فأنصاع عضد الدولة على مضض، وراح ابنا العم ينتظران موت شيخ البويهيين ركن الدولة، ليتناقما.

وبالفعل فمع مستهل سنة ٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م. مات ركن الدولة، مستخلفاً على ممالكه ولده عضد الدولة، وجعل الولايات لأبنائه الآخرين، موسياً إليهم بالاتفاق وترك الاختلاف.

وصف المؤرخون هذا العصامي البويهى الجليل بأنه كان حليماً واسع الكرم، كثير البذل، حسن السياسة لرعاياه وجنود، رؤوفاً بهم، عادلاً في الحكم بينهم، وكان بعيد الهمة، عظيم الجدة، متحرّجاً من الظلم، مانعاً لأصحابه منه، عفيفاً عن الدماء، يرى حقنها إلا فيما لا بدّ منه؛ وكان يحامي على أهل البيوتات، وكان يجري عليهم الأرزاق، ويصونهم من التبذل، وكان يقصد المساجد الجامعة، في أشهر الصيام، للصلاة، وينتصب لردّ المظالم، ويتعهد العلويين بالأموال الكثيرة، ويتصدق بالأموال الجليلة على ذوي الحاجات، ويلين جانبه للخاص والعام.

ما أن تسلم عضد الدولة عرش الدولة البويهية بعد موت أبيه، حتى سار إلى العراق لينتقم من ابن عمه عز الدولة، وليحقق أمنيته التدمية بالاستيلاء على بلاد الرافدين، فلاقاه عز الدولة إلى الأهواز، حيث كانت الواقعة، فدارت الدوائر على عز الدولة.

احتلَّ عضد الدولة البصرة بسهولة، وفي السنة التالية، استولى على بغداد، ثم أمر بقتل ابن عمه عز الدولة بعدما قبض عليه في إحدى المعارك^١.

تُمثِّل شخصية هذا القائد شخصيّة القادة الطموحين الأفذاذ، الذين لا يدعون أيّ مانع أو عائق أو حائل يعوق طموحاتهم. فبعد سيطرته على البلاد التي كان يسودها ابن عمه، وسّع عضد الدولة السلطنة التي ورثها عن أبيه وعميه، حتى أخضع المناطق الممتدة من الخزر إلى كرمان وغمان، ولقّب نفسه بشاهنشاه (ملك الملوك) لأول مرة في تاريخ الإسلام، وقد بقي هذا اللقب لمن جاء بعده من ملوك الفرس. وكان يعنى بمعرفة الأخبار وسرعة وصولها، فكانت تصل من بغداد إلى شیراز في سبعة أيام. وأحكم نظام الجاسوسية والمخابرات، حتى غدت أخبار الدنيا بين يديه، بفضل الجواسيس الذين دسّهم بين الملوك، فأصبح الناس في مصر يحترزون من ذكر اسمه. وقد طهر السبل من اللصوص، ومحا أثر قطاع الطرق، ومن أعماله أنّه دسّ على اللصوص في إحدى القوافل بغلة تحمل حلوى مسمومة فأكلوا منها وهلكوا، فأعاد النظام إلى صحراء جزيرة العرب، وصحراء كرمان بعد أن كانت قد أضحت مخيفة. فتحقّق الأمن، وأقام للحجّاج سبل المياه على الطريق، واحتفر لهم الآبار، واستفادوا الينابيع، وأدار السور على مدينة الرسول، وأمر بإعادة بناء دور بغداد وأسواقها، منشئاً ما يشبه مؤسسة للتسليف العقاري عن طريق بيت المال. ثم إنّه حضر كثيراً من أهل البادية، فزرعوا وعمّروا. وشيّد المستشفيات، وأمر بإدارة أرزاق الأوقاف واستثمارها بعد أن أصلح المساجد، وتجاوزت صدقاته أهل الإسلام إلى أهل الذمة. كان يتصدّق في كلّ جمعة بعشرة آلاف درهم على الضعفاء والأرامل، ويصرف في كلّ سنة ثلاثة آلاف دينار ثمن أحذية للحفاة من الحجّاج، وعشرين ألف درهم كلّ شهر لتكفين الموتى. واستحدث

١ - راجع ابن الأثير، الكامل، ج ٨ ص ٢٥٦ - ٢٥٨ و ٦١٩ و ٦٢٦ و ٦٤٩ - ٦٥٢ و ٦٦٩ - ٦٧٢ و ٦٨٩ - ٦٩٠

ثلاثة آلاف مسجد وخان للغرباء في مملكته، ولم يمر بماء جار إلا بنى عنده قرية. وكان يتفق على أهل مكة والمدينة وطرقهما ومصالحهما مئة ألف دينار كل سنة. وكان يبذل مالاً كثيراً على بناء المصانع، وتنقية الآبار. ويُعطي سكان المنازل التي في الطرقات ليقدموا العلف لدواب المسافرين. وكان، إضافة إلى كل ذلك، يشجع العلم والعلماء، ويجري الأرزاق على الفقهاء والمحدثين والمتكلمين والمفسرين والنخاة والشعراء، إضافة إلى الأطباء والحساب والمهندسين. وأفرد لأهل العلم والاختصاص والحكماء موضعاً بقرب مجلسه، وأنشأ مكتبة تحتوي على كل كتاب صُنّف إلى وقته من جميع أنواع العلوم^١.

وهو أول من أظهر قبر الإمام عليّ بن أبي طالب في النجف وبنى عليه. وقد أوصى بأن يُدفن في جوار عليّ في هذا المشهد الذي بناه. وبالفعل، فقد دُفن عضد الدولة حيث أراد، إذ مات سنة ٣٧٢ هـ / ٩٨٢ م^٢.

بعد أن أتم كل هذه الإنجازات بخلاف ست سنوات فقط، ذلك أنه تسلم منصب الحكم في ٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م. وقد كان عازماً على القيام بمشروعات كثيرة عاجلته المنية، بسبب مرض الصرع، ولم يتجاوز عمره السابعة والأربعين. وقد شبهه أهل زمانه من العلماء بالاسكندر^٣. ومما قيل فيه عند موته^٤ لقد شغرت الدنيا بوفاته.

بعد موت عضد الدولة، تفككت الدولة البويهية بسبب المنازعات التي نشأت بين أفراد الأسرة، وخاصة بين الأشقاء. وقد دامت الدولة، وحروبها

١ - مفتحة، دول الشيعة في التاريخ، ص ٤١ - ٤٥ نقلاً عن آدم منز، الحاضرة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، تعريب محمد عبد الهادي أبي ريدة.

٢ - ابن الأثير، الكامل، ج ٩ ص ١٩

٣ - الفناوي، الأدب في ظل بني بويه (٩٤٩ هـ) ص ١٢٧، السيد مير علي، مختصر تاريخ العرب، ص

٢٦٢، مفتحة، دول الشيعة في التاريخ، ص ٤٦ - ٥٦

الداخلية، حتى سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م. بعد تعاقب سبعة ملوك على المملكة الشاسعة التي تركها عضد الدولة، هم: سمصام الدولة وشرف الدولة (٣٧٢ هـ / ٩٨٢ م - ٣٧٩ هـ / ٩٨٩ م.) بهاء الدولة (٣٧٩ هـ / ٩٨٩ م - ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م.) سلطان الدولة (٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م - ٤١٦ هـ / ١٠٢٥ م.) جلال الدولة (٤١٦ هـ / ١٠٢٥ م - ٤٣٥ هـ / ١٠٤٣ م.) أبو كاليجار (٤٣٥ هـ / ١٠٤٣ م - ٤٤٦ هـ / ١٠٥٤ م.) الملك الرحيم (٤٤٦ هـ / ١٠٥٤ م - ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م.).

وكانت نهاية دولة البويهيين على يد طغرل بك السلجوقي الذي دخل مدينة بغداد سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م. واستولى عليها، وقبض على الملك الرحيم، وسجنه في إحدى القلاع، بعد أن دامت الدولة البويهية حوالي قرن وربع (٣٢١ هـ / ٩٣٢ م - ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م). وقد ناصر البويهيون مذهب التشيع إلى أقصى حد، وكان الغالب في بغداد، قبل أن تصبح عاصمة بويهية، المذهب السني، بينما غلب فيها بعدهم مذهب التشيع الذي شهد إذ ذاك انتشاراً ملحوظاً في العراق.

دولة الحمدانيين

نادراً ما اعتبر المؤرخون أن الدولة الحمدانية هي دولة شيعية بالمعنى الواضح للكلمة، وإن كان أكثر مؤرخي الشيعة قد ستفوها كذلك. ولكن الثابت هو أن هذه الدولة قد شهدت هجرة جلية لعلماء الشيعة إليها، وأشهرهم الشريف أبو إبراهيم جد بني زهرة، الذي انتقل إلى حلب في عهد سيف الدولة الحمداني (٢٠٢ - ٢٥٦ هـ / ٩١٥ - ٩٦٥ م.) فتحوّل بعض أهلها من السنة الحنفية إلى التشيع^١. وكان المؤذنون في مساجد المدن الواقعة تحت حكم الحمدانيين يؤذنون بحي على خير

١ - محمد كرد علي، خطط الشام، (دمشق ١٩٢٥) ص ٢٥٨

العمل. وفي سنة ٢٥٤ هـ / ٩٦٤ م. ضرب سيف الدولة دنانير جديدة كتب عليها: « لا إله إلا الله ومحمد رسول الله أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فاطمة الزهراء الحسن والحسين جبريل عليهم السلام »^١.

وقد اعتبر بعض المستشرقين، ومنهم بروكلمان Brockelmann الألماني في « تاريخ الشعوب الإسلامية » أن الحمدانيين إنما اتبعوا مذهب التشيع إرضاء للفاطميين^٢. ولكن من يتعمق في دراسة الحمدانيين يجد أنهم كانوا من الشيعة الاثني عشرية، وليس من الإسماعيلية التي كانت مذهب الفاطميين؛ وأوضح دليل على اثني عشرية الحمدانيين، هو ما جاء في شعر كبير شعرائهم أبي فراس الحمداني (٩٣٢ - ٩٦٨) ابن عم سيف الدولة الذي قلده إمارة منبج؛ فقد نظم هذا الشاعر الحمداني قصيدة ميمية طويلة جعل مقدمتها مشحونة بالعطف على أهل البيت، وهاجية للعباسيين لأنهم لم يراعوا حرمة آل علي، ثم مدح أئمة الاثني عشرية. وفي قصيدة ثانية، صرح بمذهبه الاثني عشري بوضوح، إذ عدّد فيها الأئمة الاثني عشر على أنهم أئمة مذهبه إذ قال:

لست أرجو النجاة من كل ما أخشاه إلا بأحمد وعلي
وبنت الرسول فاطمة الظهر وسيطيه والإمام علي
والتقي البقي باقر علم الله فينا محمد بن علي
وابنه جعفر وموسى ومولانا علي أكرم به من علي
وألبي جعفر سمي رسول الله ثم ابنه الزكي علي
وابنه العسكري والمظهر حفي محمد بن علي
فيهم أرجي بلوغ الأماني يوم عرشي على ملكي علي.

وفي أبيات أخرى، يتوسل الشاعر الشفاعة بمحمد وفاطمة والأئمة الإثني عشر:

١ - منية، دول الشيعة، ص ٩٢
٢ - بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة منير البعلبكي (بيروت ١٩٥٤) ص ٨٩

شافني أحمد النبي ومولاي علي والبنث والسيطان
وعلي وباهر العلم والصادق ثم الأمين ذو التيسان
وعلي ومحمد بن علي وعلي والعسكري الداني
والإمام المهدي في يوم لا ينفع إلا غفران ذي القتران^١.

أسس الدولة الحمدانية حمدان بن حمدون شيخ قبيلة تغلب من بطون
ربيعة بن نزار. وكان هؤلاء من نصارى العرب في الجاهلية.

كان حمدان أميراً على قلعة ماردين قرب الموصل من قبل العباسيين. وفي
عهد المعتضد (٢٧٩ - ٢٨٩ هـ / ٨٩٢ - ٩٠٢ م.) مال حمدان إلى الخوارج،
فسار إليه الخليفة العباسي وهدم قلعته بعد أن سارع حمدان بالانتقال إلى قلاع
أخرى بقرب الموصل، فقبه المعتضد حتى ظفر به بعد مطاردة طويلة^٢.

بعد موت المعتضد، ولي المكتفي سنة ٢٩٣ هـ / ٩٠٥ م. ابن حمدان: عبد
الله، الموصل، فتمكن من ضبطها بعد تغلبه على الأكراد^٣.

ونلتقي بآخر حمدان بعهد المقتدر، هو الحسين بن حمدان، وقد خرج
على طاعة الخليفة العباسي بالجزيرة. ونتيجة ملاحقة المقتدر له سنة ٣٠٣ هـ /
٩١٥ م. قبض على الحسين وإخوته وحبسوا، وقتل ابن الحسين في أمد إذ هرب مع
إخوته إلى هناك، وأرسل رأسه إلى الخليفة ببغداد، بينما بقي عبد الله متولياً
الموصل التي راح يحكمها من بغداد، وينوب عنه بالموصل ولده ناصر الدولة^٤،
وذلك في أحداث سنة ٣١٤ هـ / ٩٢٦ م. إذ يظهر اسم ناصر الدولة لأول مرة في
المدونات.

-
- ١ - مصطفى الشكعة، فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين، مخبة، ص ٩٥ - ١٠٠
 - ٢ - ابن الأثير، الكامل، ج ٧ ص ٤٦٦ و ٤٦٩، المسعودي، مروج الذهب، ج ٤ ص ٢٤٦
 - ٣ - ابن الأثير، الكامل، ج ٧ ص ٥٢٨ - ٥٤٠
 - ٤ - المرجع السابق، ج ٨ ص ٩٢ - ٩٤ و ١٦٢

بعد أربع سنوات من ذلك التاريخ (٢١٨ هـ / ٩٣٠ م) وكان لا يزال العهد للخليفة العباسي الثامن عشر: المقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ / ٩٠٨ - ٩٣٢ م). غزل ناصر الدولة الحسن بن عبد الله بن حمدان عن الموصل وولّيتها عمّاه: سعيد ونصر ابنا حمدان، بينما وُلّي ناصر الدولة ديار ربيعة، ونصيبين، وسنجار، والحابور، ورأس عين، ومعها من ديار بكر ميفارقين، وأرزن، وذلك لقاء مبلغ مقطوع من المال^١. غير أن ناصر الدولة عاد واستولى على الموصل بعد أن قتل رجاله، بأمر منه، أحد عمّيه الواليتين عليها. حدث ذلك سنة ٣٢٣ هـ / ٩٣٤ م. بعهد الخليفة العباسي الرازي^٢.

أحكم ناصر الدولة قبضته على الموصل بعد عدة وقعات بينه وبين القادة الأتراك في الخلافة العباسية، حتى تمكن منهم، سنة ٣٣٠ هـ / ٩٤١ م. في عهد الخليفة العباسي الحادي والعشرين: المتقي (٣٢٩ - ٣٣٣ هـ / ٩٤٠ - ٩٤٤ م). الذي اعتمد لقب ناصر الدولة للحسن بن عبد الله الحمداني، ولقب أخاه أبا الحسن علياً بسيف الدولة. حتى إن المتقي جعل ناصر الدولة «أميراً للأمرأ»^٣. وبدأ أن ذلك قد كان إيذاناً بقرب سطوع نجم الحمدانيين، إذ منذ ذلك التاريخ، أصبح ناصر الدولة وأخوه سيف الدولة وبعض أقربائهما، يشكلون القوة العملية في قصر الخليفة ومملكه، خاصة في حروب المتقي مع البريديين. إلا أن القائد التركي المملوكي توزون، استطاع أن ينتزع بغداد من الحمدانيين، وأن يطيح بالخليفة سنة ٣٣١ هـ / ٩٤٢ م. بينما بقيت المناطق الأخرى خاضعة للحمدانيين^٤. وقد لجأ إليها الخليفة قبل أن يعود إلى بغداد ليطيحه توزون. وقد بقيت الموصل بأيدي الحمدانيين حتى سنة ٣٦٧ هـ / ٩٨٧ م. إذ انتزعها منهم البويهيون على يد عضد الدولة.

١ - المرجع السابق، ج ٨ ص ٢١٦

٢ - المرجع السابق، ص ٢٠٩ - ٣١٠، المسعودي، مروج الذهب، ج ٤ ص ٢٤٠

٣ - ابن الأثير، الكامل، ج ٨ ص ٢٥٣ - ٢٥٤ و ٢٨٢ - ٢٨٣

٤ - المرجع السابق، ص ٢٨٤ و ٢٩٤ و ٢٩٦ - ٢٩٩

بينما كان أبناء ناصر الدولة، الذي توفي سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٨ م. يتنازعون الموصل، كان شقيق ناصر الدولة، سيف الدولة، يحلم بما هو أهم من ولاية أو إمارة، فاتجه بطموحه نحو حلب، التي كانت تترجّح بين حكم الخليفة العباسي في بغداد، والأخشيديين في مصر ودمشق، وهي على حدود الأعداء الأساسيين، البيزنطيين. فراح يتحين الفرصة.

ويبدو أن هذه الفرصة قد حانت في أواخر سنة ٣٣٣ هـ / ٩٤٤ م. إذ سار سيف الدولة بجيشه إلى حلب، وانتزعها من يد والي الأخشيديين بدون مقاومة تذكر. ومن حلب، سار سيف الدولة إلى حمص التي استولى عليها هي الأخرى بعد قتال قصير، ولكنه عجز في هذه الحقة عن الاستيلاء على دمشق التي امتنعت عليه رغم حصارها لبعض الوقت. وتمكّن سيف الدولة من الإبقاء على سيطرته على حلب وحمص رغم قتاله الطامحين بهما على ثلاث جبهات، العباسيين، والأخشيديين والبيزنطيين^١. ثم بعد وقت قصير، عُقد صلح بين سيف الدولة والأخشيديين، نصّ على أن تكون حلب وحمص وإنطاكية للحمدانيين، ودمشق للأخشيديين. وإذا كان الأخشيديون من أهل السنة، كثروا التسنن في دمشق، بينما كثر التشيع في شمال الشام بمعهدهم^٢. وقد تمكّن هذا المحارب الفذ من القضاء على فتن داخلية كثيرة نشبت بحلب خلال حكمه، فكان يردّ تلك الفتن بيد، ويفزو بلاد الروم ويردّ الهجمات الخارجية للطامعين باليد الثانية، وقد استمرّ هذا الوضع على حاله حتى وفاته سنة ٣٥٦ هـ / ٩٦٥ م. بمرض الفالج، فملك بلاده بعده ابنه أبو المعالي الشريف الملقب بسعد الدولة، بعد حروب ومنازعات مع خاله أبي فراس، ثم مع حاجبه قرغويه. واستقرّت له الأمور في عهد الخليفة العباسي، الطائع (٣٦٣ - ٣٨١ هـ / ٩٧٤ - ٩٩١ م.) وقد أكمل سعد الدولة نهج أبيه، وصمد في وجه الروم وهزمهم، حتى توفي بالفالج كأبيه سنة ٣٨١ هـ / ٩٩١ م. وهو على أرض المعركة

١ - المرجع السابق، ص ٤٤٥ - ٤٤٦

٢ - كرد علي، خطط الشام، ج ١ ص ٢١٨

بخلال تمرد أحد قواده الذي انحاز إلى الفاطميين^١، إلا أنه كان قد خسر حكم إنطاكية أمام الروم.

خلف سعد الدولة ابنه أبو الفضائل الملقب بسعيد الدولة، فاضطر إلى محاولة الاستعانة بالروم ضد الفاطميين الذين حاولوا الاستيلاء على ملكه كما فعلوا بعهد أبيه، ولكن النجدة البيزنطية لم تصل إليه بسبب قطع الطريق عليها من قبل الفاطميين^٢. وهكذا سقطت المملكة الحمدانية التي كانت تضم حلب وحمص، بيد الفاطميين سنة ٣٨١ هـ / ٩٩١ م.

لا شك في أن أبرز وجوه الدولة الحمدانية إنما هو سيف الدولة، الذي حقق انتصارات عسكرية باهرة، وقد ازدهرت في عهده الآداب والعلوم، فنبغ في بلاطه المتنبي وأبو فراس الحمداني^٣، وأبو نصر الفارابي الفيلسوف، وإليه قدم أبو الفرج الأصفهاني كتاب الأثاني.

أما إخوة سيف الدولة، فكانوا قد فقدوا سلطتهم على الموصل إثر منازعات دامية فيما بينهم، مما أدى إلى إضعافهم وانهايار حكمهم في حوالى سنة ٣٥٧ هـ / ٩٦٧ م.

وبزوال الدولة الحمدانية، بدأت الإثنا عشرية بالضعف في بلاد الشام، وفتح الباب واسعاً أمام الإسماعيلية التي بلغت أوج انتشارها في عهد الخلافة الفاطمية.

١ - المرجع السابق، ج ٩ ص ٨٥ - ٩٠

٢ - المرجع السابق، ص ٩٠

٣ - قتل أبو الفراس على يد أبي المعالي، ابن سيف الدولة. وهو ابن أخت أبو القراس، بسبب «وحشة وقعت بينهما» ابن الأثير، الكامل، ج ٨ ص ٥٨٨

الفصل العاشر

القرامطة

- ظهور القرامطة
- الثورة القرمطية
- أبو طاهر الجنابي
- النهاية القرمطية
- القرمطية: اشتراكية شيوعية مبكرة

قد يكون البحث في حقيقة القرامطة من أكثر الأبحاث تعقيداً في مجال المجتمعات الإسلامية وفرقها. وما زاد في تعقيدات البحث، سيل الآراء المتناقضة حول أصل القرامطة ومعتقدهم وارتباطهم بالإسماعيلية. إنما الثابت هو أن القرامطة هم من الشيعة المتطرفة، تصلهم صلة النسب بالإسماعيلية والفاطميين. أما نسبهم، القرامطة، فيعود إلى فلاح عراقي اسمه حمدان قرمط^١.

ويُجمع المؤرخون على أن دخول حمدان قرمط في الدعوة جاء على يد داعية شيعي اسمه حسين الأهوازي، توجه إلى سلمية بعد أن سكن المكان المعروف بعسكر مكرم، ثم تحول إلى البصرة. ومن سلمية، التي كانت مركز أئمة السبعية، توجه الأهوازي إلى العراق داعية، فصادف بطريقه في سواد الكوفة حمدان بن الأشعث، فسأله عن الطريق إلى قرية يُقال لها «قس بهرام» فتبين له أن حمدان أيضاً يقصد هذه القرية، فترافق الرجلان، وإذ عرض حمدان على الأهوازي أن يركب ثوره، أبى، قائلاً أنه لم يؤمر بذلك، مما أدهش حمدان الذي تساءل عن أمره وينهاه؟ فأجابه الأهوازي: «مالكي ومالكك ومن له الدنيا والآخرة»، وبعد تفكير، نظر حمدان إلى الأهوازي وتساءل: «ما هذا؟ ما يملك ما ذكرته إلا اللعاب» - قال: «صدقت. والله يهب ملكه لمن يشاء!» - قال حمدان: «فما تريد في القرية التي سألتني عنها؟» - قال: «دفع إليّ جراب فيه علم وسر من أسرار الله، وأمرت أن أشفي هذه القرية وأغني أهلها وأستنقذهم وأملكهم أملاك أصحابهم».

وبعد أخذ ورد، طلب حمدان من الأهوازي أن «يدفع إليه من هذا العلم وينقذه» - فأجابه: «لا يجوز ذلك أو أخذ عليك عهداً وميثاقاً أخذه الله على النبيين والمرسلين وألقي إليك ما ينفعك».

١ - Bernard Lewis, the origins of Ismailism (Cambridge, 1940) pp. 19 - 22

٢ - السلمية: مدينة سورية تقع شرقي نهر العاصي، وهي اليوم مركز قضاء ينسب إليها. كانت قاعدة الأئمة الشيعية (الإسماعيلية) المستورين قبل ظهورهم.

واستمرَّ الحوار حتَّى أخذ الحسين الأهوازيَّ العهد على حمدان الذي دعاه إلى منزله قائلاً: «إنَّ لي إخواناً أصير بهم إليك لنأخذ عليهم العهد للمهدي». فصار معه إلى منزله، وجمع عليه حمدان الناس، فأخذ عليهم العهد، واغتنب حمدان لكثرة ما شاهده من خشوعه وصيام نهاره، وقيام ليله... واغتنب به كافة القوم، وترسخ احترامه بينهم واشتدَّت ثقتهم به. ولمَّا مات الأهوازيَّ، خلفه في الدَّعوة حمدان بن الأشعث. وكان ذلك سنة ٢٦٤ هـ / ٨٧٧ م^١.

أمَّا الأهوازيَّ هذا، فهو داعية أرسله إلى العراق أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح. وكان عبد الله عالماً بجميع الشرائع والسنن والمذاهب واشتهر بالعلم والتشيع، فكان يدعو للإمام من آل البيت محمد إسماعيل بن جعفر الصادق، وكوَّن له الدعاة، ولمَّا مات خلفه ابنه أحمد^٢.

أمَّا حمدان، فكان راعي بقر، وكان ذكياً رغم جهله^٣. وبينما ذكر بعضهم أنَّ لقب قرمط قد أُطلق على حمدان بن الأشعث لأنَّه كان يقرمط بمشيئه^٤، ذكر آخرون أنَّ أصل لقب قرمط هو «كرميتة» الذي يعني باللفة النبطية «أحمر العين»، وقد لُقِّب حمدان «بكرميتة» لحمره في عينيه، ثم خُفِّف قليل، قرمط^٥.

ويختلف بعض الروايات في موضوع اللقاء بين الأهوازيَّ وحمدان، وإن كان الجوهر واحداً^٦. إلَّا أنَّ الاختلاف في الجوهر، يرد في موضوع الدعوة بالذات. وأساس الاختلاف هو في ما إذا كانت الدعوة أصلاً، حنفيَّة أم إسماعيليَّة.

١ - المقرئزي، إيماناً الحنفا بأخبار الأئمة القاطنين الخلفاء، (القاهرة ١٩٤٨) ص ٢٠٤ وما بعدها، راجع

سامي عيَّاش، الإسماعيليون في المرحلة القرمطيَّة، ص ٦٧ - ٦٨

٢ - المقرئزي، الخطط المقرئزيَّة، (القاهرة ١٢٢٦ هـ) م ٢ ص ١٥٠ وما بعدها.

٣ - عبد القاهر البغدادي، أصول الدين، (استانبول ١٩٢٨) ص ٢٢٩.

٤ - المرجع السابق.

٥ - ابن الأثير، الكامل، ج ٧ ص ٤٤٥ - ٤٤٦

٦ - قابل، ابن الأثير، الكامل، ج ٧ ص ٤٤٤ وما بعدها.

فلقد أجمع عدد كبير من المؤرخين على أن القرامطة قد جاؤوا بكتاب فيه :

«بسم الله الرحمن الرحيم ! يقول الفرج بن عثمان ، وهو من قرية يقال لها نصرانة ، إنه داعية المسيح ، وهو عيسى ، وهو الكلمة ، وهو المهديّ ، وهو أحمد بن محمد بن الحنفية ، وهو جبريل » ويذكر أن المسيح تصوّر له في جسم إنسان وقال له : « إنك الداعية ، وإنك الحجة ، وإنك الناقية ، وإنك الدابة ، وإنك يحيى بن زكريا ، وإنك روح القدس ... » وعزّله « أن الصلاة أربع ركعات ، ركعتان قبل طلوع الشمس ، وركعتان بعد غروبها ، وأن الأذان في كل صلاة أن يقول المؤذن : - الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن آدم رسول الله ، أشهد أن نوحاً رسول الله ، أشهد أن إبراهيم رسول الله ، أشهد أن موسى رسول الله ، أشهد أن عيسى رسول الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، أشهد أن محمد بن الحنفية رسول الله ... » وأن يقرأ في كل ركعة الاستفتاح ، وهي : - من المنزّل على أحمد بن محمد بن الحنفية ! ...

غير أن مؤرخين وبخاتين آخرين ، أكدوا على أن القرامطة هم إسماعيلية من خلال تأكيدهم على أن « القرامطة والإسماعيلية والسبعية ... هي ألقاب لدعوة واحدة ... لها ألقاب متعدّدة على اختلاف الأعصار والأزمنة ولكن لقب سبب » ... وقد ذهب بعضهم إلى أن « الإسماعيلية تسمّوا بالقرامطة في مرحلة معيّنة ، من مراحل نشر الدعوة وانطلاقاً من حادثة معيّنة وذلك عندما أوصى أحد دعاة « شطنبيل » أهل الأحساء قائلاً : - إذا دخلتم هجر فعبسوا وجوهكم وقرمطوا أنوفكم على أهلها » - ...

على أيّ حال ، فإن الدعوة القرمطية كانت دعوة باطنية ، وقد طبعت مرحلة الاضطراب التي تميّز بها الإسلام فيما بين نهاية القرن التاسع وبداية القرن العاشر

١ - ابن الأثير ، الكامل ، ج ٧ ص ٤٤٧ - ٤٤٨ ، قابل ، ابن خلدون ، م ٢ ص ٢٢٥ - ٢٢٦ ، المقريزي ، إتحاف الخفايا ، ص ٢٠٦ - ٢٠٧

٢ - أبو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية ، تحقيق وتقديم عبد الرحمن بدوي ، (الناصرة ١٩٦٤) ص ١١
٣ - سامي العياشي ، ص ٨١ بالاستناد إلى : حمزة بن علي ، في السيرة المستقيمة ورسائل درزية أخرى (مخطوطة لدى العياشي) .

الميلادي. وقد كان للقرامطة نظام جمعية سرية ذو مبدإ اشتراكي، ولم يكن الانضمام إلى جماعتهم جائزاً إلا بشروط معينة، وبعد إجراء مراسيم خاصة.

هذه الطائفة التي بدأت تظهر عملياً بقيادة حمدان قرمط، سوف تنشئ دولة مستقلة على الضفة الغربية من الخليج الفارسي، لتنتشر الدمار حوليها، ولتزعج فيما بعد على بلاد الشام ناشرة الويل والحراب... شهوة السلطة والانتقام.

يبدو للمدقق في ظاهرة القرامطة أن منطلقاتها كانت اجتماعية ثورية أكثر منها دينية، لا بل إن تلك المنطلقات كانت متسيرة بالدين لأهداف اقتصادية ومعيشية. وقد اعتبر الغزالي أن الحركات الباطنية، «لم يفتحها منتسب إلى ملة ولا معتقد... ولكن تشاور جماعة من المجوس والمزديكية^١، وشردمة من الملحدين، وطائفة كبيرة من ملحدة الفلاسفة المتقدمين». يهدف القضاء على الإسلام، ولم يروا سبيلاً إلى ذلك إلا باتحال عقيدة طائفة من فرقهم... وراحوا يعتزّون بأهل البيت ويتوّدون إليهم بما يلائم طباعهم «من ذكر ما حم على سلفهم من الظلم العظيم والذل الهائل... حتى يسهل استدراجهم إلى الانخلاع عن الدين... وإن بقي عندهم معتصم من ظواهر القرآن ومتواتر الأخبار أوهمومهم أن تلك الظواهر لها أسرار وبواطن...» واعتبروا «أن أمانة الأحقق الانخداع بظواهرها، وعلامة الفطنة اعتقاد بواطنها»، وقالوا: «ثم نُبث إليهم عقائدنا، ونزعم أنها المراد بظواهر القرآن. ثم إذا تكثرتنا بهؤلاء سهل علينا استدراج سائر الفرق بعد التحيز إلى هؤلاء والتظاهر بنصرهم». ثم قالوا: «طريقنا أن نختر رجلاً ممن يساعدنا على المذهب، ونزعم أنه من أهل البيت، وأنه يجب على كافة الخلق مبايعته، وتعتين عليهم طاعته فإنه خليفة رسول الله، ومعصوم عن الخطأ والزلل من الله تعالى^٢...»

١ - المزدكية، نسبة إلى مزدك، داع إيراني، إتبع في تعليمه ماني وأبند النزعة الفنوسية. أراد اشتراكية الأموال والنساء. أبند مذهبه الملك قباد الأول (٤٨٨) حتى خلع فأعاد كسرى أبو شروان الزرادشتية.

٢ - الغزالي، فتناع الباطنية، ص ١٨-١٩

عند بدء تروؤس حمدان قرمط أتباعه، كانت حركة الزنج المنطلقة من المبادئ الثورية الاجتماعية لا تزال نشطة، وكان صاحب الزنج لا يزال حياً، فسار إليه حمدان وأبلغه أن لديه من الأتباع «مائة ألف ضارب سيف» ودعا إلى الانضمام إليه، إلا أن المناظرة التي حصلت بين الرجلين لم تؤد إلى اتفاق^١.

من شأن هذه المحاولة القرمطية أن تشير بوضوح إلى المنطلقات الثورية الاجتماعية للقرامطة. ذلك أن حركة الزنج لم تكن سوى حركة ثورية اجتماعية تحت غطاء ديني، إتخذ لها قائدها الذي ادعى أنه المهدي، وأنه من سلالة علي بن أبي طالب من أحفاد الحسين، بينما الواقع أنه من فخذ عبد القيس من بني أسد^٢.

لم يكن مرّ أربعة عشر عاماً على دخول حمدان قرمط الدعوة التي صارت تنتسب إليه، حتى ظهر أول تحرك ثوري قرمطي فقال بسواد الكوفة، وذلك في أواخر عهد الخليفة العباسي الخامس عشر: المعتمد (٢٥٦ - ٢٧٩ هـ / ٨٧٠ - ٨٩٢ م). بعد أن كان قد انضم إلى حمدان معظم أهل الكوفة ومعظم القبائل العربية في هذه المنطقة، حتى لم يتخلف عنه رفاعي ولا ضُبَيْعي... ولم يبق من بطون العرب المتصلة بواسط بطن إلا استجاب له^٣. وبرز بين أنصار القرمطية جماعة من الدعاة النشيطين الذين راحوا يستقطبون الناس، أبرزهم زكرويه بن نهرويه وأبناؤه، وقد لُقّب زكرويه بالسيد^٤.

في هذه الأثناء، بثّ القرامطة الدعاة إلى الأقطار، ومنهم يحيى بن المهدي الذي قصد القطيف ونزل عند علي بن المعلّ، وهو من المغالين في التشيع. وعندما قرأ عليّ على أهل القطيف الكتاب المرسل من المهدي، استجابوا له كما استجاب

١ - ابن الأثير، الكامل، ج ٧ ص ٤٤٩

٢ - الطبري، م ٦ ج ١١ ص ١٨٢

٣ - المقرئ، المقفى، ص ٩٨

٤ - الطبري، م ٦ ج ١١ ص ٢٨٠ - ٢٨١

سائر قرى البحرين. وكان أحد المستجيبين، أبو سعيد الجنابي. وبعد أن غاب يحيى عن البحرين لبعض الوقت، عاد إليها ومعه كتاب ثانٍ من المهدي، فيه أن «إدفعوا ليحى خمس أموالكم» فانصاع أهل البحرين لأمر المهدي، الذي راحوا ينتظرون ظهوره بفارغ الصبر، وعظم أمر أبي سعيد بعد أن اجتمع حوله العديد من القبائل^١. وفي ٢٨٦ هـ / ٨٩٨ م. ثار القرامطة في البحرين بقيادة أبي سعيد الجنابي الذي اجتمع إليه القرامطة والأعراب، فقتلوا الناس في القطيف، وأظهروا من البدع ما دفع والي البحرين إلى اعتقال يحيى بن المهدي وضربه وحلق رأسه ولحيته، فهرب أبو سعيد الجنابي إلى خارج البحرين، وسار يحيى إلى بني كلاب وغنيل والخريس، فاجتمعوا معه ومع أبي سعيد حتى قويت شوكة القرامطة في البحرين^٢. وما أن حلت السنة التالية (٢٨٧ هـ / ٨٩٩ م.) حتى أغاروا على نواحي هجر، وهددوا البصرة، مما جعل الخليفة العباسي السادس عشر، المعتضد (٢٧٩ - ٢٨٩ هـ / ٨٩٢ - ٩٠٢ م.) يرسل والياً قوياً إلى البحرين هو العباس بن عمرو الغنوي، مزوداً بألفي رجل، إضافة إلى عدد كبير من المتطوعين والخدم، بهدف القضاء على القرامطة. وقد أبدى أهل البصرة حماساً في التطوع لقتال القرامطة، بهدف رد خطرهم عن مدينتهم. بيد أن القرامطة بقيادة الجنابي أبادوا هؤلاء المهاجمين عند أول واقعة، وأسروا والي العباسي، ومن لجأ من متطوعي البصرة عاد إلى أرضه بلا زاد. وإذ حاول قرابة أربعماية من أهل البصرة ملاقة المهزومين بالزاد والزواجل، هاجمهم بنو أسد، وسلبوا رواحلهم والزاد، وقتلوا من سلك من المعركة.

هذه الأحداث، أرعبت أهل البصرة الذين عزموا على الانتقال منها، لكنّ واليها منعهم من ذلك.

١ - راجع: سامي النجاشي، ص ٧٥ مستنداً إلى ابن سنان، ابن خلدون، م ٢ ص ٢٥٠

٢ - ابن الأثير، الكامل، ج ٧ ص ٤٩٢ - ٤٩٥

وبعد أيام، أطلق القائد القرمطيّ الوالي العبّاسيّ الأسير، وأرسله إلى الخليفة «ليعرفه ما رأي».

لم يفسّ سنتان على سيطرة القرامطة على البحرين، حتّى بدأ ظهورهم في بلاد الشام ابتداءً من سنة ٢٨٩ هـ / ٩٠١ م.

وكان الداعية القرمطيّ هناك، ابن زكرويه بن مهرويه، يحيى، الذي كتّى نفسه بأبي القاسم، ولقبوه بالشيخ. وقد زعم الشيخ بأنّه محمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب. كما زعم أنّ له في البلاد مائة ألف تابع، وأنّ ناقته التي يركبها مأمورة، فإذا تتبّعوها في مسيرها نُصروا. وهكذا تمكّن من تجميع الأتباع حوله، حتّى إذا ما أرسل الخليفة حملة لاعتقاله، تمكّن من القضاء عليها ومن قتل قائدها. وراح ابن زكرويه وأتباعه يعيشون بالأرض تدميراً، فأحرقوا مسجد الرصافة، ونهبوا كل قرية مروا بها، حتّى بلغوا أرض الطولونيين، وكانت إذ ذاك ولاية هارون (٨٩٦ - ٩٠٤ م).^٢

أمّا في الكوفة، فقد اجتهد الخليفة العبّاسيّ في ملاحقة القرامطة. وقد يكون في الكلام الذي تجرّأ أحد قادتهم، أبو الفوارس، على أن يوجّهه إلى الخليفة المعتضد عندما أحضر إليه بعد اعتقاله، أوضح تعبير عن موقف القرامطة من مسألة الخلافة. فلقد واجه هذا القرمطيّ المتشيع الخليفة العبّاسيّ في عقر قصره بقوله: «إنّ رسول الله صلعم مات وأبوكم العبّاس حيّ، فهل طالب بالخلافة أم هل بايعه أحد من الصحابة على ذلك؟ ثمّ مات أبو بكر فاستُخلف عمر، وهو يرى موضع العبّاس، ولم يوص إليه، ثمّ مات عمر وجعلها شورى في سِتّة أنفس، ولم يوص إليه، ولا أدخله فيهم، فيماذا تستحقّون أتمّ الخلافة؟ وقد اتفق الصحابة على دفع جذك عنها؟». أمام هذا الكلام العميق الجري، لم يكن بوسع الخليفة سوى أن يأمر بتعذيب القرمطيّ وقتله وتخليع عظامه. وهذا ما جرى له بعد تقطيع يديه

١ - ابن الأثير، الكامل، ج ٧ ص ٤٩٩ - ٥٠٠.

٢ - الطبري، م ١١ ج ٦ ص ٢٨٠ - ٢٩٧، ابن الأثير، الكامل، ج ٧ ص ٥١١ - ٥١٢.

ورجله^١. بيد أن الخليفة المعتضد قد مات هو الآخر بعد أيام، ليخلفه المكتفي (٢٨٩ - ٢٩٥ هـ / ٩٠٢ - ٩٠٨ م.) وهو الخليفة العباسي السابع عشر.

في هذه الأثناء، سجّل القرامطة في بلاد الشام انتصاراً واضحاً على الطولونيين؛ ومع إطلالة سنة ٢٩٠ هـ / ٩٠١ م.، كانوا قد حاصروا دمشق، وضيقوا على أهلها، فأرسل الخليفة العباسي الجديد نجدة إلى دمشق، وكذلك فعل المصريون، مما أضعف القرامطة الذين قُتل مقدمهم: الشيخ يحيى بن زكرويه، على باب المدينة. فسارع أتباعه إلى الالتفاف حول شقيقه الحسين الذي سمى نفسه أحمد، وتكنّى بأبي العباس.

فكّ أبو العباس القرمطي الحصار عن دمشق بعد أن فرض الخراج على أهلها. ثم سار إلى حمص، فاستولى عليها بسهولة، وخطب له على منابرها، وتسمّى المهديّ أمير المؤمنين. وبعد حمص، سار إلى حماة، ومعرّة النعمان، وغيرها، فقتل أهلها بمن فيهم النساء والأطفال. ثم سار إلى بعلبك وأباد أهلها في إحدى أبشع المجازر. ثم سار إلى سلمية، وبعد أن صالحه أهلها وأخذوا منه الأمان، فتحوا له أبوابها، فغدر بهم، وبدأ بإبادة من فيها من بني هاشم، وانتقل إلى إبادة كل حي. بما في ذلك البهاشم، ولم يترك فيها عيناً تطرف. مع العلم أنّ سلمية كانت ملجأ الأئمة الشيعة المستورين، ومنها خرجت الدعوة القرمطية.

بعد سلمية، سار القرامطة بقيادة ابن زكرويه الذي تكنّى بأبي العباس، يمشطون القرى المحيطة، سبياً ونهباً. وقد أصبح اسم أبي الشامة، الذي أضيف إلى القاب ابن زكرويه إذ رسم شامة على وجهه وتكنّى بها، مرادفاً للموت والرعب والدمار.

تجاه هذا الواقع، جرّد الخليفة العباسي جيشاً جرّاراً إلى نواحي حماة، للقضاء على أبي الشامة وجماعته. وقد تمكّن جيش الخليفة من إنزال الهزيمة في القرامطة

١ - ابن الأثير، الكامل، ج ٧ ص ٥١٢ - ٥١٣

الذين تفرقوا بعدئذ في البوادي. ولم ينجح أبو الشامة في محاولة فراره. فقبض عليه ونقل إلى الخليفة المكتفي في بغداد، هو وأصحابه الكبار، فأمر المكتفي بقطع أرجلهم وأيديهم وضرب أعناقهم بعد ذلك^١.

هذه الهزيمة لم تمنع زكرويه، والد أبي الشامة، وأخاه الشيخ، اللذين أصبحا في عداد الأموات، من إكمال نشاطه. فأرسل جماعة إلى إذرعات^٢ وبصرى^٣ وبثنية^٤، فحاربوا أهلها حتى أمتوهم، فلما استسلم أهل هذه البلدات للقرامطة، أقدم هؤلاء، كالعادة، على قتلهم وسبي ذراريهم ونهب أموالهم. ثم هاجموا دمشق التي قاومهم أهلها بقوة بعد أن قضى القرامطة على العسكر النظامي، فتحولوا إلى طبرية التي لم يكن حالها أفضل من أية بلدة عاث بها القرامطة قتلاً وسبياً ونهباً.

في هذه الأثناء، تحرك زكرويه في العراق، وتمكن من جمع المريدين حوله، فاعترفوا له بالرياسة، ودعوه بالسيد، وصاروا يسجدون له ويتباركون منه. ولما حاول الخليفة القضاء على زكرويه وأتباعه، كلفه ذلك حوالي ١٥٠٠ قتيل بخلاف معركة دارت بسقي الفرات، مما زاد في قوة القرامطة وسطوتهم^٥.

في الوقت نفسه، بدأ ظهور القرامطة في اليمن، وبدأوا يثيرون الاضطرابات هناك.

مع إطلالة السنة التالية (٢٩٤ هـ / ٩٠٦ م.) سار زكرويه مع أتباعه يريد الحج. وبطريقه إلى مكة، لم يدع بلدة إلا وقتل أهلها وسبى نساءها ونهب أموالها، كذلك فعل بكل من التقاه وجماعته عائدأ من الحج. ولم يكتف القرامطة بهذا القدر من الإجرام، بل أقدموا على طمر الأبار الواقعة على طريق مكة بالجيف والتراب والحجارة.

١ - ابن الأثير، الكامل، ج ٧ ص ٥٢٢ - ٥٢٦ و ٥٢٠ - ٥٢٢

٢ - إذرعات، هي مدينة درعا السورية اليوم، قاعدة محافظة حوران.

٣ - بصرى، هي بصرى إسكي شام، مدينة سورية في محافظة حوران حالياً.

٤ - بثنية، إسم أطلقه العرب على البلاد الخصب المجاورة لحوران والجولان ما وراء الأردن. كانت قاعدتها إذرعات (درعا).

٥ - راجع ابن الأثير، الكامل، ج ٧ ص ٥٤١ - ٥٤٧، السيوطي، ص ٢٧٦.

كان لهذه الأعمال البالغة الخطورة أثر فظيع في نفوس القادة المسلمين والمجتمعات الإسلامية، فقد بلغ عدد القتلى من الحجاج ما يزيد على العشرين ألفاً، وباتت طريق مكة غير آمنة على الإطلاق. أمام هذا الواقع المخيف الذي لا يُحتمل جهّز الخليفة المكتفي جيوشاً للقضاء على زكرويه وأتباعه. وبالفعل، فقد تمكن جيش الخليفة هذه المرة من إنزال الهزيمة بالقرامطة، فقتل زكرويه، وأسر أكثر خاصّته وأقربائه، وتتبع الجيش القرامطة في بلاد الشام والعراق فقتل بعضهم وسجن بعضهم الآخر سجناً مؤبداً. ويذكر بعض المؤرخين أن مجموع ما أزهق من أرواح حتى هذا التاريخ بسبب القرامطة، يبلغ الستة ألاف نسمة^١.

أما في البحرين، فقد تمكن القائد القرمطي، أبو سعيد الجنابي، من الاستيلاء على حجر والأحساء والقطيف والطائف وسائر بلاد البحرين. غير أنه في سنة ٣٠١ هـ / ٩١٢ م. أقدم خادم أبي سعيد، وهو صقلي، على قتل سيّده في الحما، إضافة إلى أربعة من رؤساء القرامطة. وقد اعتبر بعض المؤرخين أن الخادم الصقلي قد أقدم على قتل القادة القرامطة بتحريض من الداعية الفاطمية، عبيد الله^٢.

أبو طاهر الجنابي

كان أبو سعيد قد عهد قبل موته إلى ابنه البكر: سعيد، لكن سعيداً كان أضعف من أن يتمكن من السيطرة على الوضع بوجه طموح أخيه الأصغر، أبي طاهر، الذي استجاب لطلب الخليفة العباسي بالإفراج عن الأسرى العباسيين^٣.

لم يكن أبو طاهر الجنابي، رغم تجاوبه مع طلب الخليفة، أقل غنفاً وثورة من

١ - ابن الأثير، الكامل، ج ٧ ص ٥٤٨ - ٥٥١، المسعودي، مروج الذهب، ج ٤ ص ٢٨٠، السيوطي، ص

٢٧٦ - ٢٧٧، المقرئ، المقفي، ص ١٠٦

٢ - راجع، سامي العياش، ص ٧٦ بالإستناد إلى: دائرة المعارف الإسلامية - مادة وجنابي، ابن الأثير الكامل، ج ٨ ص ٨٢ - ٨٤.

٣ - ابن سنان، مقالات في أخبار القرامطة، تحقيق سهيل زكار (بيروت ١٩٧١) ص ٣٦ - ٣٧ بالإستناد إلى سامي العياش، ص ٢٢٢

أبيه وسائر كبار القادة القرامطة، فهو لم يوقر التعرض لقوافل الحجاج، مثلما فعل زكرويه، لا بل تجاوز أبو طاهر في عنفه وتطرفه سائر أولئك القادة، إذ بلغ به الأمر أن أغار على مكة نفسها محتجزاً الحجر الأسود عدة سنوات. وفي سنة ٣١٢ هـ / ٩٢٤ م. راح أبو طاهر وأتباعه يتعرضون لقوافل الحجاج على طريق مكة، وعندما فرّ الحجاج إلى الكوفة تاركين جمالهم في السنة التالية، تبعهم الجنابي وجماعته، ولما حاول جند الخليفة إيقافهم، هزمهم القرامطة رغم أن عديد الفرقة العباسية كان بحدود السبعة آلاف جندي، حتى إن القرامطة تمكنوا من أسر أحد كبار قادة الجيش، الذي لجأ من نجاة من أفرادهِ إلى الفرار. ودخل القرامطة إذًا الكوفة واستولوا على ما فيها من خيرات. وأقام أبو طاهر فيها سنة أيام. وقد امتنع بعد خروجه منها أهل العراق عن الحج تلك السنة خوفاً من القرامطة^١. وفي سنة ٣١١ هـ / ٩٢٣ م. كان القرامطة قد أقدموا على مهاجمة البصرة بالطريقة نفسها، وقد فعلوا فيها ما فعلوه بالكوفة^٢. وبعد أربع سنوات (٣١٥ هـ - ٩٢٧ م.) ألقى القرامطة الرعب مرة جديدة بقلوب العراقيين، إذ هاجموا بعض المدن العراقية بحوالي ألفي مقاتل، فقهروا جيش الخلافة الذي قاتلهم بأكثر من ثمانين ألف جندي، وغزوا الكوفة، والأنبار، إلا أنهم فشلوا في غزو بغداد. وفي السنة التالية (٣١٦ هـ / ٩٢٨ م.) غزوا الدالية، والرحبة، والموصل، وقرقيسية، إضافة إلى أعراب الجزيرة، والرقّة، والربض، ورأس العين، وكفرتوتنا، وسنجار، وأحلوا الدمار والموت والنهب والسبي حيثما حلّوا^٣.

تبقى كلّ هذه الغزوات أقلّ فظاعة ممّا أقدم القرامطة على فعله بمكة في هذه الحقبة المظلمة من التاريخ الإسلامي.

١ - سامي العياشي، ص ٦٠ و ٦٤؛ ابن سنان، ص ٢٨؛ المقفى، ص ١٠١؛ ابن خلدون، م ٣ ص ٢٧٧؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٨ ص ١٥٥

٢ - ابن الأثير، الكامل، ج ٨ ص ١٤٢

٣ - المرجع السابق، ص ١٧١ - ١٧٢ و ١٨١ - ١٨٢

لما وصل الحجاج إلى مكة سنة ٣١٧ هـ / ٩٢٩ م. قادمين من بغداد، لم تكتمل فرحتهم بالوصول سالمين من مخاطر الطريق، حيث أصبح غزو القرامطة أمراً شبه مستمر، إذ ما أن حلّوا بالمدينة المقدسة، حتى أُرعبهم وفود القائد القرمطي أبو طاهر يوم التروية، بدخوله المدينة مع جماعته.

لم يفسح القرامطة الوقت، إذ منذ لحظة وصولهم إلى مكة، راحوا ينهاون الحجاج أموالهم، ويقتلون من يطاله سيفهم، سواء كان الضحايا في الطريق أو في المسجد الحرام وفي البيت نفسه. وقلع القرامطة الحجر الأسود من مكانه، ونقلوه إلى حجر، وقلعوا باب البيت وأخذوه، وقتلوا كل من حاول الوقوف بوجههم ورموا الجثث في بئر زمزم. ولما لم يعد من مكان في البئر، ملأوا المسجد جثثاً لا مصلى عليها ولا مفسولة. ثم تفرغوا لكسوة البيت فنهبوها واقتسموها. وانتقلوا إلى بيوت أهل مكة، فنظفوها من كل ذي قيمة^١.

ولم يند الحجر الأسود إلى مكانه إلا بعد مرور ٢٣ سنة، إثر تدخل الداعية الفاطمي أبي محمد عبيد الله العلوي المهدي، الذي كتب إلى أبي طاهر القرمطي لاثماً بكلام قاس، وأمرأ بإعادة الحجر المقدس إلى مكانه^٢.

وقد يكون من اللازم في هذا المجال، ذكر بعض ما جاء في كتاب المهدي أبي عبيد الله العلوي الفاطمي إلى أبي طاهر، ومنه:

«قد حققت على شيعتنا ودعاة دولتنا اسم الكفر بما فعلت... سجلت علينا في التاريخ نقطة سوداء، لا تحوها الليالي والأيام، وإن لم ترد على أهل مكة وعلى الحجاج وغيرهم ما أخذت منهم، وترد الحجر الأسود إلى مكانه، وترد كسوة الكعبة، فأنا بريء منك في الدنيا وفي الآخرة^٣».

يرى بعض الباحثين أنه كان هنالك تعاون تكتيكي بين القرامطة من جهة،

١ - المرجع السابق، ص ٢٠٧ - ٢٠٨.

٢ - القرمطي، عريب بن سعيد، صلة تاريخ الطبري، ص ٧١، ابن الأثير، الكامل، ج ٨ ص ٢٠٧ - ٢٠٨.

٣ - ابن خلدون، ج ٢ ص ٢٧٩، ابن سنان، ص ٥٤ - ٥٥، قابل: ابن الأثير، الكامل، ج ٨ ص ٢٠٨.

ودعاة الدولة الفاطمية من جهة أخرى، مما جعلهم يربطون بين أسباب غزو مكة والاستيلاء على ما فيها من قبل القرمطة، وبين قيام الدولة الفاطمية، من منطلق أن أحد أهداف القرامطة من غزو مكة كان إشغال الخليفة وجيشه عن أحداث إفريقية حيث كان قد بدأ تأسيس دولة الإسماعيليين الفاطميين، وإن كان هؤلاء الباحثون يعدّون لذلك أسباباً أخرى، منها الانتقام لمقتل زكرويه، ومنها الخطّ من قدر الخليفة العباسي وهيبته في عيون المسلمين^١.

قد يكون في ما جاء في الرسالة الجوابية التي بعثها القائد القرمطي أبو طاهر إلى الخليفة العباسي، إثر كتابة هذا الأخير له متوجّداً بعد دخول القرامطة مكة واقتلاعهم الحجر الأسود، أفضل توضيح لحقيقة دوافع القرامطة لأعمالهم العنفية تلك. ويتضح من تلك الرسالة الجوابية، أن القرامطة كانوا مؤمنين بصحة أعمالهم على عنفها ودمويتها، وكانوا يرون أن الكفرة إنما هم أهل الخلافة وأتباعهم الذين، برأيهم، إبتعدوا عن صوابية الإسلام.

لقب أبو طاهر نفسه في تلك الرسالة بـ«الداعي إلى تقوى الله القائم بأمر الله الآخذ برسول الله، صلعم»، ولقب الخليفة بقائد الأرجاس «المسمّى بولد العباس». واتهم أبو طاهر الخليفة بأنه يتبع الأباطيل ويصفي «إلى فحش الأقاويل من الذين يصدّون عن السبيل، فبشّروهم بعذاب أليم، على حين زوال دولتك... وتمكّن أولياء الله من رقبتك وهجومهم على معاقل أوطانك، ألا أن حزب الله هم المفلحون... وقد خرج عليك الإمام كالأسد ليُبطل الباطل ولو كره المجرمون». ويردّ أبو طاهر إلى الخليفة جميع التّهم التي وجهها العباسي إليه وجماعته: «تالله لتسألنّ عما كنتم تعملون، فأما ما ذكرت من قتل الحجيج، وإخراّب الأمصار، وإحراق المساجد، فوالله ما فعلت ذلك إلا بعد وضوح الحجة كإيضاح الشمس، وأدعى طوائف منهم أنهم أبرار، ومعايشتي منهم أخلاق الفجّار، فحكمت عليهم

١ - جوزي بندلي، من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام (بيروت؟) من ١٧٢ - ١٧٣

حكم الله، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون... خبرني أيها المحتج لهم والمناظر عنهم في آية آية من كتاب الله، أو أي خبر من رسول الله صلعم، إباحة شرب الخمر، وضرب الطنبور، وعزف القيان، ومعانقة الغلمان؟ وقد جمعوا الأموال من ظهور الأيتام، واحتووها من وجوه الحرام؛ وأما ما ذكرت من إحراق مساجد الأبرار، فأني مساجد أحق بالحرق من مساجد إذا توسطتها سمعت فيها الكذب على الله تعالى وعلى رسوله صلعم، بأسانيد من مشايخ فجرة بما أجمعوا عليه من الضلالة وابتدعوا من الجهالة؟». ويعد أن يتهم أبو طاهر القرمطي الخليفة العباسي بإسراف الأموال على الملذات، وحجبها عن مستحقها، يقول: «يدعو على المنابر للصبيان ويخطب للخصيان. الله أذن لكم أم على الله تفترون؟». ويبلغ هجوم الرسالة ذروته عندما يوجه القرمطي للعباسي أعنف ما قد يكون قرأه الخليفة من سباب، إذ يقرأ: «لأنت أمير الفاسقين أولى بك من أمير المؤمنين». ويعد أن يذكره بواقع ضعفه وسيطرة خدمه عليه، ينهي رسالته مبدئياً استغرابه من تجرؤ خليفة المسلمين على الوعيد والتهديد وهو على تلك الحال. مُعرباً، في الوقت نفسه، عن ثقته بقوته وهو يخاطب الخليفة: «أعزم على ما أنت عليه عازم، وأقدم على ما أنت عليه قادم، والله من ورائي ظهير وهو نعم المولى ونعم النصير».

واضح أن منطلقات القرامطة، بنظر هذا القائد، كانت دينية - اجتماعية ثورية. وفي شعر منسوب إلى أبي طاهر نفسه، يقول إنه «سيملك الأرض مشرقاً ومغرباً»^١. ومن شأن هذا الكلام أن يزيد في توضيح أهداف القرامطة ودوافع عنفهم، وفي تفسير الغاية من الهجومات التي شنتها على الخلافة في عاصمتها بالذات. وقد تمكّن القرامطة فعلاً من تعميم البلبلة على مختلف نواحي الامبراطورية العباسية. وقبل حلول العام ٣١٧ هـ / ٩٢٢ م. كانوا قد تمكّنوا، بقيادة قائد

١ - أبو منصور اليماني، كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة، ص ٢٤ - ٢٥، راجع العياشي، ص ٢٢٥ - ٢٢٦.

٢ - الدهلي، بيان مذهب الباطنية وطلاته، (استانبول ١٩٢٨) ص ٨٨.

دولتهم البحرينية، أبي طاهر بن أبي سعيد الجنابي، من السيطرة على معظم أراضي الخلافة في العراق والجزيرة، وبذلك راح الفقراء والضعاليك والمحرومون يدخلون في الحركة القرامطية بإقبال، واستمرت الحروب بينهم وبين جنود الخلافة التي كانت قد أصبحت منهمكة بمسألة محاولات إنشاء الحكم الفاطمي في إفريقية. ولما كان القرامطة في بعض الأحيان يصابون بهزيمة أو أكثر، ما كانوا يتخاذلون أمام آية نكسة، بل كانوا يسيطرون على الوضع بسرعة في العديد من مناطق الخلافة، مصرين على تحقيق أهدافهم حتى النهاية. وقد كثرت أعمال ضرب الحجاج، خاصة سنة ٢٢٢ هـ / ٩٢٤ م. عندما اعترضهم أبو طاهر بالقادسية. كما قام بغزو الكوفة، وعلى غرار ما فعله بالسابق، أقام فيها أياماً ثم رحل عنها^١. وبعد سنتين، أعاد العملية نفسها على الكوفة، بعد أن فرض على أهل بغداد وخراسان والشام ومصر الأموال الباهظة.

النهاية القرامطية

إن ما يدعو للدهشة، وللعبرة، هو أن رجلاً من القرامطة، قد تمكّن بالأساليب نفسها التي وضعها القرامطة لبث دعوتهم وفرض سيطرتهم، من أن يشق الجماعة على مختلف مستوياتها، ومن أن يُنزل الخلل في أمورها، ومن أن يضعها على شفير الهاوية، بعد أن قتل بعضهم بعضاً إثر فساد الحال فيما بينهم.

ذلك الرجل، اسمه ابن سنبر، كان من خاصة أبي سعيد والد أبي طاهر، وكان مُطلعاً على أسرار أبي سعيد.

قصد ابن سنبر رجلاً من أصبهان، وأطلعه على أسرار أبي سعيد، ومنها علامات كان يذكر أنها في صاحبهم، (المهدي الذي يدعون إليه). وبناءً على

١ - ابن سنان، ص ١٥٥، ابن الأثير الكامل، ج ٨ ص ٢١١

توجيهات ابن سنبر، حضر الأصبهاني إلى أبي طاهر وإخوته، مظهراً علامات المهدي الذي تحدث عنه أبو سعيد، وسرعان ما أمن به أبو طاهر وإخوته، فأطاعوه « حتى كان يأمر الرجل بقتل أخيه فيقتله، وكان إذا كره رجلاً... يأمر بقتله. وبلغ أبا طاهر أن الأصبهاني يريد قتله ليتفرد بالملك، فقال لإخوته: لقد أخطأنا في هذا الرجل، وسأكشف حاله. ثم دعا أبناء أبي سعيد، الأصبهاني، وقالوا له: إن لنا مريضاً، فانظر إليه ليبراً، وكانوا قد أحضروا والدتهم وغطوها بإزار على أنها ذلك الرجل. فلما رآها الأصبهاني، قال: - إن هذا المريض لا يبرأ، فاقتلوه! - فقالوا له: - كذبت هذه والدتنا - ثم قتلوه بعد أن قُتل منهم خلق كثير من عظمائهم وشجعانهم. وكان هذا سبب تمسكهم (منذ ذلك الحين) بهجر، وترك قصد البلاد والإفساد فيها^١ ».

بعد هذه التكة على القرامطة، أتى موت أبي طاهر سنة ٣٣٢ هـ / ٩٤٣ م. ليزيدهم ضعفاً، ذلك أن أخويه، أبا القاسم سعيداً، وأبا العباس الفضل، لم يكونا بمقدرته، وإن كانا يتفقان معه على الرأي والتدبير. أما الأخ الثالث، فكان بعيداً عن كل هذه الأمور، منصرفاً إلى اللهو والشرب. وقد قام الأخوان بإدارة أمور القرامطة، فأبدوا انصياعاً للفاطميين، وكان أول ما فعله لإرضائهم نقل الحجر الأسود إلى مكة سنة ٣٣٩ هـ / ٩٥٠ م^٢.

دام الانحسار القرمطي زمن قيادة الأخوين ابني أبي طاهر حتى سنة ٣٥٧ هـ / ٩٦٧ م. إذ تحرك حفيد أبي طاهر الجنايني: الحسن بن أبي العباس، الذي عُرف بعدة أسماء، منها: الحسين بن بهرام، والحسن الأعصم، والحسين بن أحمد بن بهرام القرمطي، الذي خرج عن طاعة الفاطميين، فأغار على دمشق وسيطر عليها وولأها لأحد مؤيديه، وسيطر على قسم كبير من الجزيرة، حتى خطب للقرامطة في

١ - ابن الأثير، الكامل، ج ٨، ص ٣٥١ - ٣٥٢

٢ - المقفى، ص ١٠٢ - ١٠٤، ابن الأثير، الكامل، ج ٨، ص ٤١٥ - ٤١٦

مكة نفسها . واحتل القرامطة في تلك الحقبة المناطق المجاورة لدمشق، ثم توجهوا إلى مصر، حيث واجههم الفاطميون والأخشيديون وجماعة كبيرة من العرب . رغم ذلك تمكنوا من النزول في عين شمس حيث دارت اشتباكات بينهم وبين المقاومين، وخاصة جيش جوهر الصقلي قائد المعز الفاطمي، فحاصروا جيش جوهر حصاراً شديداً، بيد أن القائد الفاطمي استطاع فك الحصار مُجبراً القرامطة على الرحيل إلى الشام، فنزلوا الرملة وحاصروا يافا وتمكنوا من القضاء على القوة الفاطمية التي طاردتهم وحاولت مساعدة المحاصرين بيافا، ويبدو أن القرامطة قد تحالفوا فيما بعد مع البويهيين ضد الفاطميين في حروب دارت حول دمشق سنة ٣٦٥ هـ / ٩٧٥ م، شن بعدها القرامطة هجوماً على مصر أيام الخليفة الفاطمي الرابع، المعز لدين الله (٣٤١ - ٣٦٥ هـ / ٩٥٣ - ٩٧٥ م) الذي حاول أن يتقي شرهم من خلال كتاب أرسله إلى الحسن بن أحمد ذكر له فيه فضل الفاطميين عليهم، وأن الدعوة واحدة، وأن القرامطة إنما كانت دعوتهم إليه، وإلى آبائه من قبله... كما ضمن الكتاب مبالغة في الوعظ، وإشارة إلى التهديد . ولكن كل ذلك لم يُفد، إذ كان جواب القرمطي: « وصل كتابك الذي قل تحصيله وكثرت تفضيله، ونحن سائرون إليك على أثره، والسلام » . وسار القرمطي حتى وصل مصر، « فنزل عين شمس بعسكره، وأنشبت القتال، وبث السرايا في البلاد ينهبونها، فكثرت جموعه، وأتاه من العرب خلق كثير... ».

وإذ برز الخطر القرمطي واضحاً على الفاطميين، عرف الخليفة الفاطمي كيف يوقع بين القرامطة وحلفائهم . وبعد أشهر قليلة أنزل الجيش الفاطمي أشد الهزائم في القرامطة بأرض الشام . وبعد أن سقط منهم ألوف القتلى، انهزموا إلى الأحصا^١.

وبذلك انتقلت السيطرة على دمشق إلى الفاطميين، وبدأ نجم القرامطة

١ - ابن الأثير، الكامل، ج ٨ ص ٦٢٨ - ٦٢٩، راجع: الميماش، ص ٢٢٧ - ٢٢٨، ابن سنان، ص ٥٧ وما يليها، الملقى، ص ٩٥ - ١٠٤.

بالأفول، وانتقلت أخبارهم إلى حواشي الكتب. ومن أخبارهم أنهم غزوا بغداد سنة ٣٧٤ هـ / ٩٩٤ م. طامعين بموت عضد الدولة، «قصوخوا على مال أخذوه وعادوا». وكان القرامطة قد أولوا قيادتهم في البحرين إلى هيئة من ستة أفراد، يؤلفون شبه مجلس حاكم، وأطلقوا عليهم لقب السادة. وقد قصد اثنان من هؤلاء السادة الكوفة في السنة نفسها، وهما إسحاق وجعفر البحراني، وملكاهما، مما أدى إلى الاقتتال بينهما وبين البويهيين، وإلى انهزام القرامطة إلى القادسية بعد سقوط عدد كبير منهم، ومنذ ذلك الحين، «غاب ناموس» القرامطة عن العراق^١.

وفي نهاية سنة ٣٧٨ هـ / ٩٨٨ م. ظهر رجل يُعرف بالأصفر، وهو من بني المنتفق^٢، وجمع الرجال حواله للانتقام من القرامطة. وإذ تمكن الأصفر من قهر القرامطة، تتبعهم إلى قاعدة حكمهم في الأحساء^٣، حيث تحصن منه القرامطة، فعدل إلى القطيف^٤، وأخذ ما كان فيها من عبيدهم وأموالهم ومواشيهم وسار بها إلى البصرة^٥. ومنذ ذلك التاريخ، لم يعد يرد ذكر القرامطة.

القرمطية: اشتراكية...

شيوعية مبكرة

بالإمكان اعتبار أن القرامطة قد انقرضوا تماماً من الوجود كقرامطة، وإن كان بعض مفاهيمهم ومبادئهم قد انتقل إلى فرق أخرى سوف يرد ذكرها لاحقاً.

١ - ابن الأثير، الكامل، ج ٨ ص ٦٨٨ و ج ٩ ص ٣٧ و ٤٢ - ٤٣

٢ - المنتفق، فرع من قبيلة بني عقيل المنفردة من عامر من سبعية. موطنهم جنوب غربي اليمامة في جزيرة العرب. أقاموا أيام الفتح بين الكوفة والبصرة. والمنتفق اليوم عشائر عراقية تسكن الناصرية على الفرات الأسفل، وهي مركز قضاء الناصرية.

٣ - الأحساء، أو الحسا، أو هجر والبحرين، هو اليوم إقليم يشمل الساحل الشرقي في المملكة العربية السعودية من حدود الكويت إلى حدود قطر، قاعدته الدمام.

٤ - القطيف، مدينة في منطقة الأحساء.

٥ - ابن الأثير، الكامل، ج ٩ ص ٥٨ - ٥٩

وجل ما يمكن اعتباره بالنسبة الى هذه الحركة التي دامت أكثر من مائة عام، أنها كانت حركة إجتماعية إشتراكية شعبية أكثر منها حركة دينية. وكانت هذه الحركة، مثلها مثل سائر الحركات في الإسلام، ذات جذور شيعية متطرفة. وقد نسب بعض المؤرخين الكثير من الاتهامات الخلقية إلى القرامطة، ليس أقلها إباحة نسائهم لبعضهم البعض من ضمن اشتراكيتهم، وخروجهم عن الإيمان بالآخرة، إلا أن هذه الاتهامات تفتقر إلى السند الموثوق. ولكن الثابت أن القرامطة قد مارسوا نظاماً اشتراكياً متقدماً جداً نسبة إلى تاريخ وجودهم. وقد وصف المقرئزي^١ بعض تفاصيل هذا النظام، كما مارسها مؤسس الدعوة: حمدان قرمط، فذكر أن قرمطاً بدأ بفرض ضريبة على أتباعه، سماها «الفطرة»، وكانت الفطرة درهماً يؤخذ من كل عضو يتسبب إلى الدعوة، سواء كان رجلاً أم امرأة أم صبياً، وإذا لقي الأتباع الأمر، فرض عليهم لاحقاً ما سُمي بـ «الهجرة»، وهي دينار واحد يؤخذ من كل بالغ، وذلك بالإستناد إلى الآية «خذ من أموالهم صدقة تظهرها وتزكيتهم بها. وصلّ عليهم من صلاتك تسكن لهم والله سميع عليهم»^٢. وفسّر لهم الآية بأنها تعني الضريبة التي سماها الهجرة، فلبّوا الأمر متعاونين، وكانوا يسعفون من كان منهم فقيراً ليتمكن من دفع الفرض. ثم فرض عليهم «البلغة» وهي سبعة دنانير، وذلك بالاستناد إلى الآية: «قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين»^٣. وكان من يدفع سبعة دنانير عن البلغة يُطعمه شيئاً لذيذاً حلو الطعم بحجم البندقة ويقول: «هذا طعام أهل الجنة». بعد ذلك فرض عليهم «الخمس» من كل ما يملكونه ويكسبونه تالياً عليهم الآية: «واعلموا أن ما غنمتم من شيء، فله خمس»^٤. ولم يبخل الأتباع بتقديم الخمس من كل ما يملكونه بما في ذلك الثياب، وصارت المرأة تؤذي له خمس ما يخرج من غزلها، والرجل يقدم خمس ما يكسبه؛ ثم فرض

١ - المقرئزي، فضائح الباطنية، ص ١ - ٢، راجع: عياش، ص ٢٢٦ - ٢٢٧

٢ - الآية ١٠٩، ١٠٤

٣ - الآية ١٧، ١١١

٤ - الآية ٨، ٤١

عليهم «الإلفة»، وهي أن يجمعوا أموالهم في مكان واحد، وأن يكونوا فيه أسرة واحدة لا يفصل أحد من أصحابه على صاحبه ولا أخيه في ملك يملكه بشيء البتة، وقال لأتباعه: لا حاجة بكم إلى الأموال فإن الأرض بأسرها تكون لكم دون غيركم؛ وقال أيضاً: هذه محتكم التي امسحتكم بها ليعلم كيف تعملون. إضافة إلى هذا، ألزم حمدان أتباعه بشراء السلاح. وقد عمم حمدان نظامه الاقتصادي - الاجتماعي - الاشتراكي هذا، إذ أقام في كل قرية رجالاً من الثقات تجمع عنده الأموال والمتاع، وكان هذا الرجل يكسو عاريهم، وينفق عليهم ما يكفيهم حتى لم يبق منهم فقير ولا محتاج.

حتى إن إشتراكية القرامطة قد بلغت حد الشيوعية، إذ «أخذ كل رجل منهم بالاجتهاد في صنعته والكسب بجهده ليكون له الفضل برتبته، وجمعت إليه المرأة كسبها من مغزليها، وأذى إليه الصبي أجره نظارته وحراسته للطير ونحوه، ولم يبق في ملك أحد غير سيفه وسلاحه لا غير».

وقد اعتبر المقرئ، أن إشتراكية حمدان لم تقتصر على الأموال، بل تعدتها إلى النساء، إذ يقول إن حمدان أمر الدعاة بجمع النساء في ليلة عتيها لهم، ويقوم الرجال بمعاشرتهن قائلاً: «هذا من صحة الود والإلف» وإن جماعته فعلوا ذلك^١.

وكما في الشيوعية، كذلك حرّر حمدان أتباعه من العديد من فرائض الدين، فأمر بالتخلي عن الصوم والصلاة وجميع الفرائض، وقال لجماعته: «هذا كله موضوع عنكم، ودماء المخالفين وأموالهم حلال لكم، ومعرفة صاحب الحق تغنيكم عن كل شيء، ولا تخافون معه إثماً ولا عذاباً».

١ - راجع: العياشي، ص ٢٢٧ - ٢٢٨

٢ - البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ٢٩٧ - ٢٩٨، راجع: العياشي، ص ٢٢٩ - ٢٤٠، للإطلاع على المزيد راجع: الديلمي، بيان مذهب الباطنية ويطلائه (استانبول ١٩٢٨)

لقد عنى حمدان، على ما يبدو، بصاحب الحق، الإمام محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، وقال: «بهذا الإمام انسقت هذه الأمور ولولاه لهلك الخلق وعدم الهدى والعلم». حتى إن بعض المؤرخين نسب إلى القرامطة رسالة زعموا أنها موجهة من المهدي إلى سليمان بن الحسن القرمطي، جاء فيها قول المهدي إن «التحريمات مردّها إلى أن النبي حرّم الطيبات وخوف الناس بغائب لا يعقل وهو - الإله المزعوم - فاستعبدهم النبي بذلك، وجعلهم له في حياته ولذريته بعد وفاته، واستباح بذلك أموالهم» وتساءل المهدي في هذه الرسالة: «هل الجنة إلا هذه الدنيا ونعيمها؟ وهل النار وعذابها إلا ما فيه أصحاب الشرائع من التعب والنصب في الصلاة والصوم والجهاد والحج؟». ويقول المهدي في رسالته المزعومة إلى سليمان القرمطي: «أنت وإخوانك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس، وفي هذه الدنيا، وأنتم نعيمها ولذاتها المحرّمة على الجاهلين المتمسكين بشرائع أصحاب النواميس، فهنئاً لكم ما نلتُم من الراحة عن أمرهم».

على أي حال، فإن القرمطية أصبحت من التاريخ، ولا علاقة للفرق الشيعية المعاصرة بها.

وإذا كانت الدعوة القرمطية قد تمكّنت بهذه الأساليب من تحقيق ما حقّقته، فإن الإسماعيلية الحقيقية، قد تمكّنت من تحقيق ما هو أعظم من ذلك بكثير، فلمرة واحدة في التاريخ، جعلت الخلافة شيعية.

١ - أبو الحسن الملقب، التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع (مصر ١٩٦٩)، أبو منصور اليماني. كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة.

الفصل الحادي عشر

الإسماعيليون والخلافة الفاطمية

- الأئمة المستورون
- مسألة أصل عبيد الله المهدي
- أبو عبد الله الشيعي
- الخلافة الفاطمية في طورها الأول
- أبو الحسن جوهر الصقلي
- الحاكم بأمر الله
- انهيار الدولة الفاطمية
- الحشاشون

لما اختلف الشيعة على مسألة مَنْ يكون الإمام بعد موت جعفر الصادق سنة ١٤٨ هـ / ٧٦٥ م. وهو الإمام السادس، وقد عدل بعضهم عن الإمام موسى الكاظم، الذي اعتبره سائر الشيعة الإمام السابع، عدلوا إلى أخيه إسماعيل، فعرفوا بالإسماعيلية. وبما أن إسماعيل بن جعفر، كان قد توفي قبل موت أبيه، فقال هؤلاء بإمامة ابنه محمد بن إسماعيل، واختلفوا في من يكون الإمام السابع: إسماعيل أم ابنه محمد؟ على أنهم عرفوا جميعاً بالإسماعيليين، وساروا على المعتقد نفسه، واتبعوا سلسلة الأئمة نفسها، وهي تتمثل، بعد إسماعيل ومحمد، بابن محمد، جعفر، ثم محمد بن جعفر الملقب بالحبيب. وقال الإسماعيلية، وقد عرفوا أيضاً بالسبعية نسبة إلى الإمام السابع، قالوا بغيبة محمد بن إسماعيل، واعتبروه المهدي المنتظر^١. واتبعت هذه الطائفة التقية في مسلكها الديني، وبقي أنتمها في حالة من السرية، عرفت بحالة الستر، إثناء لشر الخلفاء العباسيين ومناهضتهم لسلالة أهل البيت، فيما كانت العلاقات بين الخلفاء وأئمة الاثني عشرية (أو الإمامية) من الشيعة، على الوضع الذي جاء تأريخه في الفصول السابقة.

بعد اختفاء محمد بن إسماعيل الملقب بمحمد المكتوم، وهو بعد في الخامسة عشرة من عمره، وقد اختفى في المدينة المنورة حيث ولد، ويقال إنه هرب خوفاً من غضبة الخليفة العباسي هارون الرشيد، واختبأ في مكان بالقرب من الري في بلاد فارس، ولم يعد يعرف أحد عنه شيئاً، تفرق نسله في الشرق والغرب، أما الأئمة الذين جاؤوا بعده في المذهب الإسماعيلي، فقد جعلوا من بلدة سلمية بين حمص وحماة مخبأ ومقاماً لهم. وتُعرف سلمية اليوم بالسلمية.

١ - راجع الفصل السابع من هذا البحث ص ٩ وما بعدها.

وباعتبار أن المهديّ، إنما هو الإمام الغائب، محمد المكنوم، وبانتظار ظهور المهديّ هذا (الذي هو غير المهديّ عند الاثني عشرية) كان كلما قام إمامٌ تسمى بمحمد، والإشارة بذلك إلى محمد بن إسماعيل « والمراد بإسماعيل عبد الله، والمراد بمحمد كل من كان في عصره... إلى أن يظهر صاحب الظهور، وهو محمد، فتزول التقيّة التي بدأت في عهد جعفر الصادق وبأمر منه، وهو الذي، باعتقاد الإسماعيلية، كتم اسم الإمام بعده إلا عن بعض الثقات^١ ». وهكذا أثبتت السريّة التامة في ستر الأئمة. وقد بقي هؤلاء الأئمة على هذه الحال من الستر حتى ظهور عبيد الله المهديّ قبل نهاية القرن الثالث للهجرة (بداية القرن العاشر ميلادي).

وبحسب الإسماعيلية، فإن آخر أولئك الأئمة المستورين كان أحمد، الذي خلف أباه إسماعيل الثاني بن محمد بن إسماعيل، وبه بدأ الستر.

مسألة أصل عبيد الله المهديّ

تقول الإسماعيلية بأنه كان لآخر الأئمة المستورين ابن يدعى أبا محمد عبيد الله، وبأن أبا محمد عبيد الله هذا، إنما هو المهديّ المنتظر. وبذلك يكون عبيد الله هو ابن أحمد بن إسماعيل الثاني بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب.

غير أن هذا النسب قد تعرّض لكثير من التشكيك ومن التكذيب عبر التاريخ، خاصة من قبل مناهضي الإسماعيلية من علماء الأنساب المسلمين.

وبينما نجد عند من يؤكّدون صحة النسب بعض الاسناد، لا نجد عند المشكّكين والمكذّبين ما يمكن الركون إليه.

وقد زعم بعضهم أن عبيد الله فارسيّ الأصل، يعود نسبه إلى القدّاح عبد

١ - عبد الله المهديّ، في نسب الخلفاء الفاطميين (بالاستناد إلى كتاب أرسله المهديّ عبد الله إلى ناحية اليمن) تقديم حسين فيض الله الهمداني (القاهرة ١٩٥٨) ص ٩ - ١٠

الله بن ميمون بن ريسان المتوفي بعد سنة ٢٧٦ هـ / ٨٨٩م. صاحب كتاب الميزان، الذي عدّوه الداعية الأول للباطنية، ونسبوا إليه «القداحية»، وقالوا إنّه لقّب بالقدّاح لأنّه كان «يعالج العيون ويقدها». وقد خلف القدّاح في تزعم أتباعه من القدّاحيّة ابنه أحمد الملقّب بعبد الله، فراح، بالتعاون مع بعض الأنصار، يبتّ الدعوة الباطنيّة سرّاً، في نواحي العراق والجزيرة، ويشتّر بقرب مجيئ المهديّ، ويجمع حوله المقاتلين والأنصار. وسرعان ما بثّ الدعاة في بلاد المغرب، وكان من جملة هؤلاء، رجل اسمه أبو عبد الله، أرسله ابن القدّاح إلى أرض كتامة من المغرب، ليكمل الدعاية التي كان قد بدأ بها رسولان سبقاه إلى هناك، فماتا بعد عمل ناجح استمرّ سنوات.

وتقول روايات أخرى بأنّه لما توفي عبد الله بن ميمون القدّاح، ادعى أبناؤه أنّهم من أحفاد عقيل بن أبي طالب، وأنّ آباءهم كانوا يسترون نسبهم إثمًا لشرّ العباسيّين. وقد خلف عبد الله ولده محمّد الذي قاد الدعاة، ثمّ خلفه في ذلك ولده: أحمد والحسين.

وبحسب هذه الروايات أنّ الحسين قد أصبح صاحب الأمر، «والدعاة باليمن والمغرب يكتبونه ويراسلونه، واتفق أنّه جرى بحضرته حديث النساء بسلامية، فوصفوا له امرأة رجل يهوديّ حدّاد، مات عنها زوجها، وهي في غاية الحسن، فتزوّجها، ولها ولد من الحدّاد يماثلها في الجمال، فاحتبها وحسن موقعها معه، وأحبّ ولدها، وأذبه، وعلمه، فتعلّم العلم، وصارت له نفس عظيمة وهمة كبيرة. وعندما مات الحسين، لم يكن له ولد، فعهد إلى ابن اليهوديّ الحدّاد، وكان عرفه أسرار الدعوة... وأعطاه العلامات، وجعله الإمام الوصي، وزوّجه ابنة عمّه أبي الشلفلغ، وجعل له اسماً ونسباً هو: عبيد الله بن الحسن بن عليّ بن محمّد بن عليّ بن موسى بن جعفر بن محمّد بن عليّ بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب». وبحسب أصحاب هذا الرأي يكون أصل عبيد الله يهوديّاً.

ويغالي آخرون في التخمين بالنسبة لأصل عبيد الله، فيقولون بأنّ المهديّ

الحقيقي قُتل في سجن سجناسية، وإن عبید الله الذي خرج من السجن (كما سيجي) لم يكن إلا يهودياً تَقَمَّص شخصية الزعيم المنشود، ولعب دور المهدي المنتظر^١.

جميع هذه الروايات، تبقى اجتهادات غير مبنية على أساس يركن إليه. ومع عدم نكران الغموض الذي يكتنف أصل عبید الله، فما يجب التذكير به في هذا المجال، هو ذلك الخوف الذي كان مسيطرأ على كل من ينتسب إلى بيت علي في تلك الحقبة من التاريخ، التي كان كل من يتجرأ فيها على عدم الذم بأصل المهدي، عبید الله، يعرض نفسه للقتل^٢. وإذا كان عدد من مؤرخي السنة قد أكد على عدم صحة النسب العلوي لعبید الله، فإن مؤرخين سنة عظماء، قد أكدوا على صحة هذا النسب، ومنهم ابن خلدون، وابن الأثير^٣.

على أي حال، فالقابت أن عبید الله هذا، قد وُلد في سلمية سنة ٢٦٠ هـ / ٨٧٣ م^٤. تلك البلدة المنعزلة الواقعة في بلاد الشام، إلى الجنوب الشرقي من حماة، والتي كانت قد غدت في ذلك الزمن، مقراً لرؤوس الإسماعيلية، ومركزاً رئيسياً لنشاطهم.

أبو عبید الله الشيعي

أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا، المعروف بعبید الله الشيعي، الذي أرسله الأئمة الإسماعيليون إلى بلاد المغرب لبث دعوتهم، كان في

١ - راجع: P. H. Mamour, *Polemics on the Origin of the Fatimi caliphs* (London, 1934), PP. 26 Seq., 43 seq., 124 seq.; W. Ivavow, *Ismaili Tradition Concerning the rise of Fatimids* (Oxford, 1942), PP. XVII - XIX, P. 127 seq.; ابن تغري: ٤٨٧، ص ١، خلكان، ج ١، قسم ٢، ص ١١٢، ابن الأثير، الكامل، ج ٨، ص ٢٤ - ٢٧، للاستفاضة، راجع: حسن وطه أحمد شرف، عبید الله المهدي (القاهرة ١٩٤٧).

٢ - ابن الأثير، الكامل، ج ٨، ص ٢٤ - ٢٥.

٣ - راجع: ابن خلدون، ج ٤، ص ٣١ وما بعدها، ابن الأثير، الكامل، ج ٨، ص ٢٤ وما بعدها.

٤ - راجع: حلي، صانعو التاريخ العربي، ص ١٤١.

أول أمره شيعياً من الاثني عشرية، لا من السبعية - الإسماعيلية. وهو من مواليد صنعاء، عاصمة اليمن، وكان ذا مواهب وميزات جعلت منه داعية إسماعيلياً ممتازاً. وقد بدأ دعوته في حوالي سنة ٢٧٧ هـ / ٨٩٠ م. بين قبائل البربر، من بني كتامة، وقد قصد التقرب منهم وهم في مكة لتأدية فريضة الحج في تلك السنة. « فسمعهم يتحدثون بفضائل أهل البيت، فأظهر استحسان ذلك، وحذّثهم بما لم يعلموه... » ثم توافق معهم وهم في طريقهم إلى بلادهم، مدّعيّاً أنّه ذاهب إلى مصر. ولما وصلوا إلى مصر، تمّنوا عليه أن يرافقهم إلى بلادهم ووعدوه بإتباعه ونصرته « ولم يزالوا حتّى أجابهم إلى المسير معهم، بعد الخضوع والسؤال ». وكان وصول أبي عبد الله إلى أرض كتامة في بداية سنة ٢٨٠ هـ / ٨٩٢ م^١.

عندما وصل أبو عبد الله الشيعي إلى إفريقية الشمالية كانت هذه المنطقة من العالم مجزأة سياسياً إلى دويلات، بعضها مستقلّ تماماً، وبعضها شبه مستقلّ، إضافة إلى توزّع مجموعات قبلية في مناطق لا تعترف بأية سلطة سوى سلطة زعمائها القبليين. وسط هذا التجزؤ، كانت تلك الدويلات على غير مذهب، فبعضها كان شيعياً، وبعضها سنّياً، وبعضها الآخر من الخوارج. أضف إلى ذلك التوزّع العرقي، فبينما القبائل المحلية كانت من العرق الحامي، كان الحاكمون ومن هاجر معهم من العرق السامي. وبذلك كان الجزء الشمالي من إفريقية في حال عدم استقرار، لا بل في حال من التردّي الاقتصادي والاجتماعي. وكان الجزء الشرقي من إفريقية تحت حكم الطولونيين السنّة (٢٥٥ - ٣٩٢ هـ / ٨٦٨ - ٩٠٥ م). وكانت عاصمتهم: القطائع، بالقرب من الفسطاط الواقعة بالقرب من بابليون على الضفة الشرقية للنيل. أمّا القسم الأوسط من شمالي إفريقية الذي يشمل تونس وغرب ليبيا وشرق الجزائر، فكان تحت حكم الأغالبة السنّة أيضاً، الذين حكموا المنطقة بين ١٨٥ - ٢٩٧ هـ / ٨٠٠ - ٩٠٩ م. وجعلوا عاصمتها

١ - ابن الأثير، الكامل، ج ٨ ص ٣٦ - ٣٢

القيروان التي تشكل اليوم مدينة تونس و مركز ولاية. وإذا كان الطولونيون قد احتفظوا بشيء من الذكر للخليفة العباسي، فإن الأغالية كانوا قد كفوا عن نقش اسم الخليفة على نقودهم، مما يعني عدم الاعتراف بسلطته.

أما المغرب، الذي يشكل الجزء الغربي من إفريقية، فكان قد أضحي دولة شيعية، هي دولة الأدارسة التي مرّ التعريف بها عبر الفصول السابقة، وقد دامت من سنة ١٧٢ هـ / ٧٨٨ م. إلى سنة ٣٦٤ هـ / ٩٧٤ م^١.

وسط هذه الأحوال، وصل أبو عبد الله الشيعي داعية للإسماعيلية قبل نهاية القرن الثالث للهجرة، والقرن التاسع للميلاد. وبدهاء وذكاء خارقين، راح يستقطب حوله البربر، دون أن يذكر لهم في البداية أمر المهدي. وقد انطلق أبو عبد الله مع بني كتامة في أعماله من مكان جبلي يعرف بفجّ الأخيار، فقال لهم: «لقد جاء في الآثار: إن للمهدي هجرة تنبؤ عن الأوطان، ينصره فيها الأخيار من أهل ذلك الزمان، قوم مشتقّ اسمهم من الكتمان، فإنهم كتامة»^٢. وبذلك أصبح بنو كتامة شعب المهدي المختار، وغني عن المعالجة إذك كيف أن قبائل كتامة والته إلى حدّ الفداء.

لم يمض وقت طويل حتّى تزعم أبو عبد الله مناطق شاسعة من تلك التي لم يكن أهلها البربر ليعترفوا بأية سلطة قبل مجيئه. وكانت مناطقهم لا تزال على حال البراءة القيادية القبلية وسط تلك الدول المحيطة بها. وقد سبق تلك السيطرة عدّة معارك بين أبي عبد الله وأنصاره الكتاميين وبين سائر قبائل البربر، وكان النصر دائماً حليف الداعية الإسماعيلي، وكانت النتيجة مزيداً من الاستقطاب والتوسع، إلى أن بلغ وضعاً ممتازاً لكثرة ما أصبح لديه من أتباع ومقاتلين، ولتنوع التنظيم العسكري والسياسي الذي أجاد تطبيقه، فأصبح مستعداً للانقضاض على الدويلات الإفريقية المبعثرة.

١ - حقي، صانعو التاريخ العربي، ص ١٤٢ - ١٤٤

٢ - ابن الأثير، الكامل، ج ٨ ص ٢٢ - ٢٣

بدأ أبو عبد الله تطبيق طموحاته بالدولة الأغلبية. وكان قد بلغ عدد أفراد جيشه نحو مائتي ألف مقاتل بين فارس وراجل. وراحت حصون الأغلبية تسقط تباعاً أمام الجيش البربري - الإسماعيلي الظاهر، بعد أن كان أبو عبد الله قد باح للناس بأمر المهديّ: عبيد الله.

في هذه الأثناء، كان أمر عبيد الله المهديّ قد شاع في سلمية، ووصلت أخباره إلى الخليفة العباسي السابع عشر: المكتفي (٢٨٩ - ٢٩٥ هـ / ٩٠٢ - ٩٠٨ م). الذي سارع إلى إرسال الجواسيس لقتله، فهرب عبيد الله ومعه ابنه أبو القاسم نزار، الذي كان يومئذ غلاماً، والذي سيتزعم الفاطميين بعد أبيه وسيلقب بالقائم. واصطحب عبيد الله المهديّ معه خاصته ومواليه، واتجه نحو المغرب، متخفياً بزي التجار. وعندما وصل إلى مصر، كان واليها قد تلقى كتاب الخليفة العباسي الملح في طلب القبض عليه وقتله. وبفضل تشجيع بعض موظفي الولاية، تسربت المعلومات إلى موكب عبيد الله الذي تمكن من الخروج من مصر مع أصحابه متخفياً، ومعه أموال كثيرة، وقد أوسع النفقة على من صحبه. بيد أن العامل المصري قد تمكن من إدراك المهديّ قبل خروجه من أرض ولايته. ولا شك في أن الأموال لعبت دورها التقليدي هنا، وأكمل المهديّ وصحبه مسيرهم حتى وصلوا إلى مدينة طرابلس الغرب، رغم تعرض قافلتهم لهجمات اللصوص الذين تمكنوا من السطو على بعض متاعها، ومن جملة ما «كتب وملاحم لأبائه، عظم أمرها عليه...». وكان مع المهديّ أخ لأبي عبد الله، اسمه أبو العباس، فأرسله من هناك إلى أخيه عبد الله الشيعي في أرض كتامة. ولكن الحاكم الأغليبي في القيروان، قبض على أبي القاسم، قبل أن يصل إلى أخيه. ذلك أن الملك الأغليبي، زيادة الله الثالث (٢٩١ - ٢٩٧ هـ / ٩٠٣ - ٩٠٩ م) كان جمع المعلومات الكاملة حول تحركات المهديّ وأصحابه. في الوقت نفسه، كان المهديّ يتلقى المعلومات من عبد الله الذي لم ينقطع عن مراسلته أبداً. لذلك فضل المهديّ الانتقال من طرابلس إلى مكان آخر، بانتظار التمكن من العبور إلى أرض كتامة. وعندما التقى قافلة في طريقها إلى

سجلماسة، في أقصى الجنوب من مراكش، ذهب معها. وكان والي تلك المدينة من الخوارج، الذين يفسرون العداء لكلّ متشيع، خاصة إذا كان يمتّ بأيّ نسب إلى آل البيت. غير أنّ ذلك الخارجيّ لم يعرف حقيقة أمر عبيد الله ونسبه فأنزله ضيفاً في داره، مقابل الكرم السخيّ لذلك الضيف المميّز. ولكن لم يطل الوقت حتّى أتت ذلك الخارجيّ المعلومات عن حقيقة ضيفه، فسارع إلى اعتقاله وإلقائه في السجن، وأمر بتعذيبه حتّى يوبّح بحقيقة شخصه وأهدافه، بيد أنّ عبيد الله لم يبح بشيء، كذلك فعل ابنه السجين في زناينة أخرى.

كان عبيد الله، وهو في سجنه بسجلماسة، يتلقّى الأخبار عن تقدّم أبي عبد الله في فتوحاته، وانهيار أسطورة قوّة الأغالية التي لا تقهر، أمام جيشه الطافر. ولم يمض وقت طويل حتّى كانت القيروان، عاصمة الأغالية، تطلب الاستسلام إلى أبي عبد الله وجيشه الإسماعيليّ بعد أن أصبح هذا الجيش على مشارف مداخل رقّادة، مقرّ سكن ملوك الأغالية القريب من العاصمة. وبسقوط القيروان، أصبحت السيطرة الإسماعيليّة على إفريقية أمراً محتوماً.

بينما اتّخذ أبو عبد الله الشيعيّ القصر الملكيّ مقرّاً له، وراح يتصرّف تصرّف الملوك، وجيشه يتنعم بنساء المدينة المغلوبة على أمرها وبشرابها ويطعامها، ويتقاسم كنوزها ومغانمها، كان المهديّ لا يزال سجين سجلماسة. وأعطى أبو عبد الله نفسه الوقت لسكّ نقوده، وقد نقش على وجهها: «بلغت حجة الله» وعلى قفاها: «تشبّت أعداء الله». ونقش على خاتمه: «فتوكل على الله إنك على الحقّ مبين» وكتب على رايته: «سيهزم الجمع ويولّون الدبر». وعلى أفخاذ خيله: «الحكم لله». وعندما كان يركب كان المتادي يصيح: «إركبوا يا جنود الله». ولم يذكر في صلاة الجمعة أسماء الخلفاء، وإنّما كان يذكر النبيّ محمداً والحسين

١ - سورة النمل ٨١٠

٢ - سورة القمر ٤٥٠

وفاطمة. ونلاحظ هنا أن أبا عبد الله قد ساير الخوارج، إن في عبارة «الحكم لله» أم في تجاهل عليّ في الدعاء. كما نلاحظ أن الاعتبار الإسماعيليّ لسلالة أهل البيت إنما هو اعتبار لفاطمة وليس لعلّي، وهذا ما سوف يعطي للدولة الإسماعيلية اسم «الفاطمية».

كان أبو عبد الله، إثر سيطرته على القيروان، قد أخرج أخاه أبا العباس من السجن سالماً معافى. وبعد انقضاء ثلاثة أشهر على فتح القيروان، توجه أبو عبد الله جنوباً لإخراج عبيد الله المهديّ من سجنه، وكلف أبا العباس بتصريف الشؤون بغيابه. وكانت القبائل والمدن الواقعة على طريق أبي عبد الله تعلن له الخضوع دونما مقاومة، باستثناء سجلماسة، التي حاولت الدفاع، بيد أنها سقطت سريعاً، ولم ينجُ واليها من القتل.

يروى أكثر المؤرخين أن أبا عبد الله، عندما دخل سجلماسة برجاله منتصراً، قصد سجن عبيد الله المهديّ، وحرّره منه هو وابنه «فكانت الناس في مسرة عظيمة كادت تذهب بعقولهم»، وقد عمد أبو عبد الله إلى التطواف بالمهديّ وابنه راكبين على المظايا، وهو ورؤساء القبائل سائرون حولهما، وأبو عبد الله يقول للناس: «هذا مولاكم» وهو يبكي من شدة الفرح^١.

إلا أن بعض المشككين بحقيقة المهديّ من المؤرخين، يذكر أن «أبا عبد الله الشيعي عندما دخل زنزانة عبيد الله وجده ميتاً، كما وجد في الزنزانة مولّى له يهودياً، فأخذ اليهوديّ وادّعى أنه المهديّ^٢». ولكن ليس هناك ما يثبت صحة هذا الخبر^٣.

منذ ذلك اليوم، زال عهد تستر الأئمة الإسماعيليين، وألبس عبيد الله المهديّ الثياب الخيرية وسط خفقان الرايات الفاطمية، وقد نشأت بذلك سلالة

١ - راجع: ابن الأثير، الكامل، ج ٨ ص ٣١ - ٤٧، حتي، صانعو التاريخ العربي، ص ١٤٢ - ١٤٧.

٢ - ابن خلكان، ج ١، ص ٤٨٧.

٣ - راجع، حتي، صانعو التاريخ العربي، ص ١٤٧.

خلافة جديدة، هي السلالة الفاطمية، وتُعرف أيضاً بالعلوية والبيدية، نسبة إلى عبيد الله.

بقي القوم يحتفلون أربعين يوماً في سجلماسة، بظهور المهدي، وقد وقصعوا على رأسه عمامة تليق بمقامه، وصنعوا له سرادقاً عليه ما سُمّي بعرش السماء، ليجلس المهدي عليه، وهو السيّد والمولّى الجديد المطاع. وبعد انقضاء كل هذا، انتقل المهدي مع صحبه إلى رقادة^١ في نهاية شهر ربيع الآخر من سنة ٢٩٧ هـ / ٩٠٩ م. فاستقبله أهلها وأهل القيروان ورؤساء البربر مشاة «بين يديه، وولده خلفه، ونزل بقصر من قصور الأغالبة، وأصبح اسمه هو المذكور في الخطبة بالبلاد، وتلقّب عبيد الله، بالمهدي أمير المؤمنين^٢». وبذلك يبدأ عهد الخلافة الفاطمية.

سرعان ما بدأ عبيد الله بإدارة شؤون دولته بنفسه، ورغم أن أبا عبد الله كان قد انتزع هذه الدولة وهياً للمهدي كل شيء لتروّسها، وانتزعه من سجن سجلماسة بعد حرب قلّ نظيرها بطولتها وإقداماً وجهاداً، فقد كفّ المهديّ يدي أبي عبد الله وأخيه أبي العباس، الذي «عظم عليه الفطام عن الأمر والنهي والأخذ والعطاء» فراح يقبّح سرّاً بالمهديّ في مجلس أخيه أبي عبد الله، الذي حاول نهيّه عن ذلك دون جدوى، ولكنّ العكس حصل، إذ تمكّن أبو العباس من إقناع أخيه بعقّ المهديّ، ثمّ جعل أبا عبد الله يقول يوماً للمهديّ: «لو كنت تجلس في قصرك وتركني مع كتامة أمرهم وأنهاهم، لأنّي عارف بعاداتهم، لكان أهيب لك في أعين الناس». وإذا كان عبيد الله قد سمع شيئاً ثمّ يجري بين أبي عبد الله وأخيه تأكّد من صحّة الإشاعات إثر بوح أبي عبد الله برغبته. وبالرغم من أن جوابه لعبد الله كان لطيفاً، فقد اعتمد الحيلة والحذر والمراقبة... إلى أن اتّصل به ما كان يهتّم له أبو العباس من أجل اغتياله، بمشاركة وتدبير من قبل أبي عبد الله، فأمر

١ - هي اليوم في تونس. أسسها إبراهيم الثاني الأغلي سنة ٨٧٦ م. وجعل منها قاعدة دولة الأغالبة في إفريقيا.

٢ - ابن الأثير، الكامل، ج ٨ ص ٤٩

المهديّ رجاله بقتل أبي عبد الله وأخيه أبي العباس. وعندما وضع أحدهم السيف على ذلك الذي صنع للمهديّ دولة، قال له أبو عبد الله: «لا تفعل يا بني» فردّ الجلاّد: «الذي أمرتنا بطاعته أمرنا بقتلك» وأنهى السيف ذلك الذي أنهى دولة الأغالبة ومُلك بني مدرار الذين كان لهم مائة وثلاثون سنة منفردين بحكم سجلماسة، ومُلك بني رستم من تاهرت وكان لهم مائة وستون سنة منفردين بحكم تاهرت، واستوعب قبائل البربر، وقدم كل ذلك على طبق من فضة لرجل آمن به، هو عبيد الله، الذي أصبح المهديّ أمير المؤمنين. وتمكّن أمير المؤمنين من خنق الفتنة التي ثارت إثر اغتيال أبي عبد الله وشقيقه. واستتبّ الحكم نهائياً لعبيد الله^١.

الخلافة الفاطمية

في طورها الأول

كان الذي قتل أبا عبد الله وأخاه أبا العباس بأمر من المهديّ، رجلاً من كتامة، اسمه عروبة بن يوسف، وقد أصبح عروبة فيما بعد أحد كبار قادة الفتوحات في جيش المهديّ، وقد تمكّن فعلاً من تحقيق النصر للمهديّ، خاصة في «تاهرت» عاصمة قبيلة زناتة البربريّة التي دخلها عروبة بعد حصار شديد، فسقطت سنة ٢٩٩ هـ / ٩١١ م. فاستباحت، وقتل من أهلها ثمانية آلاف. وقد جعل عروبة تاهرت مقراً له ومنطلقاً لحملاته العسكريّة، لحساب سيّده المهديّ، في أقصى المغرب. بيد أن عروبة هذا، قد لاقى حتفه على يد عبيد الله، كما لاقى حتفه من قبل أبو عبد الله الشيعيّ على يد عروبة بأمر من عبيد الله. لذلك وصف أحد كبار الباحثين المعاصرين شخصية عبيد الله المهديّ، بأنها كانت «مصنوعة من المادّة الصلبة التي صنعت الزعماء والقادة والمغامرين، العزم، والمثابرة، والشجاعة، والإقدام... أمّا العرفان بالجميل فأمر لا شأن له في تكوين هذا الرجل... وكانت

١ - المرجع السابق، ص ٥١ - ٥٢

القوة الدافعة والحافز الشديد ، حبه للقوة والسيطرة ، التي هي غاية تبرّر كل وسيلة في سبيل الوصول إليها^١ .

ومن تطوّر الأحداث فيما بعد ، يتّضح جلياً أنّ غاية عبيد الله لم تكن دينيّة بقدر ما كانت سلطويّة. فهو لم يصرّ على الأهلين بأنّ يعتنقوا المذهب الشيعيّ الإسماعيليّ، مع أنّ معظم سكّان المدن كانوا من السنّة. وقد جعل مذهبه مغلفاً بفشاه رقيق من السنّة ومذاهب شيعيّة أخرى. وبدأ العنصر الدينيّ في الدعوة ينحسر ليحلّ محله العنصر العلمانيّ، واستحال عبيد الله المهديّ، الزعيم الدينيّ، شيئاً فشيئاً إلى حاكم إداريّ. فقد كان عليه أن يحكم ملكاً شاسعاً يمتدّ نظريّاً من برقة إلى مشارف فاس. فراح يحذو حذو الأغالبة في الحكم وتصريف الشؤون، مستفيداً من تنظيمهم الذي على رأسه إداريّون وفنّيون وموظّفون مدرّبون، أمّا في المراكز العليا الحسّاسة، فقد أقام إسماعيليّين من جماعته، وبعث إلى الولايات عمالاً من قبيلة كتامة. أمّا القضاة فكانوا إسماعيليّين. وقد حرص عبيد الله على حسن اختيار عمّاله، ويشهد على ذلك الأعمال العظيمة التي كانوا يقومون بها في خدمة الدولة، والتي لم تقتصر على قمع الحركات الانفصاليّة والقبض على زمام الأمور، بل تعدّت ذلك إلى ما هو أكثر مستقبليّة، إذ تمكّن عمال طرابلس الغرب من البدء بالتحرّش بمصر التي كانت تتخبط في حالة من الفوضى السياسيّة. وفي صقلية، أفلح العمّال في تنظيم الانتقال من حكم الأغالبة إلى الحكم الفاطميّ، وذلك عن طريق المصالحة أحياناً، أو عن طريق القوة أحياناً أخرى. وكانت مهمّة الأسطول الذي انتقل الآن من الأغالبة إلى الفاطميّين، كما كانت أتاام الأغالبة؛ القيام بغزوات على شواطئ إيطاليا الجنوبيّة وغيرها من البلدان الأوروبيّة بقصد إزعاجها، وحماية شواطئ إفريقيّة الشماليّة من غزوات الروم. ورجّح بعض المؤرّخين أنّ بخارة الأسطول آنذاك كانوا لا يزالون من مرتزقة الروم^٢.

١ - حشي، صانعو التاريخ العربي، ص ١٥٩

٢ - المرجع السابق، ص ١٥٠

على العموم، لم يكن من السهل على أيّ كان، أن يتمكن من تثبيت أقدام إمبراطورية جديدة في قلب ذلك العالم المتفجّر، مثلما فعل عبيد الله، الذي لم يتوان عن استعمال شتى أساليب العنف والدمّ والدهاء من أجل صون مملكته الجديدة وتوسيعها.

فعلى الصعيد الداخلي، كان على عبيد أن يجمع سلسلة من الثورات التي قامت ضده لأسباب عدّة، منها النّعمة التي قابل بها بنو كتامة عمليّة قتل أبي عبد الله، وقد زعم بعضهم أن أبا عبد الله لم يمّت، وأنه لا يزال حيّاً يطلب إليهم « أن يحاربوا الآن من كان يطلب إليهم أن يحاربوا من أجله ». بينما أعلنت قبيلة أخرى عن ظهور مهديّ جديد، ناسبين المهديّة إلى أحد الأطفال، فسارع عبيد الله إلى إرسال ابنه « القائم » لقمع تلك الحركة، وقد تمكّن القائم من تخريب مضارب القبيلة وإحراقها وأخذ الطفل مع عدد من الأسرى إلى عاصمة أبيه، حيث قُتلوا جميعاً. ووسط هذا العنف، قامت الفتن الخطيرة في مختلف أنحاء المملكة الجديدة، فهدّدت كيائها الطريّ جدّاً، بيد أن عبيد الله قد تمكّن من التغلّب عليها جميعاً برباطة جأش قلّ نظيرها. وراح، في الوقت ذاته يتطلّع إلى التوسّع شرقاً نحو مصر، وغرباً نحو دولة الأدارسة الشيعيّة، ونحو قرطبة التي كان قد تسنّم عرشها بعد ظهور عبيد الله بقليل، الأمويّ عبد الرحمن الثالث الذي أعلن نفسه، هو الآخر، خليفة سنة ٣١٧ هـ / ٩٢٩ م. ولأوّل مرّة في التاريخ، انقسم العالم الإسلاميّ إلى ثلاث خلافات متعادية: العبّاسيّة في بغداد، والأمويّة في الأندلس، والفاطميّة في إفريقية. ولقد كان المجال الوحيد للتوسّع أمام الخلافة الأمويّة الأندلسيّة، المجال الجنوبيّ، أي الدولة الفاطميّة. فكان على عبيد الله أن يحتاط لهذا الخطر. وقد استعمل الأمويّون في الأندلس قبيلة صنهاجة السنيّة لتكون رأس حربة لهم في إفريقية، تزرع الفتن وتشر الدمار.

سيطر عبيد الله على معظم دولة الأدارسة الذين انكفأوا إلى فاس. وفي الوقت نفسه، سارع إلى البدء ببناء عاصمة جديدة منيعة، اختار لها موقعاً يحيط

به البحر من ثلاث جهات، يقع على مسافة سبعين ميلاً جنوبي القيروان. وقد جاءت عاصمته هذه كناية عن حصن منيع يعتصم به عند الحاجة، ومنه يوجه هجماته على الخارجين عليه، ويوجه حروبه الخارجية. وأطلق على هذه العاصمة الحصن اسم المهديّة نسبة إليه. وقد «جعل لها سوراً محكماً وأبواباً عظيمة وزن كل مصراع مائة قنطار». وقد أشرف المهدي شخصياً على بناء مدينته المحصنة، التي احتوت على دار للصناعة، وأهراء للطعام، وخزانات للمياه، إضافة إلى القصور والدور، فلماً فرغ منها نظر إليها وقال: «اليوم أمنت على الفاطميات»^١.

كانت هذه العاصمة المحصنة أشبه برأس حربة موجهة إلى قلب مصر^٢. وكان بناؤها منماً عن أن مصر، كانت الغنيمة التي تطلع إليها عبيد الله بشوق، ذلك أن وراء مصر إلى الشرق، عدوة اللدود العباسيين. وقد كان الحكم في مصر، يومذاك، عباسياً، وكان مسوداً بالفوضى والقلق، إذ كانت الفترة انتقالية من حكم الطولونيين إلى الأخشيديين، أما الخنوع للعباسيين فكان اسمياً، ولم يكن الخليفة العباسي بدوره مستقلاً تام الاستقلال، بل كان خاضعاً لرئيس حرس البلاط، القائد التركي الحصري.

وكان المهدي قد حاول سنة ٣٠٢ هـ / ٩١٤ م. الاستيلاء على الإسكندرية، إذ أرسل حملة بحرية بقيادة رجل يدعى حُباسَة، وما أن نزل الجيش الاسماعيلي في مصر، حتى أرسل الخليفة العباسي الثامن عشر: المقتدر، جيشاً إليها بقيادة مؤنس الخادم لصدّ الهجوم الفاطمي. وبعد قتال شديد تميّز بالكرّ والفرّ، «انهزم المغاربة أصحاب عبيد الله العلوي، وقتلوا وأسروا، وبلغ عدد القتلى سبعة آلاف مع الأسرى، وهرب الباقيون. فلماً وصلوا إلى الغرب، قتل المهديّ قائده حُباسَة». وبعد خمس سنوات، وكانت مدينة المهديّة قد أنجزت، أرسل عبيد الله حملة ثانية إلى

١ - ابن الأثير، الكامل، ج ٨، ص ٩٤ - ٩٥.

٢ - حنّ، صانعو التاريخ العربي، ص ١٥٦.

مصر، بقيادة ابنه أبي القاسم القائم هذه المرة، «بعد أن جهّز لها جيشاً كبيراً»^١ فتمكن ابن عبيد الله من دخول الإسكندرية التي فرّ منها العامل العباسي، ومن الإسكندرية انتقل القائم إلى الجيزة، فملك الأشمونين وجزءاً كبيراً من الصعيد، وكتب إلى أهل مكة المكرمة يدعوهم إلى الدخول في طاعته، فلم يقبلوا. ومرة أخرى، سارع الخليفة العباسي إلى إرسال مؤنس الخادم لقتال القائم الفاطمي، فنشبت بين القوتين معارك بحرية وبرية قاسية، كان النصر بنتيجتها للقائد العباسي مؤنس الخادم، الذي لُقّب منذ ذلك الحين بمؤنس المنظّر. أمّا القائم، فعاد إلى إفريقية مهزوماً بعد أن فقد أكثر رجاله^٢.

وهكذا، لم يتسنّ لعبيد الله أن يحقق حلمه الكبير، وإن كان هذا الحلم سيتحقّق على يد من سليله، حين أصبح مصر قاعدة الخلافة الفاطمية. أمّا عبيد الله، فقد مات سنة ٣٢٢ هـ / ٩٣٣ م. في العاصمة التي أنشأها وعمره أكثر من ستين سنة بقليل. وقد روي أن ابنه أبا القاسم، قد أخفى موته لمدة سنة كاملة، خوفاً من أن يختلف الناس إذا علموا بذلك. ولم يعلن القائم عن موت أبيه إلا بعد أن تدبّر أمور المملكة بشكل كامل، وقضى على كل صاحب فتنة محتمل^٣.

مهما كان الرأي لعبيد الله المهدي، ومهما كان أصل هذا الرجل، فما لا يمكن تجاهله هو أنه استطاع أن يحقق حلماً شيعياً كان عمره أقلّ من ثلاثة قرون بقليل، بإنشائه خلافة شيعية عظيمة، سوف تغير، وإن إلى حين، شيئاً من مجرى التاريخ. وإذا اعتبرنا بدء الخلافة الفاطمية مع إعلان المهدي نفسه أميراً للمؤمنين، يكون عبيد الله المهدي، الخليفة الفاطمي الأول قد حكم من سنة ٢٩٧ هـ / ٩٠٩ م. إلى سنة ٣٢٢ هـ / ٩٣٣ م. لتنتقل الخلافة من بعده إلى ابنه الوحيد: أبي القاسم الملقّب بالقائم بأمر الله.

١ - ابن الأثير، الكامل، ج ٨ ص ٨٩، ١١٣ - ١١٤

٢ - المرجع السابق، ص ٢٨٤

إذا كان الفاطميون مدينين لأبي عبد الله الشيعي بتأسيس خلافتهم، دعوة وقوة، في بلاد المغرب، فهم مدينون بالقدر نفسه إلى رجل آخر لا علاقة له بالسلالة الفاطمية، حتى إنه ليس من أصل شيعي ولا إسماعيلي ولا حتى مسلم ولا عربي، هم مدينون له بإنشاء أمبراطوريتهم العظيمة. هذا الرجل، اسمه جوهر الصقلي، ونادراً ما ذكر اسمه كاملاً، إنما ذكر غالباً باسم جوهر فقط. فجوهر هذا، ولد في أرض الروم مسيحياً، وقد سبي إلى القيروان مملوكاً، وراح يترقى في الوظائف إلى أن غدا فاطمياً تمكّن من تحقيق ما عجز عنه ثلاثة خلفاء فاطميين على التوالي، إذ فتح مصر للخليفة الفاطمي الرابع المعز لدين الله (٣٤١ - ٣٦٥ هـ / ٩٥٣ - ٩٧٥ م). وأسّس فيها مدينة القاهرة التي ستصبح قاعدة الخلافة الفاطمية، ومن ثم أشهر مدن القارة الإفريقية على الإطلاق. كذلك بنى جوهر في القاهرة المسجد الجامعي المعروف بالأزهر، وهو أقدم المؤسسات الإسلامية وأعظمها طراً في العالم قاطبة. وهو الذي طرد الأخشيديين من مصر إلى سورية نهائياً سنة ٣٥٩ هـ / ٩٦٩ م^١.

قبل جوهر، كان قد تعاقب على الخلافة الفاطمية ثلاثة خلفاء بعد الخليفة الأول عبيد الله المهدي، أولهم ابنه القائم بأمر الله أبو العباس. ورغم أن القائم قد آخر إعلان موت أبيه سنة كاملة ليرتّب له أمور الحكم قبل أن يثور المشرقيون، فما أن آلت إليه الخلافة حتى اندلعت نار الثورة في بعض أجزاء المملكة، وانحاز بعض زعماء القبائل إلى عبد الرحمن الناصر الأموي بالأندلس. كذلك ثار على القائم خارجي اسمه أبو يزيد، كان قد اشتهر بعدائه للإسماعيلية، وقد اجتمع إليه سائر الخوارج، فقويت بهم شوكته، خاصة بعد أن أخذ عليهم البيعة لنفسه على قتال

١ - راجع ابن خلكان، ج ١ ص ٢٠٩ - ٢١٢، المقريزي، ج ١ ص ٣٧٧ وما بعدها، ابن الأثير، الكامل، ج ٨ ص ٥٩٠ - ٥٩١، ج ٩ ص ٩٠.

الإسماعيلية وسببهم واستباحة غنائمهم. فحاصر أبو يزيد المهدية الحصينة حصاراً شديداً، مما أحلّ البلاء والمجاعة في أهلها الذين اضطروا إلى أكل الدواب الميتة. وقد استطاع بعضهم أن يهرب مهاجراً إلى مصر وطرابلس وبلاد الروم. بيد أن أصحاب يزيد المحاصرين، تمكنوا من القبض على عدد كبير من الفارين، فكانوا يشقون بطونهم طلباً للذهب المهرب. وراحت الغوغاء تتوافد على أبي يزيد الخارجي من كل صوب بهدف النهب وسلب المغنم. ولما تأكد للخوارج أنه لم يبق في المهدية ما ينهب، تخلّوا عن أبي يزيد، الذي فكّ الحصار تاركاً المملكة الإسماعيلية في وضع من القلّة كان على القائم أن يجتهد للتغلب عليه. وعندما مات القائم سنة ٢٢٤ هـ / ٩٤٦ م. كان أبو يزيد لا يزال يشكل تهديداً جدياً للمملكة الفاطمية، وكان على خلفه المنصور، أن يبدأ ولايته وسط هذا الخطر.

كان على إسماعيل، ابن أبي القاسم القائم بأمر الله، أن يفعل، عند موت أبيه، كما فعل أبوه عند موت جدّه، فكتب موت أبيه عن الناس «فأبقى الأمور على حالها، ولم يتسم بالخليفة، ولم يغيّر السكة، ولا الخطبة، ولا البنود...» ذلك أنه كان في حالة حرب مريرة مع أبي يزيد الخارجي في سوسة، المدينة التونسية الواقعة على المتوسط. وكان أبو يزيد يحاصر تلك المدينة منذ أشهر. وما أن أصبح الأمر لإسماعيل حتى شنّ هجوماً بحرياً صاعقاً على المحاصرين، مما أدّى إلى انهزامهم شرّ هزيمة، بعد أن قُتل من الخوارج عدد كبير، وفرّ أبو يزيد إلى القيروان، فاصطحب عياله ولجأ إلى سبيبة على مسافة يومين من القيروان. حينها أعلن إسماعيل عن موت أبيه، وتسّم سدة الخلافة بعد أن لقب نفسه بالمنصور. وراح يتعقب الزعيم الخارجي من مكان إلى مكان متكيداً مع جيشه عناء شديداً بسبب وعورة المسالك التي سلّكوها، وقد أصيب المنصور بالإعياء والمرض، قبل أن يتمكن من إدراك أبي يزيد في قلعة كتامة، حيث حصلت معركة يانسة وشديدة.

١ - راجع: ابن الأثير، الكامل، ج ٨ ص ٤٢٢ - ٤٢٤.

العنف والخسائر، سقط بنهايتها أبو يزيد صريعاً بعد أن فر أكثر رجاله. وكان انتقام المنصور منه عظيماً، إذ أمر بملخ جلده وحشوه تبناً. وأمر بالكتب إلى البلاد بالبشارة. وأصبح من السهل على المنصور فيما بعد أن يتغلب على بعض الخوارج الذين حاولوا الثورة عليه^١.

تميز المنصور بشجاعته وفصاحته وحسن تدبيره، إلا أنه لم يتمكن من توسيع مملكة جدّه بسبب سوء حالها الذي آلت إليه جراء ثورة الخوارج، فكان عليه أن يعمل على إعادة إنعاش البلاد، وتقوية الجيش، وإعادة بناء الأسطول. ومن إنجازاته إضافة إلى كل هذا، إنشاء مدينة المنصورية التي جعلها عاصمة ملكه. وينسب المحققون إليه الفضل في إعادة القرامطة للحجر الأسود إلى مكة، بعد أن أمرهم المنصور بوجوب إعادته. لكنّ عمر هذا الخليفة كان قصيراً، إذ مات سنة ٣٤١ هـ / ٩٥٣ م. وعمره تسع وثلاثون سنة إثر مرض أصابه بسبب تعرّضه للصقيع. وإثر دفنه في قصره، ولي الأمر بعده ابنه، معدّ، الذي لقّب بالمعزّ لدين الله، وكان عمره أربعاً وعشرين سنة^٢.

تميز الخليفة الفاطمي الرابع بالثقافة والولع بالعلوم والآداب وحسن التدبير وإحكام الأمور، وقد تمكن سريعاً من تطويع قبائل البربر التي دانت له وأطاعته على ما بينها من خلاف. وبعد أن أشاع الأمن في مملكته الإفريقية، راح يعدّ العدة لغزو مصر، التي تعتبر بالنسبة إلى موقعها باب بلاد الشام والعراق والحجاز. وعمل في الوقت نفسه على إنشاء الطرق داخل مملكته، وهياً الآبار على طريق مصر، وأقام المنازل على رأس كل مرحلة مسير. ولما وصلت أخبار وفاة الملك الأخشيدي كافور سنة ٣٥٧ هـ / ٩٦٧ م. راح يعدّ الجيش والمال لغزو مصر، إذ رأى أن فرصة تحقيق الهدف الذي عجز عنه أباه قد حانت. وما أن حلّت سنة

١ - ابن الأثير، الكامل، ج ٨، ص ٤٣٤، ٤٣٨ - ٤٤١

٢ - المرجع السابق، ص ٤٩٧ - ٤٩٨

٢٥٨ هـ / ٩٦٨ م. حتى كان أبو الحسن جوهر الصقلي على رأس جيش زاحف على مصر تنفيذاً لأمر مولاه.

دخل جوهر مصر بجيشه الإسماعيلي من دون مقاومة، ذلك أن العسكر الأخشيدي كان قد هرب قبل وصول الإسماعيليين وفور انتشار نبأ زحف جوهر الذي ما أن حطّ بمصر، حتى أذن المؤذنون بحيّ على العمل، وأقيمت الدعوة للمعز، وبدأ العمل ببناء القاهرة. وبعد وقت قصير، سير جوهر حملة إلى بلاد الشام بقيادة جعفر بن فلاح، فأطاح القرامطة والعباسيين والأتراك وأمتلك دمشق. ثم إن الروم دخلوا دمشق وسائر مدن المنطقة في السنة نفسها، ففضّل القائد الفاطمي عدم المقاومة نظراً لتفاوت القوى. وما أن خرج الروم من دمشق في السنة التالية حتى سارع القرامطة إلى انتزاعها من يد العامل الإسماعيلي بعد أن قتلوه. بينما انتقل الخليفة الفاطمي، المعز بأمر الله، إلى الديار المصرية، ومعه كنوز الخلافة وهيئاتها كاملة، فاستقبله المصريون بالتبجيل والإكرام، ورحبوا بنقله مركز خلافته إلى عاصمته المدينة الجديدة التي بناها جوهر: القاهرة.

قبل نهاية سنة ٣٦٣ هـ / ٩٧٣ م. كان على المعز أن يصدّ القرامطة عن مصر بإيقاع الخلاف بينهم وبين حلفائهم إذ هاجموا في عقر ملكه، ولما تمّ له ذلك، أرسل حملة بأثرهم إلى بلاد الشام، وبدأت حرب عصابات في دمشق بين المغاربة الفاطميين من جهة. والقرامطة وأعوانهم من جهة أخرى، عانى منها أهل المدينة معاناة كبرى، لكثرة ما عاث بها المقاتلون جميعاً نهباً وإحراقاً وسلباً وتدميراً، وشهدت دمشق موتاً كثيفاً وفقرًا وجوعاً وبرداً ومرصاً. أمام هذا الواقع المرير، تحرّكت الخلافة العباسية فأرسلت قائداً تركياً اسمه أفتكين، لينتزع دمشق من أيدي المتقاتلين فيها.

دخل أفتكين المدينة بقوة، وقطع خطبة المعز الفاطمي، وخطب للطائع العباسي. كان ذلك في شعبان ٣٦٤ هـ / ٩٧٤ م. وبينما كان المعز يتجهّز لشنّ

الحرب على القائد العباسي التركي، مات، بينما أكمل أفتكين طرد المغاربة الفاطميين من صيدا وطبرية، بعد أن قتل منهم أعداداً هائلة حتى كاد يبيدهم.

خلف المعز بالله، ولده أبو منصور نزار الملقب بالعزیز بالله. الذي سارع إلى إرسال جوهر، هذه المرة، ليعالج وضع بلاد الشام، مثلما فعل بمصر^١.

وصل جوهر إلى محيط دمشق في ذي القعدة من سنة ٣٦٥ هـ / ٧٩٥ م. وأقام على المدينة حصاراً شديداً، ثم بدأ بشن الغزوات، حتى اشتعلت حرب قاسية تكبد فيها الطرفان عدداً كبيراً من القتلى، مما جعل القائد التركي يستنجد بالقرامطة. وخوفاً من أن يقع بين جيشين، فكّ جوهر الحصار عن دمشق، بينما كان القرامطة في طريقهم إليها من الأحساء. ويتحالف جند الدولة العباسية والقرامطة، حاصر خمسون ألف جندي جوهر في عسقلان، حيث انقطعت الإمدادات عن القائد الفاطمي، وقد كان ممكناً أن تصله الإمدادات عبر البحر فيما لو لم يكن الزمن شتاءً. وقد عانى جوهر وجيشه التعب الكثير من هذا الحصار، حتى أكلوا الجيف. حينها طلب جوهر إلى أفتكين أن يجتمع به، «فتقدم إليه واجتمعا راكبين. فقال جوهر لأفتكين:

«قد عرفت ما يجمعنا من عصمة الإسلام وحرمة الدين، وقد طالت هذه الفتنة. وأريقت فيها الدماء، ونُهبت الأموال، ونحن الموالخذون بها عند الله تعالى. وقد دعوتك إلى الصلح والطاعة والمواقة، وبذلت لك الرغائب، فأبيت إلا القبول ممن يشبه نار الفتنة» فرأى الله تعالى، وراجع نفسك، وغلب نفسك على هوى غيرك».

عندما سمع أفتكين هذا الكلام، لم يسعه إلا أن يفكّ الحصار عن جوهر، شريطة أن يعود برجاله إلى مصر، ولم يصغ لاعتراض القرامطة الذين أرادوا إماتة إخوانهم الإسماعيليين جوعاً.

١ - ابن الأثير الكامل، ج ٨ ص ٥٩٠ - ٥٩٦، ٥٩٧ - ٦١٤، ٦١٦ - ٦٢٠ - ٦٢١، ٦٤٢ - ٦٤٣، ابن خلدون، ج ١ ص ٥٠ وما بعدها.

٢ - إشارة إلى القرامطة الذين ممنوا أفتكين عن القبول بالصلح قبل ذلك.

عاد جوهر إلى مصر، وشرح الوضع للخليفة، فكان القرار بأن يتوّد الحملة الخليفة شخصياً إضافة إلى جوهر، وبذلك صدّق علن القرامطة الذين نصّحوا أفتكّن بأن يمتنع عن فكّ الحصار عن جوهر، لأنّه سيعود... لقتالهم.

التحم الجيشان في محيط الرملة في المحرّم من سنة ٢٦٧ هـ / ٩٧٧ م. بعد أن رفض أفتكّن عرض الخليفة بأن يبذل له الرغائب والأموال والولايات، وبأن يجعله مقدّم عسكره، والمرجع الأوّل في دولته. وكانت نتيجة المعركة الأولى مقتل نحو عشرين ألفاً من القرامطة وعسكر الخلافة العبّاسيّة. وأسر أفتكّن وحُمل إلى الخليفة الفاطميّ الذي أبى إلا أن يكرّمه ويعزّزه ويحمّله معه إلى مصر ويجعله من أخصّ خدمه وحجّابه. أمّا القائد القرمطيّ، فانهزم إلى طبريّة، وإذ رفض الاستسلام للخليفة الفاطميّ رغم بذله له الوعود بالإكرام، أرسل إليه هذا الخليفة السياسيّ عشرين ألف دينار، وجعلها له كلّ سنة، وسمح له بالعودة إلى الأحساء أمناً.

ولمّا أقدم أحد وزراء العزيز على دسّ السمّ لأفتكّن في القاهرة بعد سنوات، حزن العزيز، وحبس الوزير الذي اتّهم بدسّ السمّ، وأخذ منه خمسمائة ألف دينار^١.

وبذلك أحكم الفاطميّون قبضتهم على دمشق، وبدأوا حملاتهم على الحجاز. وقبل أن تنتهي سنة ٢٦٥ هـ / ٩٧٥ م. خطّب للخليفة الفاطميّ بمكّة المكرّمة، بعد أن أرسل إليها جيشاً حاصرها، وضيّق على أهلها، فلقوا شدة عظيمة قبل أن يعترفوا بسلطة الفاطميّين.

بلغت الخلافة الفاطميّة في عهد العزيز بالله (٢٦٥ - ٢٨٦ هـ / ٩٧٥ - ٩٩٦ م.) أوج عزّها وأوسع مداها، فاضع هذا الخليفة لسلطته المناطق الواقعة بين

١ - ابن الأثير، الكامل، ج ٨ ص ٦٥٦ - ٦٦٢، ابن القلاسي، ذيل تاريخ دمشق، نشر أمدورز (لیدن ١٩٠٨) ص ١٨ - ١٩

المحيط الأطلسي والبحر الأحمر، إضافة إلى تدخله المباشر في بلاد الشام والحجاز واليمن، وصولاً حتى الموصل أحياناً. وقد أظهر العزيز تعاوناً مع النصارى واليهود، «فولى عيسى بن نسطور النصراني كتابته واستتاب بالشام يهودياً». وكانت جاريته الأثيرة امرأة نصرانية عين أحد أخويها رئيس أساقفة في القاهرة والآخر في القدس. وقيل إن «النصارى واليهود قد اعتزوا بوزارة النصراني في قصر الخليفة، ونياة اليهودي في دمشق، وإن هذين قد أذلاً المسلمين، فعمد أهل مصر إلى كتابة قصّة جعلوها في شكل صورة على قراطيس، فيها: - بالذي أعزّ اليهود بمنشا، والنصارى بعيسى بن نسطورس، وأذلّ المسلمين بك ألا كشفت ظلامتي - واقعدوا تلك الصورة على طريق العزيز، فلما رآها أمر بأخذها، فلما قرأ ما فيها، ورأى الصورة، علم ما أريد بذلك، فقبض على النصراني واليهودي وأخذ منهما أموالاً كثيرة^١». وفي عهد العزيز، اشتدت حركة الإنشاء والتعمير في مصر، حيث تمّ تجديد قصر الذهب بالقاهرة، وجامع القرافة، وجامع القاهرة، وقصور عين شمس، ودار الصناعة، وقنطرة الخليج، وسواها من الأعمال العمرانية. وغني العزيز كأبيه المعز، بنشر المذهب الشيعي، وحتم على القضاة أن يصدروا أحكامهم وفق مذهبه، كما حصر المناصب الهامة بالإسماعيليين، وأصبح لزماً على الموظفين السنّة الذين تقلّدوا المناصب الصغيرة أن يسيروا وفقاً لأحكام المذهب الإسماعيلي^٢.

وعندما مات العزيز سنة ٣٨٦ هـ / ٩٩٦ م. كان قد مضى خمس سنوات

- ١ - ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، (لیدن ١٨٥٥) ج ٢، قسم ٢، ص ١١٠، ابن خلكان، ج ٢ ص ٥٤
- ٢ - «منشا» هو اسم اليهودي الذي ولي دمشق، وعيسى هو الوزير (الكاتب) النصراني الذي عينه الخليفة في قصره.
- ٣ - ابن الأثير، الكامل، ج ٩ ص ١١٦، قابل ابن القلائسي، ص ٣٣، ابن تغري بردي، ج ٢، ق ٢، ص ٤، السيوطي، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، (القاهرة ١٣٢١ هـ) ج ٢ ص ١٤
- ٤ - راجع: مغنية، ص ٧٠ - ٧١ بالاستناد إلى مصر في عصر الدولة الفاطمية، نقلاً عن اتعاظ الحنفا للمقريزي، ص ١٩٧، وإلى: الحاكم بأمر الله، لمحمد عبد الله عتار، طبعة ثانية، ص ٨٩.

على موت ذلك القائد الفذ الذي أسس للفاطميين أمبراطورية، بعد أن كان عبداً نصرانياً ترقى في سلم الدولة حتى غدا الفاتح الأكبر: جوهر. وقد مات جوهر وضيعاً، بعد أن كان العزيز... قد عزله. ولما مات العزيز، كان عمر ابنه البكر إحدى عشرة سنة وستة أشهر... فبان وكأن الفاطمية في خطر.

الحاكم بأمر الله

حيرت شخصية الحاكم بأمر الله عقول الباحثين والمؤرخين، حتى خلصوا إلى اعتبارها تغرق في التناقضات. فهو فوضوي ومنظم، كريم ويخيل، شجاع وجبان، عاقل ومجنون، سفاك للدماء ورحيم، محلل للحرام ومحرم للحلال، متعصب ومتسامح... وقد بلغ هذا التناقض حد الغرابة في اسمه، فهو حيناً الحاكم بأمر الله، وحيناً الحاكم... بأمره، وشتان بين المعنيين. أما اسمه قبل الخلافة، فكان: أبا علي منصوراً.

هذا الخليفة الفاطمي، بويح بالخلافة، لما مات والده، وهو في الحادية عشرة من عمره، فتولّى الوصاية عليه أستاذه ومربيّه أرجوان الحادم «فقام بأمره، وبائع له، وأخذ له البيعة على الناس». ومع ذلك، ما كاد الخليفة الفتى يبلغ الخامسة عشرة من عمره، حتى أمر بقتل أرجوان «لأنه كان يضايقه!». ذلك أنه أراد الاستقلال بالحكم^١.

والجدير ذكره، أن الخلافة الفاطمية قد بلغت ذكاً سيئاً من التردّي بعد موت العزيز، بسبب سيطرة قبائل البربر على الحكم، «فانبسطت كتامة في البلاد،

١ - لمزيد من المعلومات حول شخصية الحاكم بأمر الله، راجع: ابن خلكان، ج ٢، ص ٤ - ٧، ابن خلدون، ج ٤، ص ٥٩ - ٦١، ابن تقي بري، ج ٢، ص ٦٢ وما بعدها؛ السيوطي، حسن المحاضرة، ج ٢، ص ١٤ - ١٥، ابن القلانسي، ص ٦٦ - ٦٧، ٧٩، ٨٠، ابن حماد، أخبار ملوك بني عبيد (الجزائر ١٩٢٧) ص ٥٤ - ١٥٥، عبد الله عتّان، الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية، مؤسسة الخانجي (القاهرة ١٩٥٩) ص ١٠٢ وما بعدها.

وحكموا فيها، ومدّوا أيديهم إلى أموال الرعية وحرّيمهم، وأرجوان مقيم مع الحاكم في القصر يحرسه^١ .

وقد حاول أرجوان بكلّ ما له من سطوة أن يخفّف من الفوضى والثورات والانتفاضات في أنحاء الأمبراطورية الفاطمية، ولكنّه لم يفلح. فقد استطاع شيخ كتامة وسيدّها: الحسن ابن عمار، أن يحكم إفريقية بأمره، بعد أن لقّب نفسه بأمين الدولة، وهو أوّل من تلقّب في دولة الفاطميين. ولو لم يحتقر ابن عمار عمر الخليفة الفاطمي الجديد، «ذلك الصبيّ ذي السنوات الاحدى عشرة» لكان قتله، فلقد كان متأكّداً من أنّه لن تقوم لذلك الطفل قائمة، ومن أنّ الخلافة لن تكون إلّا لكتامة بعد ذلك اليوم. فراح يستعمل الولاة على المناطق، إلى أن دبّت الفوضى في مصر نفسها، لا بل في قصر الخلافة بالذات، بين أرجوان وجماعته من جهة، وابن عمار وأنصاره من جهة أخرى. في الوقت نفسه، عصى أهل صور وظاهر فيهم علاّقة. وعصى المفرّج بن دغفل بن الجراح، ونزل على الرملة وعاث في البلاد. وبدأ الروم يفتزون أطراف الأمبراطورية ويساندون العصاة. واستقوى الحمدانيون الذين راحوا يشنّون الغزوات على المدن السورية. ورغم أنّ أرجوان قد تمكّن من ضرب كلّ هذه التحركات بواسطة قائد فاطمي شجاع، اسمه: جيش، فقد اضطر أرجوان، بعد موت جيش بمرض البواسير، إلى أن يعقد صلحاً مع الروم ليتمكن من حفظ أمن البلاد قدر المستطاع. غير أنّ الحاكم، عندما بلغ الخامسة عشرة من عمره، ثقل عليه نصح أرجوان، فقتله سنة ٣٨٩ هـ / ٩٩٨ م. واستوزر نصرانياً اسمه فهد بن إبراهيم، كان يعمل مساعداً لأرجوان، وجعل الحسين بن جوهر مكان أرجوان، ولقّبه بقائد القواد، وأمره بقتل الحسن بن عمار الذي لقّب نفسه بأمين الدولة، ثمّ أمر بقتل الحسين بن جوهر الذي قتل بن عمار، ولم يزل الحاكم يقيم الوزير بعد الوزير ويقتلهم، وهو بعد في الخامسة عشرة من عمره^٢.

١ - ابن الأثير، الكامل، ج ٩، ص ١١٨ - ١١٩

٢ - المرجع السابق، ج ٩، ص ١٢٠ - ١٢٢

قسم دارسو الحاكم شخصيته إلى أربعة أدوار هي :

١ - من سنة ٢٨٦ هـ / ٩٩٦ م. إلى سنة ٢٩٠ هـ / ٩٩٩ م. وكان في هذه الحقبة « لا يملك من السلطان شيئاً لصغر سنه ».

٢ - من سنة ٢٩١ هـ / ١٠٠٠ م. إلى سنة ٢٩٥ هـ / ١٠٠٤ م. حيث انتزع لنفسه سلطة كبيرة رغم صغر سنه، أظهر بخلها تعصباً شديداً للمذهب الإسماعيلي.

٣ - من سنة ٢٩٦ هـ / ١٠٠٥ م. إلى سنة ٤٠١ هـ / ١٠١٠ م. ترك سياسة التعصب، واتبع سياسة التسامح مع جميع الطوائف.

٤ - من سنة ٤٠٢ هـ / ١٠١١ م. إلى سنة ٤١١ هـ / ١٠٢٠ م. حيث ظهرت سياسته بظهور القلق والتذبذب، رغم أنها ساعدت على إقرار الأمن وقضت على الفوضى التي كانت سائدة في أوائل عهده.

هذا التقسيم، الذي جاء نتيجة تصرفات الخليفة الفاطمي السادس، من شأنه أن ينطبق على كبرى قراراته. ففي « حقبة التعصب » انتهى عهد التسامح الذي عاش فيه المسيحيون واليهود طيلة العهد الفاطمي الذي سبق للحاكم، إذ أجرى هذا الأخير عليهم التدابير المذلة التي كان عمر بن عبد العزيز والمتوكل قد فرضها عليهم، « ثم أضاف إليها فتوناً أخرى من الإذلال، مع أن والدته ووزيره كانا مسيحيين. فقد زاد سنة ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م. على القيود السابقة المتعلقة بالملابس تمييزاً للذمي عن المسلم، فأوجب على النصارى، متى دخلوا الحمامات العامة، أن يجعلوا في أعناقهم صليباً زنة الواحد منها خمسة أرتال (نحو كيلوغرامين) على أن يرسلوها متدلية على صدورهم؛ ورتب على اليهود، في مثل هذه الحال، أن يجعلوا في أعناقهم إطاراً من الخشب بالوزن نفسه، شدت إليه الأجراس المجلجلة^١ ». وفي العام نفسه، أمر بهدم الكنائس، وكان أهمها « كنيسة

١ - حثي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢، ص ٢٢١ بالاستناد إلى ابن خلكان، ج ٢ ص ١٥ سعيد ابن البطريق، ص ١٩٥، المقرئ، ج ٢ ص ٢٨٨، ابن خلدون، ص ٥٤

السيدة في دمشق، وكنيسة القيامة في القدس. وعمد، تطبيقاً للنصوص القرآنية التي حرمت الخمر، إلى الأمر باقتلاع الكرمة، وهي في مصر من مزروعات المسيحيين. أما من أبى الخضوع لهذه التدابير من أهل الذمة، فقد خيّر بين اعتناق الإسلام والرحيل إلى بلاد الروم. والظاهر أن عدد النصارى في مصر وسورية في عهد الحاكم - بعد النبي محمد بنحو أربعمئة سنة - كان مساوياً لعدد المواطنين من المسلمين إن لم يفقه. وبعد عشرين سنة، عمّد ابن الحاكم وخلفه الملقّب بالظاهر، بموجب معاهدة عقدها مع أمبراطور الروم، إلى إعادة بناء الكنائس التي هُدمت، ومنها كنيسة القيامة، ومع ذلك فإنّ تهديم هذا الأثر من آثار المسيحية قد أسهم في حمل الغرب على تجريد الحملات الصليبية على الأرض المقدسة^١.

لم تقتصر تصرفات الحاكم المتناقضة على معاملة أهل الذمة والرموز المسيحية، فهو أنشأ معهداً للعلوم العالية في القاهرة، ولم يمض ثلاث سنوات حتى هدمه ويطش بأساتذته. ووضع تشريعاً ضدّ الدعارة، وحظّر حتى ظهور النساء في شوارع القاهرة. ثم إنّه سنّ قوانين منع موجبها المآذب وحفلات الطرب، وحرّم بعض ألوان الطعام، كما حرّم لعب الشطرنج^٢.

ويعتبر بعض المتعاطفين مع الإسماعيليين والحاكم، أن هذا الأخير قد أظهر كرهه لمظاهر الراحة والتنعّم التي كان يفرق بها الشعب، فاستفاق الناس من نشوة الانهماك في الملذّات، ليواجهوا نظاماً أخلاقية دقيقة قاطعة لم يكن في تطبيقها هواة... فأعلن الناقصون الغرابة في أطواره، وأوجدوا تناقضاً في أحكامه المتناهية بالرحمة والقسوة، وصنّفوا تصانيف تناقلها المؤرّخون كلّ على هواه، مع أن الحاكم ظهر وسط الازدهار الفاطمي، فكان لغز عصره، بعيد الغور، واغر الابتكار، عقليته تسمو على مجتمعتها وتتقدّم عصرها بمراحل، وعبقريته يجب أن تتبوأ في التاريخ

١ - حثي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢ ص ٢٢٢

٢ - المرجع السابق.

مكانها اللائق، وشخصيته تفيض من خفائها على المجتمع الذي يقبض هو على أقداره ومصائره... وقد لازمها الخفاء لأن الدولة الفاطمية غيّبت منذ استقرارها بمصر، بتنظيم دعوتها المذهبية السرية وبثها، وكانت هذه الدعوة تُلقى في مجالس الحكمة، أحياناً بالقصر وأحياناً بالجامع الأزهر، وكان يشرف على إلقائها قاضي القضاة نفسه ثم داعي الدعوة الذي يليه في المرتبة والمنصب، وكان يُنتخب من أكابر فقهاء الشيعة المتفلمين من العلوم الدينية ومن أسرار الدعوة الفاطمية، يعاونه في نشر الدعوة اثنا عشر نقيباً وعدة كبيرة من النواب، يمثلونه في سائر النواحي. وكانت هذه الدروس الخاصة تُلقى، بعد مراجعة الخليفة وموافقته، في إيوان القصر الكبير، وتُعقد للنساء مجالس خاصة بمركز الداعي بالقصر، وهو المسقى بالمحلول، وكان من أعظم الأبنية وأرحبها. فإذا انتهت القراءة أقبل المؤمنون والمؤمنات على الداعي، فيمسح على رؤوسهم بعلامة الخليفة، ويأخذ العهد على الراغبين في دخول المذهب، ويؤذي له النجوى من استطاع، وهي رسم اختياري قدره ثلاثة دراهم وثلث، يُجبي من المؤمنين للإنفاق على الدعوة والدعاة. وكانت ثمة مجالس أخرى تُعقد بالقصر أيضاً لبعض الهيئات والطبقات الممتازة من أولياء المذاهب ورجال الدولة والقصر ونساء الحرم الخاص، ويسودها التحفظ والتكتم، ويُمنع الكافة من مشاهدتها، وتُعرض فيها الدعوة الفاطمية السرية على يد دعاة تفقهوا في درسها وعرضها. وكان للعمامة أيضاً نصيب من تلك المجالس، فيُعقد للرجال مجلس بالقصر، ويُعقد للنساء مجلس بالجامع الأزهر، ويُعقد مجلس للأجانب الراغبين في تلقي الدعوة. وكان الداعي يشرف على هذه المجالس جميعاً إما بنفسه أو بواسطة نقبائه ونوابه، وكانت الدعوة تنظم وترتب طبقاً لمستوى الطبقات والأذهان، فلا يتلقى الكافة منها سوى مبادئها وأصولها العامة، ويرتفع الدعاة بالخاصة المستنيرين إلى مراتبها وأسرارها العليا. ثم أنشأ الحاكم بأمر الله دار الحكمة سنة ٣٩٥ هـ / ١٠٠٥ م. فأضحت مدرسة للعلوم الدينية والزمنية، ومشوى للدعوة السرية الفاطمية، احتشد فيها الدعاة والنقباء السريّون من كل

حزب، وقد ظهر في أواخر العهد أبو الفضل حمزة بن علي الزوزني، فأُضفى على شخصية الحاكم قدسية ناسوت الألهوت، ثم بدأ يوجّه رسائله إلى المستجيبين لدعوته ابتداء من العام ٤٠٨ هـ / ١٠١٧ م. ووجّه مثلها الشيخان إسماعيل التميمي، وعليّ بن محمّد السموقي الملقّب ببهاء الدين، الذي استمرّ يدعو لهذا المذهب حتّى سنة ٤٣٠ هـ / ١٠٣٨ م. وتشرح تلك الرسائل ماهية الدعوة، وتُرشد المستجيبين لأصول المذهب وروابطهم ببعضهم وصلاتهم بغيرهم. وقد وُجّهت الرسائل إلى مختلف الممالك والأمصار بما فيها الشام، والعراق، وإيران، والحجاز، واليمن، ومصر، والهند، والبحرين، وإلى ملك الروم في القسطنطينية، وأقطار أخرى في الشرق والغرب.

وفي سنة ٤١١ هـ / ١٠٢٠ م. اختفى الحاكم وهو في طريقه إلى جبل المقطم، حيث يُظنّ أنّه كان قاصداً إلى المرصد الفلكي الذي أقامه الفاطميون لعالمهم الفلكي الكبير عليّ بن يوسف، فكان اختفاؤه في تلك الظروف التي تشبه الأساطير في غموضها وخفائها وانعدام كلّ أثر يدلّ على مصيره أو يلقي ضوءاً على ملابسات اختفائه أو مصرعه، عاملاً جديداً في إذكاء شغف الحفّاء والتطلّع إلى ما وراء الغيب وإذكاء الدعوات السريّة^١.

تعدّدت الروايات التاريخية حول نهاية الحاكم واختفائه، وبلاستناد إلى أكثرها، يُستدلّ أنّه قد قتل، وأُخفيت جثته، ممّا خلق ذلك الاعتقاد باختفائه حيّاً. ومن أشهر الروايات في هذا المجال تلك التي تقول بأنّ أخت الحاكم هي التي دبرّت قتله، بعد أن «أوحشها وأرسل إليها مراسلات قبيحة يقول فيها: - بلغني أنّ الرجال يدخلون إليك - وتهذّدها بالقتل»، فتأمّرت مع أحد كبار قوّاد الحاكم، واسمه بن دؤاس، مستغلّة خوف هذا الأخير من أخيها، وكان عرضها له: «بوسعك أن تحفظ نفسك ونفسي، فأنت تعلم ما يعتقده أخي فيك، وأنّه متى تمكّن

١ - سعيد الصغير، بنو معروف الدوروز في التاريخ، (بيروت ١٣٧٦ هـ) ص ٢٢٢ - ٢٢٥ بالاستناد إلى عتّان، الحاكم بأمر الله، ص ١٥٢، ١٦٢، ١٦٣، راجع مجلّد الدوروز من هذا المؤلف، الفصل الأول ص ١٠ وما يليها.

منك لا يُبقي عليك، وأنا كذلك، وقد انضاف إلى هذا ما تظاهر به (الحاكم) بما يكرهه المسلمون، ولا يصبرون عليه، وأخاف أن يثوروا به، فيهلك هو ونحن معه، وتنقلع هذه الدولة». وعندما أجابها بن دؤاس إلى ما تريد، أعلمته أن الحاكم «سيصعد إلى جبل شرقي حلوان في الغد، وليس معه سوى الركابي وصبي، وينفرد بنفسه، فقتيم رجلين تثق بهما، فيقتلانه والصبي، وتقيم ولده بعده، وتكون أنت مدبر الدولة، وأزيد في أقطاعك مائة ألف دينار».

ويبدو أن هذا ما حصل، ذلك أن الحاكم قد توجه بالفعل في اليوم التالي إلى ذلك الجبل «ومعه ركابتان، فأعاد أحدهما مع جماعة من العرب إلى بيت المال، وأمر لهم بجائزة، ثم عاد الركابي الآخر، وذكر أنه خلف الحاكم عند العين والمقصة. وصار الناس كعادتهم يخرجون كل يوم ملتصقين رجوعه، فلم يعد، مما جعل خواص الحاكم يقصدون الجبل بحثاً عنه، وإذا دخلوا ذلك الجبل، وجدوا الحمار الذي كان مطيته، وعلى قوائمه أثر لضربات سيف، وعليه سرجه ولجامه؛ وعلى مسافة من الحمار، بقرب بركة ثياه تقع شرقي حلوان، وجدوا ثيابه مزرزة بحالها لم تحل، وفيها أثر للسكاكين، فعادوا ولم يشكوا في قتله».

بهذه الحادثة الغريبة، إنتهت حياة ذلك الرجل الذي لا تقل أطواره غرابة عن ظروف مقتله واختفاء جثته. وكانت النساء أكثر الخلق ارتياحاً لنهايته، لشدة ما عانين من أحكامه الجائرة عليهن. من تلك الأحكام أنه كان قد منع النساء من الخروج من بيوتهن، وأمر بقتل من يخالف منهن هذا الأمر. وإذا «شكت إليه من لا قيم لها يقوم بأمرها» أمر التجار بأن يجولوا ببضائعهم على البيوت لبيعوها للنساء، وأمر من يبيع أن يكون معه ما يشبه المغرفة يساعد طويل، يمدّه إلى المرأة وهي وراء الباب، وفيه ما تشتريه، فإذا رضيت وضعت الثمن في المغرفة وأخذت ما فيها دون أن يراها البائع... فقال النساء من ذلك شدة عظيمة^٢.

١ - ابن الأثير، الكامل، ج ٩ ص ٢١٥ - ٢١٦

٢ - المرجع السابق، ص ٢١٧

كانت نهاية الحاكم سنة ٤١١ هـ / ١٠٢٠ م. فخلفه ابنه أبو الحسن علي، ولُقب بالظاهر لإعزاز دين الله، واختصاراً، الظاهر. وإذا كان عمر الظاهر لا يتجاوز السادسة عشرة، كان الحاكم الفعلي للدولة الوزير أبا القاسم علي بن أحمد الجرجاني، وكانت عمّة الظاهر التي اتّهمت بالتآمر على قتل الحاكم، واسمها ست الملك، صاحبة الوصاية عليه، في الفترة الأولى من حكمه. ويبدو أنّ ست الملك وأبا القاسم قد أظهرّا كفاءة في تدبير المملكة وسياسة الناس. وقد أكمل الظاهر، بعد بلوغه، تلك السياسة، فكان عاقلاً سمحاً متديناً عفيفاً حليماً متواضعاً، وقد عدل في الرعية، فاستقامت له الأمور، بعد أن تمكّن من اكتساب عطف أهل الذمة ومحبيهم، إذ تمتّعوا في عهده بالحرية الدينية. ويبدو أنّ طموحات الخلافة الفاطمية قد هدأت بعهده، إذ اقتصر اهتمامات الظاهر على الشؤون الداخلية، وبدأ وكأنّ نجم تلك الدولة قد أخذ بالأفول. وتأكّد ذلك عندما خلف الظاهر بعد موته سنة ٤٢٧ هـ / ١٠٣٥ م. ابنه أبو تميم معدّ، الذي لُقب بالمستنصر بالله، وكان عمره سبعة عشر عاماً، وهو الذي ضرب رقماً قياسياً في طول مدة الخلافة، إذ دامت خلافته حوالي ستين سنة، انتهت سنة ٤٨٧ هـ / ١٠٩٢ م. وقد شهدت مصر في أيامه غلاءً وقحطاً «لم يُعرف مثله منذ زمن يوسف... وقد دام سبع سنين، حتّى بلغ ثمن الرغيف الواحد خمسين ديناراً. وقيل إنّ كان يموت بمصر كلّ يوم عشرة آلاف نسمة جوعاً، ثمّ غُدمت الأقوات تماماً، فأكل الناس الكلاب والقطط، ثمّ أكل بعضهم بعضاً، وقد دَوّن المؤرّخون في هذه المجاعة قصصاً مروّعة»^١. وفي عهده، سقطت مدينة القدس بيد السلاجقة، وتبعتها بعد خمس سنوات مدينة دمشق. أمّا حلب، فكانت قد أصبحت تحت حكم بني مرداس بعهد الظاهر سنة ٤١٥ هـ / ١٠٢٣ م. كما زالت سلطة الفاطميين عن بلاد الأقصى سنة ٤٧٥ هـ / ١٠٨٢ م. بعد أن خلع أمير مكة والمدينة طاعتهم سنة ٤٦٢ هـ / ١٠٦٩ م.

١ - راجع ابن الأثير، الكامل، ج ١٠ ص ٢٣٧

بموت المستنصر سنة ٤٨٧ هـ / ١٠٩٢ م. خلفه ابنه أبو القاسم أحمد وتلقب بالمستعلي بالله، خلافاً لما كان عهد به المستنصر بالخلافة لابنه نزار، لأن وزير الدولة وقائد جيوشها، الأفضل بن بدر الجمالي الملقب بأبي القاسم شاهنشاه، الذي استوزره المستنصر بضغط من الجيش، كان قد أصبح الأمر والنهي في الدولة، فاستبعد نزاراً، وقرّر الخلافة لأحمد المستعلي، الذي مات سنة ٤٩٥ هـ / ١١٠١ م. فجاء الأفضل بابن المستعلي، أبي علي المنصور، ولقبه بالأمر بأحكام الله، وبايع له بالخلافة. وبما أن الأمر كان له من العمر خمس سنوات، أصبح الأمر الحقيقي في الخلافة، الأفضل. وكانت الخلافة الفاطمية قد أضحت في حال من الوهن، بسبب الفتن الداخلية التي أدت إلى تنازع المستعلي مع أخيه نزار على الملك، فدارت بينهما حروب دامية أدت إلى مقتل نزار وإلى انشقاق داخل الخلافة. وكان الصليبيون بدأوا يغيرون على سواحل بلاد الشام، فاستولوا على إنطاكية وتوابعها، ثم تابعوا سيرهم إلى فلسطين فاستولوا عليها تماماً. ولم يكن الأمر قد بلغ الخامسة والعشرين من عمره عندما اغتيل الرجل القوي في خلافته، قائد جيوشه ووزيره صاحب الأمر والحكم بمصر: الأفضل بن بدر الجمالي، الذي اغتاله مجهولون بالخنجر في الشارع سنة ٥١٥ هـ / ١١٢١ م. فعين الأمر في الوزارة خلفاً للأفضل، المأمون البطائحي، الذي ظلم... وأساء السيرة، فقتله الأمر وصادر أمواله، بينما كان الصليبيون قد احتلوا الشاطئ الممتد من فلسطين إلى طرابلس. فتضعف ملك الفاطميين قبل أن يتم اغتيال الأمر على يد تسعة رجال من العاعة، سنة ٥٢٤ هـ / ١١٢٨ م. في أحد شوارع القاهرة، فقام بعده ابن عمه عبد المجيد ابن محمد بن المستنصر، الذي لقب بالخافظ لدين الله.

وزر الخافظ في بداية عهده أبا علي أحمد بن الفضل، الذي استأثر بالأمر، حتى إنه «ضيق على الخليفة، وحجر عليه، ومنعه من الظهور، وأودعه في خزانة لا يدخل إليه أحد إلا بأمر الوزير، الذي أهمل فيما بعد الخليفة والدعاء له، لأنه - أي الوزير - كان سنياً، فأبغضه الأمراء والدعاة لأنهم كانوا من الشيعة، وصمّم الشيعة

المصريون على قتله، فكمن له جماعة وقتلوه وأخرجوا الحافظ وياعوه ثانية^١. إلا أن الحافظ كان من ضعف الشخصية بحيث « كانت خلافته عشرين سنة إلا خمسة أشهر، ولم يزل في جميعها محكوماً عليه، يحكم عليه وزراؤه، حتى إنه جعل ابنه حسناً وزيراً وولي عهد، فحكم ابنه عليه واستبد بالأمر دونه، وقتل كثيراً من أمراء دولته وصادر كثيراً، فلما رأى الحافظ ذلك سقاء سقاء فمات^٢ ». أما الحافظ، فمات سنة ٥٤٤ هـ / ١١٤٩ م. فخلفه ابنه أبو منصور إسماعيل الذي تلقب بالظافر بأمر الله، وكان له من العمر سبعة عشر عاماً، فكانت أيامه مضطربة، ولم يتمكن من تثبيت حكمه، لحدائث سنة وانشغاله باللهو. وعرف عنه أنه ترك كل شيء، وانصرف إلى شاب بعمره، هو نصر ابن وزيره عباس الصنهاجي، الذي أحبه الظافر، وجعله من ندمائه وأحبابه « الذين لا يقدر على فراقهم ساعة واحدة ». إلى أن اغتشم الوزير مخالطة الخليفة لولده، فأوعز إلى هذا الأخير بقتل الظافر، ففعل.

ولم تقتصر الفعلة على هذا الحد، ولكن ذلك الوزير المسمى بعباس، اتهم إخوة الخليفة بقتله، فقتلهم. وكان للخليفة ابن اسمه عيسى له من العمر خمس سنين « حمله عباس على كتفه وأجلسه على سرير الملك وبيع له الناس ». وأخذ عباس من القصر من الأموال والجواهر والأعلاق النفيسة ما أراد، ولم يترك إلا ما لا خير فيه^٣.

حدث هذا سنة ٥٤٩ هـ / ١١٥٤ م. وكان اسم ذلك الطفل الذي بويع بالخلافة، عيسى، فلقب بالفائز بنصر الله، وكان الخليفة الفاطمي الثالث عشر، وبقي على سرير الملك ست سنوات إذ مات وعمره حوالي العشر سنوات في العام ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م. وليس في المدونات ذكر لأسباب وفاته. لكن المدون، أن الذي استقل بأمور الدولة طيلة عهد الطفل، كان طلائع بن رزيق، الذي لقب نفسه

١ - ابن تغري بردي، ج ٢، ق ٢، ص ١٢٠ وما بعدها.

٢ - ابن الأثير، الكامل، ج ١١، ص ١٤١

٣ - المرجع السابق، ص ١٩٢، راجع، مئونة، ص ٨٤ - ٨٥

بالمملك الصالح بعد أن أصبح وزيراً في بداية عهد الفائز. قصّة ذلك أنّه خلافاً لما اعتقده عباس عند قتله للظافر بأن الأمر سيتم له على ما يريده، فقد «اختلفت الكلمة عليه، وثار به الجند والسودان، وصار إذا أمر بالأمر لا يلتفت إليه ولا يُسمع قوله، فأرسل من بالقصر من النساء واخدم إلى الصالح طلائع بن رزيك يستغيثون به، وأرسلوا شعورهم طي الكتب، وكان الصالح في منية بني حصيب والياً عليها وعلى أعمالها... فجمع ليقصد عباساً، وسار إليه، فلما سمع عباس ذلك خرج من مصر نحو الشام بما معه من الأموال التي لا تحصى كثرة، والتحف والأشياء التي لا توجد إلاّ هناك بما كان أخذه من القصر، فلما سار (عباس) وقع به الفيرجة فقتلوه وأخذوا جميع ما معه فتقوؤا به».

دخل الصالح القاهرة بأعلام سود وثياب سود حزناً على الظافر، وأحضر شاهداً كان قد رأى قتل الظافر، فأراه موضع طمره، فأخرجه ونقله إلى مقابر القصر. وكان أول ما فعله الصالح بعد ذلك أن استقصى بيوت الكبار والأعيان بالديار المصريّة، فأهلك أهلها وأبعدهم عن ديارهم وأخذ أموالهم، وقد فعل ذلك خوفاً من أن يثوروا عليه وينازعوه في الوزاره^١.

ولما مات الخليفة الطفل، دخل الوزير الصالح بن رزيك القصر، واستدعى خادماً كبيراً وقال له: «من هنا يصلح للخلافة؟ فقال الخادم: «ها هنا جماعة! وذكر أسماءهم، وذكر له منهم إنساناً كبير السن، فأمر الصالح بإحضاره، فقال بعضهم للصالح: «لا يكون عباس (الوزير السابق) أحزم منك حيث اختار الصغير وترك الكبار واستبدّ بالأمر». فأعاد الصالح الرجل إلى موضعه، وأمر حينئذ بإحضار أبي محمد عبد الله بن يوسف بن الحافظ، الذي كان مرافقاً قارب البلوغ، وباع له بالخلافة بعد أن لقّبه بالعاضد لدين الله، وزوّجه ابنته.

كان العاضد لدين الله خاتمة الخلفاء الفاطميين، وبه انتهت الخلافة الشيعيّة

١ - ابن الأثير، الكامل، ج ١١ ص ١٩٢ - ١٩٤.

سنة ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م. وبينما كان العاضد على فراش الموت، كان صلاح الدين الأيوبي يأمر بوقف الدعاء للخليفة الفاطمي في مساجد مصر، ويأمر بالدعاء للخليفة السني العباسي المقيم ببغداد^١، وكان يومها الخليفة الثالث والثلاثين، وهو المستضي بالله (٥٦٦ - ٥٧٥ هـ / ١١٧٠ - ١١٨٠ م.) الذي كان هو الآخر معترفاً به اسمياً كخليفة، بينما كانت السلطة قد أصبحت بيد الوزراء.

وبذلك كانت خاتمة الدولة الفاطمية الشيعية الإسماعيلية التي بدأت مع ظهور المهدي بسجلماسة سنة ٢٩٩ هـ / ٩١١ م. وانتهت بموت العاضد سنة ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م. وكانت نهايتها ختاماً لدول الشيعة في البلاد العربية، إذ منذ ذلك التاريخ، انحصرت دولتهم في فارس. أما في مصر، فمنذ ذلك التاريخ، لم يعد المؤذنون ينادون على المأذن «حيّ على خير العمل»، ولم يعد الخطباء في المساجد يفتتحون كلامهم بالصلاة على علي المرتضى وفاطمة البتول والحسن والحسين بعد محمد المصطفى، ولم يعد الثامن عشر من ذي الحجة، وهو يوم غدير خم، يوم عيد، وتوقفت الاحتفالات التي كانت تجري في تلك المناسبة من كل سنة، ولقد كانت من أهم الاحتفالات الدينية التي كانت تهنّئ لها جوانب القاهرة فرحاً وسروراً... ولم تعد مصر توقف البيع والشراء في العاشر من محرم، ولم يعد الأهل يجتمعون في عاشوراء على النوح والإنشاد والتطواف بالأزقة والأسواق، وقصد مشهد أم كلثوم ونفيسة، وهم ناثون باكون... وقضت سياسة الضغط التي اتبعها صلاح الدين على المذهب الشيعي في مصر قضاء شبه تام.

الحاشية

سنة ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م. عارض مبايعة الخليفة الفاطمي التاسع المستعلي بالله، من جملة من عارضوا، داع فاطمي اسمه الحسن بن الصباح الرازي، الذي

١ - راجع مجلّد السنة من هذا المؤلف، الفصل الخامس تحت عنوان الأيوبيين ص ١٩٥ وما يليها.

أُتيد أتباع نزار، وهرب بنزار من القاهرة إلى الإسكندرية حيث أعلن ثورة فاشلة قُتل بخلالها نزار. ذلك أن الحسن بن الصباح، كان قد قصد الخليفة المستنصر، والد المستعلي، ونزار، قبل موته بحوالي تسع سنوات، واستأذنه في إقامته الدعوة له بخراسان وبلاد فارس، فأذن له في ذلك، فعاد إلى خراسان وراح يدعو للخليفة الفاطمي سراً. وفي إحدى زيارات الحسن للخليفة، سأله عمّن سيكون إمامه بعده، فقال الخليفة: ابني نزار. من أجل هذا، رفض الحسن وأتباعه وآخرون من الإسماعيلية خلافة المستعلي التي جاءت بناء على رغبة وزير الدولة الفاطمية: الأفضل بن بدر الجمالي، الذي أراد أن يصبح الأمر والنهي^١.

تمكن الحسن بن الصباح الإسماعيلي الرازي من الفرار إلى بلاد فارس، حيث أكمل دعوته الإسماعيلية، بينما كانت الباطنية تتعرض هناك لحملة إبادة من قبل السلطان السلجوقي الرابع، أبي المظفر ركن الدين الملقب بـ «بركياروق»، ابن ملكشاه المتوفى سنة ٤٨٦ هـ / ١٠٩٢ م.

عند وصول الحسن بن الصباح إلى بلاد العجم هذه المرة، كان من تبقى من القرامطة وكل من دان بالباطنية قد تجمعوا في تنظيم واحد، في مواجهة دولة السلاجقة. فاستولى هؤلاء الباطنيون على عدة حصون وقلاع، منها قلعة أصبهان المنيع التي بناها السلطان السلجوقي الثالث، ملكشاه. وقلعة طبرس في قهستان، وقلعة وسنمكوه قرب أبهر، وقلعة خالنجان قرب أصبهان، وقلعة أستونا وند بين الري وأمل، وقلعة أردهن، وقلعة كردكوه وقلعة الناضر بخوزستان، وقلعة الطنبور قرب أرتجان، وقلعة خلادخان بين فارس وخوزستان، إضافة إلى عشرات القلاع الأخرى. وكان من جملة تلك القلاع، قلعة «ألموت» في نواحي قزوین، وأصل إسمها «آله موت» ومعناه بلغة الذيل، تعليم العقاب. وقد سميت كذلك لأن ملكاً من ملوك الديلم كان كثير الصيد، فأرسل يوماً عقاباً وتبعه، فرآه يسقط على

١ - راجع الفصل السابق من هذا المجلد، تحت عنوان: إنهيار الدولة الفاطمية ص ١٤٢.

موضع هذه القلعة، فوجده موضعاً حصيناً، فأمر ببناء قلعة عليه، وسمّاها «آلة موت»^١.

كان سبب سيطرة الباطنيين على هذه القلاع الاضطهاد الذي تعرّضوا له من قبل هرقيارق سنة ٤٩٤ هـ / ١١٠٠ م. إذ أمر بقتل كلّ من هم من الباطنية، بسبب أعمال القتل والسطو والنهب الفظيعة التي كانوا يقومون بها. وقد استشرى أمرهم بعد موت السلطان ملكشاه، فاجتمعوا من كل صوب، وراحوا ينزلون الرعب في كلّ مكان، وحيث طالت أيديهم، لا يعفون إلا عمّن كان من مذهبهم، حتّى «صار إذا تأخّر إنسان عن بيته قليلاً تيقن أهله من قتله، وجلسوا يتقبّلون العزاء به». بل إنهم أحياناً كانوا يوقفون ضحيّتهم الحيّ في مكان قريب من بيته، ليرى أهله وهم «يلطمون ويبكون عليه، ويتقبّلون العزاء بموته، وهو لا يقدر أن يتكلّم خوفاً من خاطفيه». وصدف أن دخل رجل دار صديق له «فرأى فيها ثياباً كثيرة وأحذية وسوى ذلك من المتاع، فخرج من عنده متحدثاً بما كان، فكشف الناس عنها، فعلموا أنّها لأناس قُتلوا». وبذلك بدأ ينكشف أمر القتلّة الذين كان صاحب هذه الدار أحدهم، إذ كانوا إذا اجتاز بهم إنسان أخذوه إلى الدار وقتلوه وألقوه في بئر بداخلها، قد خُفرت خصيصاً لذلك». وقد استعملوا من أجل ذلك حيلاً شتى، منها أنّهم كانوا يوقفون رجلاً يتظاهر بالعمى على قارعة الطريق، حتّى إذا مرّ أحدٌ بقرية، سأله أن يوصله إلى بيت معيّن، فإذا أوصله إلى هناك، أخذوه وقتلوه.

أمام هذا الواقع، أباح الفقهاء قتل معتنقي الباطنية، فخُفرت الخنادق، وأوقدت فيها النيران، «وجعل العامة يأتون بالباطنية أفواجاً ومنفردين، فيلقون في النار، وجعلوا إنساناً على أخاديد النيران، وسمّوه مالكا، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً». وهكذا قصد أهل الباطنية القلاع، واستولوا عليها احتيالاً وخداعاً، واحتموا بها متسلّحين^٢.

١ - ابن الأثير، الكامل، ج ١٠، ص ٣١٦

٢ - المرجع السابق، ج ١٠، ص ٣١٣ - ٣١٥

لما رجع الحسن بن الصباح من مصر إلى خراسان، وكان الوضع في بلاد
المعجم على ما هو عليه، قصد قلعة الموت، ولم يمض وقت طويل حتى أصبح سيدها
المطاع. ولما بلغ خبر الحسن، والي خراسان، نظام الملك، بعث عسكرياً إلى قلعة
الموت، فحاصروا الحسن فيها، وإذ ضاق ذرعاً بالحصار، أرسل الإسماعيلي من قتل
نظام الملك في عقر ولايته، وهكذا فُكَّ الحصار عن القلعة.

إثر موت السلطان بركيارق سنة ٤٩٨ هـ / ١١٠٤ م. عاد الإسماعيليون
إلى الظهور في الري، فقتلوا مئآت من الناس، وغنموا أموالهم ودوابهم، كما قتلوا
بعض شيوخ الشافعية انتقاماً. كذلك تمكن أحدهم من قتل فخر الملك بن نظام
الملك، وكان فخر حاكماً لخراسان. وقد جعلت جرائم الباطنية السلطان محمداً
السلجوقي يشن حرباً طاحنة سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م. على من كان منهم في
إحدى القلاع التي ملكوها بالقرب من أصبهان، وكان فيها رجل ألبسته الباطنية
تاجاً، وجمعوا له الأموال، وجعلوه ملكاً عليهم. اسم هذا الرجل، ابن عطاش، وكان
يرسل أصحابه لقطع الطريق، وأخذ الأموال، وقتل من قدروا على قتله، فذهب
ضحيّتهم عدد لا يمكن إحصاؤه من البشر. حتى إن ابن عطاش قد تمكن من فرض
الضرائب على المدن المجاورة ليكلف عنها الأذى.

تمكن السلطان محمد من إبادة تلك القلعة، ومن قتل ابن عطاش، الذي كان
الحسن بن الصباح يعظمه... لأن أباه كان أستاذه. وكانت طريقة قتل ابن عطاش
أن سلخ جلده حياً، فتجلد حتى مات، وخشي جلده تبنياً، وغرض على العامة. بيد
أن ذلك لم يضعف الباطنية كثيراً، فلقد كان لا يزال لديهم عشرات القلاع
والقادة. وبعد مرور ثلاث سنوات، كان الحسن بن الصباح لا يزال مسيطراً على
قلعة الموت، حيث فشل السلطان في السيطرة على تلك القلعة رغم الحصار. ويوماً
بعد يوم، راحت الموت تقوى، إذ كان السلطان السلجوقي يهاجم سائر قلاع
الباطنية، ويؤمن من فيها بعد استيلائه عليها على أن ينتقل المؤمنون إلى الموت.
وقد تمكن ابن الصباح من الصبر على الحصار الطويل رغم كثرة المجموع التي

أضحت في القلعة، على أنه أصبح بذلك سيّد القوم ومقدمهم. وفي النهاية، اضطرّ السلطان إلى فكّ الحصار عن القلعة مرغماً. وبعد تحصّن في قلعة أُلوت استمرّ زهاء ثلاثين سنة، مات الحسن بن الصباح الإسماعيليّ الرازيّ في قلعته سنة ٥١٨ هـ / ١١٢٤ م^١. وقد اعتُبر هذا الرجل مؤسس من سيعرفون لاحقاً بالحشّاشين.

نظّم ابن الصباح هذه الفرق الإسماعيليّة المتجدّدة التي استقلّت عن الخلافة الفاطميّة منذ موت الخليفة الفاطميّ الثامن، المستنصر بالله سنة ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م. فأضحت هذه الجماعة عبارة عن منظّمة سرّيّة يرئسها سيّد كبير هو «داعي الدعاة» يليه جماعة من الزعماء هم «كبار الدعاة» ويلي هؤلاء «الدعاة العاملون» وأخيراً جماعة «الفدائيّين» المستعدين أبداً لتنفيذ أوامر داعي الدعاة، فهم لا يتحرّجون من اغتيال خصومهم بالخنجر، نصارى كانوا أم مسلمين، حتّى إنهم اتخذوا الاغتيال فنّاً^٢.

بينما يرى بعض الباحثين أنّ اسم الحشّاشين، قد اشتقّ من لفظة «حشيش» العربيّة، وهو عشب مخدّر كانوا - في ما يُظنّ - يعمدون إلى تخدير أنفسهم به عند الإقدام على أعمالهم^٣، يذهب أكثر المؤرّخين مذهباً آخر في التفسير، فيقولون بأنّ لقب الحشّاشين، تحريف للقب إفرنجي: Assassins، والكلمة بمعنى «القتلة، أو الفاتكين». وقد أطلق الإفرنج هذا اللقب على الإسماعيليّين النزاريّين لاشتغالهم بالاغتيال.

إنّنا نميل إلى التفسير الأخير لأصل لقب الحشّاشين، ذلك لأنّ النزاريّين لم يُعرفوا بهذا الاسم إلّا بعدما عرفهم الصليبيّون في مواقعهم. وكان أشهر من انتقاد إلى النزاريّين من الإسماعيليّة رضوان، الحاكم الثاني لدولة السلاجقة في حلب بعد

١ - المرجع السابق، ج ١ ص ٤٣١، ٤٣٢، ٤٧٧، ٥٢٧ - ٥٢٨، ٥٢٥.

٢ - حتّى، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢ ص ٢٤٦.

٣ - المرجع السابق، ص ٢٤٥ - ٢٤٦.

أبيه تتش بن ألب أرسلان. وقد حكم رضوان بين ٤٨٩ و ٥٠٧ هـ / ١٠٩٥ - ١١١٣ م^١. ومثلما فعل الإسماعيليون النزاريون في بلاد العجم، كذلك أقدموا في بلاد الشام على السيطرة على عدد من القلاع والحصون في المنطقة الجبلية من مناطق سورية. وكان أول ما وقع بين أيديهم من تلك القلاع قلعة قدموس. أما أول معقل اتخذوه لهم في هذه المنطقة فكان قلعة بانياس. وقد تراوح عددهم في مناطق الشام يومذاك بين أربعين ألفاً وستين ألف مقاتل^٢.

برز على رأس هؤلاء الحشاشين في بلاد الشام رجل اسمه راشد الدين سنان، الذي قادهم مدة تزيد على الثلاثين سنة بدءاً من العام ٥٥٨ هـ / ١١٦٢ م. وكان سنان داعي الدعاة في هذه الحقبة، وقد لقبه الإفرنج بشيخ الجبل، نظراً لسيطرته على المناطق الجبلية المحيطة بقره في قلعة مصياف^٣. وقد قام رجال «شيخ الجبل» بمحاولتين فاشلتين لاغتيال صلاح الدين لأنه كان يحارب الشيعة عموماً والإسماعيلية بشكل خاص^٤. وقد هاجم صلاح الدين قلعة مصياف ولم يتمكن من قهرها. وعندما اغتالت عصابة تحقت بزيّ النصارى ملك القدس، كونراد مونتفرات سنة ٥٥٨ هـ / ١١٦٢ م. تردّد أن صلاح الدين قد استخدم الحشاشين لهذه الغاية^٥. كذلك يُعزى إلى الحشاشين قتل كبير آخر من اعلام الصليبيين، هو الكونت ريموند الثاني حاكم طرابلس (حوالي ١١٥٢). وعندما قام أحد أشراف الإفرنج بزيارة خلف سنان في حصنه الجبلي «ذي الأبراج الشامخة، وكان يتولّى حراستها جماعة من الحشاشين بالثياب البيضاء» أراد الشيخ أن يدلّ

١ - راجع: ابن خلدون، ج ٥٥ ص ١٥٢ - ١٥٤، ابن الأثير، الكامل، ج ١٠ ص ٢٤٩

٢ - Burchard of Mount Zion, tr. Aubrey Stewart, (London, 1896) P. 105

٣ - راجع ابن الأثير، الكامل، ج ١١ ص ٤٢٦ وقد ذكر إسم القلعة خطأ «مصيا» وفي بعض المخطوطات «مصيّا».

٤ - ابن الأثير، الكامل، ج ١١ ص ٤١٨ - ٤١٩، أبو الفداء، ج ٢ ص ٦٠ - ٦١

٥ - ابن الأثير، الكامل، ج ١٢ ص ٥١، Jacques de Vitry, the History of Jerusalem, tr. Aubrey Stewart (London 1896) PP. 334 - 335.

الزائر على إخلاص جماعته، «ولدى إشارة منه عمد اثنان من الحرس إلى الالتقاء بنفسيهما من أعلى البرج إلى الصخور فتمزّقا شراً تمزيقاً»^١. ويُشير بعض المدونات إلى أن الحشاشين حاولوا اغتيال القديس لويس قبل قيامه من فرنسا، كما أنهم حاولوا اغتيال أحد كبار القادة في منفولية، مما من شأنه أن يدلّ على مدى اتساع نطاق نشاطهم.

بقي الحشاشون على حالهم حتّى قضى عليهم المغول سنة ٦٥٥ هـ / ١٢٥٦ م. ووجّه إليهم رابع سلاطين المماليك، الملك الظاهر بيبرس، الضربة القاتلة سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦٠ م.

وبنهاية الحشاشين، انتهت القوة الإسماعيلية المقاتلة إلى الأبد، إلا أن أتباعاً قلائل لهذه الطائفة بقوا متفرقين في مناطق عربية متفرقة، أكثرهم في الجبال السورية، حيث يقارب عددهم اليوم الخمسين ألف نسمة.

١ - حثي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢ ص ٢١٧، بالاستناد إلى: Marinus Sanuto, "Liber se-cretorum", in Bongars, Gesta Dei per Francos (Hanau, 1611) Vol. II, P. 201

الفصل الثاني عشر

العلويون النصيريون

- في نسبهم ونشأتهم
- في معتقدهم
- في تاريخهم وحاضرهم

إجتهد المؤرخون والباحثون حول أصل التسمية « العلوية » لهذه الطائفة التي تُعرف أيضاً بـ « النصيرية ». بيد أن الرأي الأقرب للمنطق، هو القائل بأن نسبة العلويين تعود إلى الإمام علي بن أبي طالب، وقد بقي سائر الفرق المتشعبة لعلي وأهل بيته يُعرف بهذه النسبة حتى زمن قريب. أما لقب النصيرية، فهو نسبة إلى محمد بن نصير التميرى، « باب » الإمام الحادي عشر: الحسن بن الهادي العسكري المتوفى سنة ٢٦٠ هـ / ٨٧٣ م.

من هو « الباب » ولماذا تنتسب إليه الطائفة النصيرية؟

يقضي النظام الشيعي بأن يكون لكل إمام « باب » والباب عندهم هو صاحب أسمى مرتبة دينية بعد الإمام. فالإمام يأخذ عن « الباب » العلم، ويكون « الباب » صب الإمام وحبته في الدين. ومن قول الرسول: « من طلب العلم فعليه بالباب ». ومن قوله أيضاً عن علي بن أبي طالب: « أنا مدينة العلم وعلي بابها » وفي القرآن الكريم آيات عن الباب، منها: « أدخلوا الباب سجداً نغفر لكم خطاياكم »^١. و « أدخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون »^٢. وفيه أيضاً: « فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا أبواب كل شيء »^٣.

يبدأ الاعتقاد « بالباب » عند النصيرية بسلمان الفارسي، الذي اعتبروه « باب » الإمام علي. وأول ما يرد ذكره في المدونات، في أخبار غزوة الخندق، وهي غزوة الأحزاب، التي وقعت أيام الرسول في السنة الخامسة للهجرة ٦٢٦ م. عندما « أشار سلمان الفارسي إلى الرسول بحفر خندق » لصد هجوم الأحزاب والقرشيين

١ - الآية ٢٠٨، ١٦١

٢ - الآية ٢٣، ٥٠

٣ - الآية ٦٠، ٤٤

الذين كانوا يتوون استئصال محمد وأتباعه. وعندما قسم الرسول الخندق بين المسلمين، اختلف المهاجرون والأنصار في سلمان، كل يدعي أنه منهم، ذلك أن سلمان كان حراً حتى ذلك التاريخ، أمام هذا الاختلاف قال الرسول: «سلمان منا. سلمان من أهل البيت»^١. وفي حصار الطائف بقيادة الرسول بعد ثلاث سنوات من معركة الخندق، نصب الرسول على المحاصرين منجنيقاً أشار به سلمان الفارسي^٢.

هذا الرجل، أصله من أسبهان، وقيل من أهل رامهرمز، كان قد سبي على أيدي بعض من قبيلة كلب، وباعوه إلى يهودي بوادي القرى، ثم أعتقه الرسول «بعد أن أعانه» فأضحى من موالي الرسول^٣.

ثم يظهر اسم سلمان الفارسي بعهد عمر، في السنة الخامسة عشرة للهجرة، ٦٣٦ م. إذ «أُخِذَ عمر بأهل بدر أربعة من غير أهلها هم: الحسن والحسين وأبا ذر وسلمان»^٤. يتضح من ذلك رفعة المكانة التي كان قد حصلها سلمان الفارسي حتى ذلك التاريخ.

وفي ذكر له في السنة التالية (١٦ هـ / ٦٣٧ م.) ضمن أخبار «فتح المدائن الغربية» كان «سلمان الفارسي رائد المسلمين وداعيتهم». ثم نجد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب يستعمل سلمان الفارسي لمهام ذات شأن، معتمداً على ذكائه وإخلاصه. ويبدو أن ابن الخطّاب كان يعتمد رأي سلمان في الدين والفكر، إذ سأل ابن الخطّاب سلمان الفارسي يوماً: «أملك أنا أم خليفة؟» - فقال له سلمان: «إن أنت جبيت من أرض المسلمين درهماً أو أقل أو أكثر ووضعت في غير حقه

١ - ابن الأثير، الكامل، ج ٢ ص ١٧٨ - ١٧٩، قابل البيهقي، ج ٢ ص ٥٠.

٢ - ابن الأثير، الكامل، ج ٢ ص ٢٦٦.

٣ - المرجع السابق، ص ٢١٢.

٤ - المرجع السابق، ص ٥٠٣.

فأنت ملك غير خليفة^١. فبكى عمر. ثم تلتقي سلمان الفارسي محارباً مع جند الخليفة عثمان سنة ٣٢ هـ / ٦٥٢ م. في جرجان. وفي أخبار سنة ٣٦ هـ / ٦٥٦ م. نصادف خبر موت سلمان الفارسي «وقول بعضهم إن عمره مائتان وخمسون سنة، وهذا أقل ما قيل فيه، وقيل: ثلاثمائة وخمسون سنة، وكان قد أدرك بعض أصحاب المسيح^٢...»

ليس واضحاً تماماً لماذا اعتبر النصيريون سلمان الفارسي «باب» الإمام علي، ولكن الثابت أنهم يعتقدون باطلأعه على العلوم السرية وغيبياتها، وطبيعة النبوة، «فهو الواسطة بين النصرانية (المسيحية) والإسلام» واستندوا في ذلك إلى قول الرسول: «سلمان منا أهل البيت»^٣.

تأتي أهمية سلمان الفارسي عند النصيرية بعد علي ومحمد، وتؤلف الحروف الثلاثة الأولى من هذه الأسماء (ع.م.س) سرّاً دينياً عندهم، وهي تشير إلى: علي، محمد، سلمان.

إضافة إلى اعتبارهم سلمان الفارسي «باب» الإمام علي، يقول النصيرية بأنه كان لكل إمام، من علي إلى الإمام الحادي عشر الحسن العسكري، «باب» - وهم - بعد سلمان، قيس بن ورقة المعروف بالسفينة، الذي كان «باب» الإمام الثاني الحسن المجتبي، ثم رشيد الهجري، الذي كان «باب» الإمام الثالث: الحسين الشهيد، ثم عبد الله الغالب الكايلي كنكر، الذي كان «باب» الإمام الرابع: علي زين العابدين، ثم يحيى بن معمر بن أم الطويل الشمالي، الذي كان «باب» الإمام الخامس: محمد الباقر، ثم جابر بن يزيد الجعفي، الذي كان «باب» الإمام

١ - المرجع السابق، ص ٥١٤، ٥٢٧ - ٥٢٨.

٢ - ابن الأثير، الكامل، ج ٢ ص ٢٨٧.

٣ - الدكتور سابر طعيمة، الشجرة معتقداً ومذهباً، ص ٢٠٤.

السادس: جعفر الصادق؛ ثم محمد بن أبي زينب الكاهلي، الذي كان «باب» الإمام السابع: موسى الكاظم؛ ثم المفضل بن عمر الجعفي، الذي كان «باب» الإمام الثامن، عليّ الرضا؛ ثم محمد بن مفضل بن عمر، الذي كان «باب» الإمام التاسع: محمد الجواد؛ ثم عمر ابن الفرات المعروف بالكاتب، الذي كان «باب» الإمام العاشر: عليّ الهادي؛ ثم أبو شعيب محمد بن نصير النميري، الذي كان «باب» الإمام الحادي عشر الحسن العسكري^١.

من بين هؤلاء «الأبواب» يولي العلويون اهتماماً خاصاً، بعد سلمان الفارسي «باب» الإمام عليّ، لـ «باب» الإمام الثامن عليّ الرضا، المفضل بن عمر الجعفي، تلميذ الإمام جعفر الصادق، الذي نقل عن معلمه «أقواله وأخباره» ووضع كتاب «الهدف والأظلة» الذي يُعتبر مصدراً أساسياً في مضمون المعتقد العلوي. ثم لـ «باب» الإمام الحادي عشر الحسن العسكري: أبي شعيب محمد بن نصير النعميري، الذي أناب في الدين بعد غياب الإمام الثاني عشر، والذي اعتُبر مؤسس المذهب العلوي. وقد انتسب العلويون إلى ابن نصير هذا؛ فغرفوا بالنصيريين، رغم أن هنالك العديد من الاجتهادات التي تناقض هذا التفسير.

فقد تحدّث الباحثون عن كتاب اسمه «كتاب المجموع»^٢ للخصيبي وهو مؤلف من ست عشرة سورة. وقد ورد فيه بشكل واضح انتساب النصيريين إلى

١ - أبو موسى الحريري، العلويون النصيريون، دار لأجل المعرفة (بيروت ١٩٨٧) ص ٢٥، بالاستناد إلى كتاب تعليم ديانة النصيرية، المكتبة الوطنية في باريس تحت الرقم ٥١٨٨ والرقم ٦١٨٢. (مخطوطة)

٢ - وردت الإشارة إلى هذا الكتاب في: «كتاب الباكورة السليمانية في كشف أسرار الديانة النصيرية» لسليمان أنندي الأذني، (بيروت ١٩٦٢) R.Dussaud, histoire et Religion des Nossairis. (Paris 1900) Lib. E. Bouillon, P. 213; E. Salishary, the Book of Sulaiman's First Ripe Fruit, Disclosing the Mysteries of the Nusairian Religion..., in Journal of the American oriental Society, t. VIII, P 227 - 308;

هذه المراجع بالاستناد إلى الحريري، العلويون النصيريون، ص ٣٠، ٢٦١، ٢٦٤

ابن نصير هذا، «باب» الإمام العسكري. وقد جاء فيه: «ومن محمد بن نصير، أقام النسب والدين»^١. كما جاء: «إني نصيري الدين، جندبي الرأي، جنبلائي الطريقة، خصيي المذهب، جلي المقال، ميموني الفقه»^٢. غير أن بعضهم رد اسم النصيرية إلى «نصير، غلام علي بن أبي طالب»^٣. ورد سواهم الاسم إلى «النصاري» فاعتبر أن تسمية «النصيرية» جاءت من قبل أعداء هذه الطائفة الذين سموهم بالنصيرية بمعنى «النصاري الصغار»^٤. وذهبت الاجتهادات أحياناً إلى تفسير الاسم بأنه يعني النصر والفلاح^٥.

أما الاسم الكامل لابن نصير الذي تنتسب إليه هذه الطائفة، فهو: «أبو شعيب محمد بن نصير البصري البكري النصيري العبدي»^٦. وفيما اعتبر بعضهم أنه من أصل عربي، بالاستناد إلى نسبه هذه، قال آخرون بأنه قد يكون من خوزستان من بلاد فارس^٧.

إلى هذا الرجل، ينتسب النصيرية، منطقياً. إذ لا يُعقل أن يكونوا منتسبين إلى نصير، غلام الإمام علي، دون أن يبرز اسمهم كنصيريين قبل سنة ٢٦٠ هـ / ٨٧٣ م. تاريخ وفاة الإمام العسكري. أما القول بأنهم قد لقبوا بالنصيرية، نسبة

١ - الحصري، كتاب المجموع، السورة ٤، عنوانها، النسبة

٢ - الحصري، كتاب المجموع، السورة ١١، عنوانها، الشهادة، وسرد شرح لباقي الاسماء، الحصري، جندب الخ.

٣ - الدكتور صابر طعيمة، ص ١٩٩ بالاستناد إلى الشيخ نصر الدين محمد بن إبراهيم بن مساعد الأنصاري الاقفاقي السنجاري المتوفي سنة ٧٩٤ هـ / ١٢٩١ م. في كتابه، «إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد»، أبو القدا، في 232 Chronique Arabe, ed. Beyrouth, P.

٤ - الحريري، العلويون النصيريون، ص ٢٩ بالاستناد إلى WOLFF, Catéchisme des Nosairis Z. D.M.G. III; Renan, Mission de Phénicie, P. 114

٥ - الحريري، العلويون النصيريون، ص ٢٩ بالاستناد إلى Riner, Erdkunde, XVII, 979, 993; cité par R. Dussaud dans son "Hist. et religion des Nosairis, P. 9

٦ - الحريري، العلويون النصيريون، ص ٢٧

٧ - الشهرستاني، الملل والنحل، ص ١٨٨ - ١٨٩، ١٧٢ - ١٧٥

إلى النصرانية، فادعاء يلزمه البرهان. في وقت يتعرّز انتماءهم إلى ابن نصير بأكثر من برهان.

يبقى أن زمن تأسيس ابن نصير لهذه الطائفة، غير محدّد بدقّة، إذ هناك اعتبارات عدّة حول هذه النقطة. فمنهم من يعتبر أن بعضاً من الشيعة التابعين لمذهب الاثني عشرية، قد قال بوجوب الانقياد لباب الإمام الراحل، بعد موت الإمام الثاني عشر: العسكري، بينما قال سواهم بوجوب اتّباع ابنه محمّد الذي صار يُعرف فيما بعد بالمهديّ المنتظر، ورأى آخرون غير ذلك، مما جعل الاثني عشرية ينقسمون إلى عدّة فرق^١. أمّا الذين تبعوا «الباب»، فقد ألفوا بداية المذهب النصيريّ.

غير أن مدقّقين آخرين يرون أن محمّد بن نصير، قد والى إمامة محمّد المهديّ، لكنّ «قسماً من المنتظرين عودة الإمام الغائب من الانتظار، وعظّم عليه أن يبقى بدون إمام مرجع حيّ يرجع إليه الناس في صعوبات الحياة ومحن الإيمان. فإنّ الله، برأي هؤلاء، لن يترك عبده - هملأ - بدون حجة في الدين، أو بدون دليل على الله، أو قدوة ملموسة يتشبهون بها، أو مثال حيّ يسعون إليه... لذلك قالوا بأنّه من الأمور الطبيعيّة أن لا يبقى العلويّون بدون مرجع يقتدون به، إذ مهما تعالّى البشر وتمسّكوا بالمعنويّات لا غنى لهم عن الأخذ بالمادّيّات^٢». وبما أن «الباب» عند الشيعة له من الاعتبار ما سبق ذكره، فقد اختار هؤلاء «باب» الإمام المتوفى، أو بالأحرى «آخر الأبواب» ليكون مرجعهم، ذلك أن ابن نصير، هو آخر الأبواب.

بيد أننا نميل إلى اعتبار أن ابن نصير، قد أصبح متّبعا من قبل من اتبعوه

١ - راجع الفصل الثامن من هذا المجلّد، تحت عنوان: الإمام المهديّ، والغيبة، والرجعة ص ٥٠.

٢ - محمّد أمين غائب الطويل، تاريخ العلويّين - دار الأندلس - (بيروت ١٩٦٦ ط ٢) ص ٤٨٨.

فور موت الإمام العسكري، لأن اسمه لم يرد بين أولئك الذين كانوا في مراتب دينية سامية، جعلتهم يكونون صلة الوصل بين الإمام الغائب وسائر الأتباع.

يبقى من الصعوبة بمكان أن يجزم الباحث في موضوع ابن نصير، وتفاصيل أمره، لأن البحث في الأمور الباطنية يبقى شائكاً، وأحياناً عقيماً، لندرة المدونات، ولعدم وضوحها في حال وجودها. منها مثلاً كلام عن ابن نصير، ورد في أحد كتب النصيرية، فيما يلي نصّه:

«إنّ محمد بن نصير هو باب الله، الذي لا يتّخذ بعده باب غيره. وكان هو الباب إلى غيبة سيدنا أبي محمد (الإمام العسكري). وغاب الباب. ولمّ الاسم شخصين: الحسن العسكري ومحمد بن نصير. والمضى (علي بن أبي طالب) جلّ وعلا ظاهر بالذات كمثل صورة علي العسكري منه السلام... وظلّته القرون وتصدّته فراصة الأرض وأظهر الغيبة يوم الاثنين بخمس ليلي بقيت من جمادي الآخر سنة وأربعة وخمسين ومائتين من أول سنين الهجرة. مدّة هذا المقام أربعين سنة، منها مع المولى محمد ستة سنين وخمس أشهر. وبعد غيبة محمد ثلاثة وثلاثين سنة وسبعة أشهر... ولم يظهر في هذه الغيبة قتل ولا سم بل غيب الاسم. وهو الحسن العسكري، وشهر كمثل صورته... وأشهر الاسم وهو مولانا المهدي صاحب الزمان محمد ابن الحسن... طلوع الفجر يوم الجمعة لثمان ليلي خلون من شعبان سنة سبعة وخمسين ومائتين من أول سنين الهجرة. فلم يزل الاسم شخصين: مولانا المهدي صاحب الزمان محمد ابن الحسن. والسيد محمد بن نصير علينا سلامه».

فهل هذا يعني تاريخاً لوفاة ابن نصير؟

على أي حال، فإنّ التحقيقات التي حصلت حول ابن نصير، تبدو متناقضة بمجملها. ففي الوقت الذي أجمع فيه الباحثون على أن ابن نصير كان «باب» الإمام العسكري، وهو الإمام الحادي عشر من أئمة الاثني عشرية، فإنّ عدداً كبيراً

١ - مناقرة «السيد الفاضل العلامة الشيخ يوسف ابن العجوز الحلبي المعروف بالنشائي قدس الله روحه يذكر التوحيد المشتمل من نور البيت الشعبي الجليل الشامخ معدن الأصيل والشرف الباذخ» مخطوط باريس رقم ١١٤٥٠، ص ١١٩ ب - ١٢٠ أ بالاستناد إلى: الحريري، العلويون النصيريون، ص ٢٨ - ٢٩.

من المؤرخين والمحققين، قال بأن «ابن نصير يتحذر من القرامطة، وهم من الشيعة المتطرفة، ينتسبون إلى الإسماعيليين والفاطميين، ونظامهم شبيه بجمعية سرية ذات مبدأ اشتراكي» . وبما أنه من القرامطة، فقد تطرّف ابن نصير في حبّ آل البيت وغالى في تقديسهم . وقد حقّق بأمره الباحث «فان ديك» الأميركي الذي كانت له نشاطات علمية في بيروت، فكتب أنه قام من طائفة القرامطة «نصير النميري، شيخ كثير الصلوات والأصوام، معتبر من الأولياء . اختار اثني عشر رسولاً يندرون باسمه ويعلمون تعاليمه، وقد كتب ابن نصير كتاباً يقول فيه : - أنا فلان الذي يُظنّ به أنه ابن عثمان، رأيت المسيح الذي هو كلمة الله، وهو أحمد ابن محمّد ابن الحنفية من ولد علي، وهو أيضاً جبريل الملاك، فقال لي : أنت القارئ أنت الصادق أنت الحمل الحافظ الغضب على الكافرين، أنت البقرة الحامل خطايا المؤمنين، أنت الروح، أنت يوحنا بن زكريّا، علم الناس أن يعملوا في صلواتهم أربع ركعات : إثنين قبل شروق الشمس، وإثنين قبل غروبها، متجهين إلى أورشليم - » .

إن هذا الشرح، يدلّ على أنّ هنالك ما يشبه الخلط بين ابن نصير، ودعاة القرمطية والإسماعيلية . ثمّ هل يُعقل أن يختار الإمام الاثنا عشريّ «بابا» له من السبعية - الإسماعيلية أو من القرامطة ؟! إن ذلك يبدو لنا مستبعداً . ومن شأن هذا التناقض أن يفيد عن مدى المغالطات التي تعرّضت لها الطوائف الباطنية من جزاء الدراسات التي تناولتها .

يتّضح لنا من خلال المراجعات المتفرقة، أنّ ابن نصير، كان يتمتّع بذكاء خارق، وقد عكف على دراسة مبادئ كافة الفرق الشيعية، وصاغ منها المعتقدات

النصيرية السرية، ولا تزال تعاليمه مطبقة، وهي منطلق الوعظ والإرشاد عند رجال الدين النصيريين^١.

انتقل ابن نصير من العراق إلى سورية حيث راح ينشر تعاليمه، وغاب هناك ولم يعد يعرف عنه شيء. وقد خلفه في «البابية» محمد بن جندب، ثم عبد الله الجنان الجنبلائي «العابد الزاهد الذي هو من بلاد فارس»^٢، وأسس الطريقة الصوفية المعروفة عند النصيرية بالجنبلائية، ووضع الفقه العلوي الخاص بالنصيرية مقابل الفقه الجعفري عند الاثني عشرية. وكان عبد الله يقيم في بلدة جنبلا من أعمال فارس، فنُسب إليها. وقد سافر الجنبلائي إلى مصر، وهناك اختار له رجلاً مساعداً عُرف بالخصيبي، وأدخله طريقته، واستصحبه معه إلى جنبلا عند عودته إليها، وفيها توفي عبد الله الجنان الجنبلائي سنة ٢٨٧ هـ / ٨٩٩ م^٣. فخلفه أبو عبد الله الحسين بن حمدان الخصيبي، وهو الذي صجبه من مصر، فكان «أعظم من كل من بعده، إذ أكمل صلواتهم وأذاع تعليمه في البلدان»^٤.

قبل أن يتولى الخصيبي «الباب» العلوي، وقيل أن يعتنق مذهب النصيرية على يد الجنبلائي، كان مولى إسماعيلياً من موالي الحمدانيين في حلب. وقد نفح في أنصاره الروح والنشاط، ورتب أنظمتهم ودبر أمورهم، وهم يذكرونه في صلواتهم كما سبق وأوردنا، ويضيفون إلى ذلك: «شيخنا وسيدنا وتاج رؤوسنا وقدوة ديننا وقرّة أعيننا أبو عبد الله الحسين بن حمدان الخصيبي قدس العلي روحه لأن مقامه مقام الصفاء، ومحلّه محلّ الصدق والوفاء»^٥. وقالت تعاليم الخصيبي،

١ - الشيخ عبد الرحمن خير في بيان إلى الطائفة العلوية. منشور «وحيد العين» ص ٦٠٧. ويقول إن بن نصير قد كُني بوحد العين ويوارد الوقت.

٢ - كتاب المجموع، السورة ٤ تحت عنوان النسبة

٣ - الحريري، العلويون النصيريون، ص ٣١

٤ - سليمان الأذني، الباكورة السليمانية، تحقيق Salsbury في Journal of the American Oriental Society, Vol. 8, P. 243

٥ - L. Massignon, dans: Actes du XVIII congrès international des orientalistes. (Leyden الأذني، الباكورة، سورة الأول، 1931) P. 21

المعلم النصيري المجدد، بأن المسيح هو كل نبي، وبالأجمال فإن كل نبي ظهر في هذا العالم هو المسيح. كذلك بعض حكماء الوثنيين وحكماء الفرس والعرب الجاهلية^١.

وإذ ترك الخصيصي بلاد الشام قاصداً بغداد لنشر تعاليمه، أمر والي بغداد بالقبض عليه، فأودع السجن، بيد أنه تمكن من الفرار بعد حين، واشتهر بين أتباعه أن السيد خلّصه ليلاً^٢.

بعد أن أسس الخصيصي مدرسة في بغداد ورأس عليها الشيخ علي بن الجسري، قصد عائداً إلى حلب، واستقرّ فيها ينشر تعاليمه، حتى توفي سنة ٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م. بعد أن أسس مدرسة أخرى في حلب، ورأس عليها الشيخ محمد علي الجلي، وقد ألف كتباً عديدة قبل رحيله، منها كتاب «رامن باش» ومعناه «كن مستقيماً» وأهداه إلى تلميذه عضد الدولة. وكتاب «الهداية الكبرى» الذي أهداه إلى سيف الدولة بن حمدان، مؤسس الدولة الحمدانية في حلب. وهذا ما يجعلنا نميل إلى اعتبار أن الدولة الحمدانية الشيعية إنما كانت نصيرية المذهب^٣. وبعد موت الخصيصي بزمان قصير، توقفت مدرسته في بغداد، بينما انتقلت مدرسته في حلب إلى اللاذقية، حيث راحت تزدهر بفضل القيمين عليها، وأشهرهم: «أبو سعيد الميمون بن قاسم الطبراني» الذي ألف كتباً عديدة في العقيدة النصيرية، منها: «مجموع الأعياد» وكتاب «الدلائل بمعرفة المسائل» وكتاب «الهادي في واجبات التلاميذ»، وسواها.

ومن مشاهير من تعهّدوا الدعوة النصيرية بعد أبي سعيد الميمون، الأمير حسن المكزون (توفي ٦٣٨ هـ / ١٢٤٠ م.) وقد جاء اللاذقية من سنجار على

١ - الأذني، ص ٢٤٣ - ٢٤٤

٢ - المرجع السابق.

٣ - راجع الفصل التاسع من هذا المجلد. تحت عنوان «دولة الحمدانيين ص ٨٠ وما يليها.

رأس قوة عسكرية كبيرة لنجدة بني قومه من تجاوزات الأكراد^١. وخلف المكزون مشايخ عدة، منهم الشيخ حاتم الطوباني، والشيخ حسن البركي، والشيخ علي القصير، والشيخ إبراهيم الطرطوسي..

في معتقدهم

قليل الكثير في معتقدات النصيرية، وبوسع الدارس لهذه الأقوال أن يلاحظ بعض التجني عليهم من خلال التناقضات الواردة فيها. ولا عجب من ذلك لأن أكثر من وضع تلك النظريات التي يصح أن تُسمى بالانتهامات، هم من خصوم العلويين النصيريين وأحياناً من أعدائهم. بيد أن القابت من تعاليمهم أنهم من المغالين في اعتبار علي بن أبي طالب. وكانت فرق كثيرة من الشيعة، قبل النصيرية، قد ألّهمت الإمام الأول، كما ورد في الفصول الأولى من هذه الدراسة. وفي الصلوات والدعاءات المنسوبة إلى النصيرية، أنهم يضعون علياً في أعلى المراتب^٢. وما يجب أخذه بعين الاعتبار هنا، هو أن العقيدة النصيرية عقيدة باطنية، فيها القول بالباطن والظاهر، وبذلك يصبح الأخذ بأيّ كلام حول حقيقة معتقدها ضرباً من التقدير. ففي الباطنية، قول بالحقيقة والشرعية، وبالرموز والرمز، وبالمثول والمثال، فإن «الظاهر في تقلب مستمر مع حقب العالم وأدواره، أما الباطن فطاقة إلهية غير خاضعة للتصوير»^٣. وأفضل تعبير عن هذه العقيدة قول علي بن أبي طالب: «ما من آية قرآنية إلا ولها أربعة معانٍ: ظاهر وباطن وحذ ومطلع». فالظاهر التلاوة، والباطن الفهم، والخذ أحكام الحلال والحرام، والمطلع مراد الله من العبد بها^٤.

١ - محمد الطويل، تاريخ العلويين، ص ٢٠٦.

٢ - راجع: المبخدادي، الفرق بين الفرق، ص ٢٢٥ وما يليها؛ سورة الشهادة، وهي السورة الحادية عشرة، من كتاب المجموع؛ وسورة الفتح (السورة الخامسة) من المرجع نفسه.

٣ - هنري كوربان، تاريخ الفلسفة الإسلامية، الجزء الأول، ص ٤٢.

وأشار جعفر الصادق إلى ذلك بقوله: «إن في كتاب الله أموراً أربعة، العبارات والإشارات واللطائف للأولياء والخفائق للأنبياء». والباطن هو العلم الذي لا يُباح به حسب قول زين العابدين: «وربّ ظاهرٍ علم لو أبوح به لقليل لي أنت تمن يعبد الوثنا». لذلك فإنّ القول بالباطن يحتم القول به «التقية» لأن الباطن حقيقة، والحقيقة يجب ألاّ يطلع عليها إلا أهلها ومستحقوها، وباعتبارهم أنّ القرآن أشار إلى ذلك بقوله: «إن الله يأمركم أن تؤدّوا الأمانات إلى أصحابها». وقال الإمام جعفر الصادق: «قصيتنا سرّ في سرّ، سرّ أمر دائم السرّ، سرّ لا يكشف عنه إلا سرّ آخر، إنه سرّ على سرّ، يكتفي بسرّ».

أمام هذا الواقع الواضح، يصبح مشكوكاً بكلّ مرجع يتحدث عن العقيدة النصيرية، وإن كان قد ظهر مؤخراً العديد من هذه الدراسات^١، التي جاء في بعضها^٢:

«يرى النصيرية أنّ خطاب الديانة والدعوة والبلاغ عنهم سرّ مصون لا يجوز لأحد أن يذيعه، ولو أدى ذلك إلى قتله، ويحلفون على كتمانهم، فلا يعرفه إلا من كان من أهل دينه وعقيدته، فيجب إخفاء مقالاتهم. يقول القلقشندي^٣: «ولهم خطاب بينهم من خاطبوه به لا يعود يرجع عنهم ولا يذيعه، ولو ضرب عنقه - وقال: «وقد جرت هذا كثيراً، وهم ينكرون إنكاره ويحلفون مقالاتهم، ومن أذاعها فقد أخطأ عندهم، ويرون أنّهم على الحق، وأنّ مقالاتهم مقالة أهل التحقيق، ومن أنكر عندهم ذلك فقد أخطأ، وإيمانهم في الحلف على معتقدهم -»».

١ - الآية ٤: ٥٨٠

٢ - منها: كتاب الباكورة السليمانية في كشف أسرار الديانة النصيرية، تأليف سليمان أفندي الأذني، نشر: دار لأجل المعرفة (بيروت ١٨٦٣ أولى ١٩٨٨ ثانية)، أبو موسى الحريري، العلويون النصيريون، دار لأجل المعرفة، (بيروت ١٩٨٧)، أنور ياسين، تعليم الدين العلوي، دار لأجل المعرفة (بيروت ١٩٨٦)، الدكتور صابر طيمعة، الشيعة معتقداً ومذهباً، المكتبة الثقافية (بيروت ٨-١٤ هـ / ١٩٨٨ م)، الدكتور عبد الرحمن يدوي، مذاهب الإسلاميين، دار العلم للملايين (بيروت ١٩٨٣ طبع ٢).

٣ - طيمعة، ص ٢٠٥

ويورد القلقشنديّ نصّ القسم العلويّ بعدم البوح بأسرار الديانة على الشكل التالي^١

« إنّي وحقّ العليّ الأعلى، وما اعتقده في المظهر الأسّي، وحقّ التور وما نشأ منه والسحاب وسكانه، وإلاّ برئت من مولاي عليّ العليّ العظيم وولائي له ومظاهر الحقّ. وكشفت حجاب سليمان بغير إذن، وبرئت من دعوة الحجّة (ابن نصير) وخضت مع الخائضين في لعنة ابن ملجم، وكفرت بالخطاب وأذعّت المصون، وأنكرت دعوى أهل التحقيق، وقلعت أصل شجرة العنب من الأرض بيدي حتى أجيئت أسولها وأمنع سيلها. وكنت مع قبايل على هابيل، ومع النمرود على إبراهيم، وهكذا مع كلّ فرعون قام على صاحبه إلى أن ألقى العليّ العظيم وهو عليّ ساحط وأبرأ من قول (قبر) وأقول إنه بالثار ما تظهر^٢ ».

... والواقع هذا، كيف يستطيع المرء أن يتأكد من صحّة ما أشيع بأنّه قد تسرّب من أسرار التصويّة؟ يبقى من غير الأسرار ما عندهم من أعياد. وإذا كان التشدد في السريّة بشأن دينهم قد جاء نتيجة الاضطهاد والظلم للذين تعرّض لهما العلويّون - النصيريّون طيلة تاريخهم المنكود، فإنّ من شأن أعيادهم أن تدلّ بوضوح على ممارستهم التقيّة، من المنطلقات نفسها؛ فجاءت أعيادهم لتساير كلّ من استقوى عليهم في وقت من الأوقات. أمّا أهمّ تلك الأعياد، فهي: عيد الغدير في ١٨ ذي الحجّة، وهو عيد عند أكثر الفرق المتشيعة^٣. وعيد الأضحية في ١٠ منه، وعيد المهرجان في ١٦ تشرين الأوّل (أكتوبر)، وعيد البربارة في ٤ تشرين الثاني (نوفمبر)، وعيد بعد أسبوع منه، وعيد بعد أسبوع آخر منه، وعيد ميلاد المسيح في ٢٥ كانون الأوّل (ديسمبر)، وعيد الغطاس في ٦ كانون الثاني (يناير)، وعيد السابع عشر من آذار (مارس)، وعيد أوّل نيسان إبريل، وعيد

١ - القلقشندي، صبح الأمشي، ج ١٢ / ص ٢٥١ بالاستناد إلى المرجع السابق.

٢ - عيد الغدير عند الشيعة، نسبة إلى غدير القم، وهو نبع في واد قريب من جحفة على الطريق بين مكة والمدينة، يعتقد الشيعة بأن الرسول توفّق عنده أثناء عودته من حجّة الوداع وسقى عليّاً خليفة له هناك.

الرابع منه، وعيد الخامس عشر منه، وعيد الغدير الثاني في ٩ ربيع الأول، وعيد ليلة منتصف شعبان، وعيد يوحنا المعمدان، ويوحنا فم الذهب، وعيد الشعانين، والعنصرة، وعيد لمريم المجدلية.

المجتمع النصيري، دينياً، ينقسم إلى طبقتين: الجهال والمشايخ، فالجاهل يدخل في الديانة تدريجاً على يد أستاذ، له من تلميذه كل التكريم والإجلال والاعتبار. هذه الاعتبارات لا تُعطى للوالد الطبيعي، فإن هذا الوالد يعرض أولاده «لدار الشقاء» وأما ذلك الأب الروحي الذي هو الأستاذ «فيقودهم إلى معرفة الحق»، والأستاذ لا يكون إلا من شيوخ العلم العقال الذين ينقسمون بدورهم إلى ثلاث مراتب: الإمام، والنقيب، وهؤلاء يستشيرهم الجهال في كل شيء. حتى إن حكم الشيخ المستشار لا مردّ لحكمه، ويبلغ الاعتقاد عندهم بشيوخهم أنهم معصومون من الخطأ. وعندهم طقوس ورتب في موضوع تسليم الدين، وعندهم مراتب تحصل بالتدرّج، وعندهم صلوات وقدايس كثيرة وأدعية محدّدة. أما طوائف النصيرية فأربع، والفروقات بينها في المعتقد طفيفة. وتُعرف تلك الطوائف بالطائفة الشمالية، والطائفة الكلازية، وطائفة الشفق، وطائفة الهوا^١.

لمحة تاريخية

نادراً ما عرف العلويون - النصيرية الاستقرار طوال تاريخ وجودهم الذي بدأ في نهاية القرن التاسع الميلادي. إذ كانوا أهدأ موضوع اضطهاد من قبل سائر الملل والأديان، لا لشيء سوى لأنهم لا يدينون بما يدين به المجموع. ففي بداية القرن العاشر الميلادي، ولأسباب أمنية، انتقل مركز حلب الديني العلوي - النصيري إلى اللاذقية كما أشرنا سابقاً، أما المجتمع النصيري، فقد اضطر إلى

١ - راجع: الحريزي، العلويون النصيريون، ص ١٢٢ وما بعدها.

اللجوء إلى المناطق الجبلية في أكثر الأحيان، حتى غدت جبال سورية الشمالية الغربية تُعرف باسمهم 'جبال النصيرية، وأحياناً' «سلسلة النصيرية، التي تتألف من صخور كلسية جوراسية مع مواد بازلتية دخيلة»^١. و «شكلها العام بسيط نسبياً ولكنه يتضمن أودية عميقة متعددة وأخرى وعرة ومرتفعات شديدة الانحدار، تُحصن فيها جماعة الحشاشين الذين أقاموا في سورية، والتجأ إليها المسلمون غير السنيين المعروفون بالنصيرية»^٢. كذلك عُرف الساحل الشمالي لسورية بساحل النصيرية منذ زمن بعيد^٣.

وفي حقبة ما مبكرة، حاول النصيرية، أو بعضهم، اللجوء إلى جبل السماق شرقي سورية، ولكن الدروز المتحصنين هناك استقبلوهم بالقتال، واضطروهم إلى الإجلاء عن ذلك الجبل. وأكثر مما عانت طوائف الأقليات عموماً في هذه المنطقة، ومنهم العلويون النصيريون، العزلة، بسبب وعورة الجبال التي سكنوها، وبعدها عن المدن. لذلك فقد وجد العلويون النصيريون في الصليبيين عند قدومهم إلى المنطقة في نهاية القرن الحادي عشر، أملاً بالإنقاذ، رغم أن الصليبيين في البداية قد هاجموا أهل هذه الطائفة، مثلما فعلوا مع سائر الطوائف الإسلامية، وقتلوا عدداً كبيراً من أبنائها^٤. بيد أن الصليبيين لم يلبشوا أن سالموا النصيريين، فبنوا في جبالهم أكثر قلاعهم وحصونهم المنيعة، ومنها حصن الأكراد، وقلعة صهيون، وحصن سليمان، وبرج صافيتا، وقلاع مصياف، والقدموس، والكهف، والرصافة وبانياس^٥. علماً بأن بعض هذه القلاع كان حين بيد الحشاشين. ويذكر بعض

١ - Louis Dubertret et al., *Contributions à l'étude géologique de la Syrie septentrionale* (Paris, 1933), Vol. I, pp. 23 - 24

٢ - حُثي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ١ ص ٢٢

٣ - المرجع السابق، ص ٢٢

٤ - الحريري، العلويون النصيريون، ص ٢١٢، بالاستناد إلى Barhebraeus, *Chronique syriaque*, cité par Assmann, *Bibl. orient.*, II 320...

٥ - الحريري، العلويون النصيريون، ص ٢١٢، راجع حُثي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢ ص

المدونات أن العلويين - النصيريين قد استفادوا من وجود الصليبيين لينقضوا على أعدائهم التاريخيين، الإسماعيليين، فهدموا قراهم، ودكوا مدنهم، وأحرقوا بيوتهم ومزارعهم، وتعمق بهم أينما رحلوا وأينما حلوا. وجاء لنجدهم الأمير حسن المكزون السنجاري سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٤٠ م. أتيا من سنجار، ودخل جبال النصيرية وأجلى عنها الأكراد من جهة، وأسقط نفوذ الإسماعيليين من جهة ثانية، وخلص العلويين من ضربات الأكراد^١. على أن هذا الوضع لم يدم طويلاً، إذ عاد الأكراد وتمكنوا من النصيريين بعد حين، خاصة بعد أن قبض على زمام القيادة صلاح الدين الأيوبي الذي كانت سياسته تقضي بالقضاء على جميع الطوائف الخارجة عن السنة (٥٣٢ - ٥٨٩ هـ / ١١٣٨ - ١١٩٣ م.) وقد لاقت هذه الطائفة أقسى العذابات في عهد صلاح الدين، « فلم يبقَ لهم أدنى استراحة في جبلهم »^٢. وقد يكون أقسى ما تعرض له النصيريون من اضطهاد، ذلك الذي عانوه على يد المماليك بعد رحيل الصليبيين.

لقد كانت عواقب الحملات الصليبية على الأقليات الدينية مُفجعة، فقد خشي المماليك من رجوع الإفرنج، إذ كان بعضهم قد تحول إلى جزيرة قبرص، فعمدوا إلى تخريب المرافئ، وإلى ضرب الطوائف التي تحالفت معهم، كما حاول المماليك إجبار النصيرية على بناء المساجد في قراهم، ليسيروا في مذهبهم مسار السنة، لكنهم لم يتمكنوا من حملهم على تأدية الصلاة فيها، فبدلاً من أن تكون تلك المساجد معابد للصلاة، جعلها الناس زرائب للمواشي والدواب^٣. وقد جاء إفتاء مفتي دولة المماليك ابن تيمية (٦٦١ - ٧٢٨ هـ / ١٢٦٣ - ١٣٢٨ م.) في النصيرية لينزل فيهم أشنع خراب وإبادة ودمار.

١ - محمد الطويل، ص ٢٠٦ - ٢٠٩.

٢ - منير شرف، المسلمون العلويون، من هم؟ وأين هم؟، المطبعة العمومية، (دمشق ١٩٦١ ط ٢٠) ص ٤٤.

٣ - ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار، ج ١ ص ١٧٧.

فقد وجه إلى مفتي دولة المعاليك سؤال مكتوب حول ما « تقول السادة العلماء في النصيرية »، وقد تضمن السؤال اتهامات كثيرة ضد هذه الطائفة^١، فجاء جواب ابن تيمية طويلاً، ومما جاء فيه:

« ... هؤلاء القوم المسنون بالنصيرية هم وسائر أصناف القرامطة الباطنية أكثر من اليهود والنصارى، بل وأكثر من كثير من المشركين، وضررهم على أمة محمد (صلم) أعظم من التتار والفرنج وغيرهم، فإن هؤلاء يتظاهرون عند المسلمين بالتشيع وموالة أهل البيت وهم في الحقيقة لا يؤمنون بالله ولا برسوله ولا بكتابه ولا بأمر ولا بنهي ولا ثواب ولا عقاب ولا جنة ولا نار ولا بأحد من المرسلين قبل محمد، صلم، ولا بملة من الملل السابقة، بل يأخذون كلام الله ورسوله المعروف عند علماء المسلمين بتأويلونه على أمور يفترونها يدعون أنها علم الباطن من جنس ما ذكر من المسائل ومن غير هذا الجنس، فإنه ليس لهم حدّ محدود فيما يدعون من مواضعه إذ مقصودهم إنكار الإيمان وشرايع الإسلام بكل طريق، مع التظاهر بأن لهذه الأمور حقائق يعرفونها من جنس ما ذكر السائل، ومن قولهم: « إن الصلوات الخمس » معرفة أسرارهم، و « الصيام المفروض » كتمان أسرارهم، و « حج البيت العتيق » زيارة شيوخهم، وإن « يدي أبي لهب » هما أبو بكر وعمر، وإن « النسا العظيم » و « الإمام المبين » هو علي بن أبي طالب. ولهم في معاداة الإسلام وأهله وقائع مشهورة وكتب مصنفة، فإذا كانت لهم مكتبة سفكوا دماء المسلمين، كما قتلوا مرة الحجاج، وألقوه في بحر زمزم، وأخذوا مرة الحجر الأسود، وبقي عندهم مدة^٢، وقتلوا من علماء المسلمين ومشايخهم ما لا يحصى عدده إلا الله تعالى، وصنفوا كتباً كثيرة مما ذكره السائل وغيره... ومن المعلوم عندنا أن السواحل الشامية إنما استولى عليها النصارى، ومن جهتهم، وهم دائماً مع كل عدو للمسلمين، فهم مع النصارى على المسلمين، ومن أعظم المصائب عندهم فتح المسلمين، كالسواحل، وانتصار النصارى، بل ومن أعظم المصائب عندهم انتصار المسلمين على التتار، ومن أعظم أعيادهم أن يستولي النصارى - والعياذ بالله - على ثغور المسلمين ما زالت بأيدي المسلمين حتى جزيرة قبرص، يسر الله فتحها عن قريب، وفتحها المسلمون في خلافة أمير المؤمنين (عثمان بن عفان) رضي الله عنه، فتحها معاوية بن سفيان إلى أثناء المائة الرابعة... فهؤلاء المحاذون لله ورسوله كثروا حينئذ بالسواحل وغيرها، فاستولى

١ - نص السؤال في: الدكتور صابر طيمية، ص ٢١٥.

٢ - يفسح من هذا أن ابن تيمية قد اعتبر النصيرية من القرامطة، وهذا ما ليس صحيحاً (المؤلف)

التصارى على الساحل، ثم بسببهم استولوا على القدس الشريف وغيره، فإن أحوالهم كانت من أعظم الأسباب في ذلك، ثم أقام الله ملوك المسلمين المجاهدين في سبيل الله تعالى كنور الدين الشهيد وصلاح الدين وأتباعهما، وفتحوا السواحل من التصارى ومن كان بهامتهم، وفتحوا أيضاً أرض مصر، فإنهم كانوا مسؤولين عليها نحو مائتي سنة^١، واتفقوا هم والتصارى فجاءهم المسلمون حتى فتحوا البلاد، ومن ذلك التاريخ انتشرت دعوة الإسلام بالذمار المصرية والشامية. ثم إن التتار ما دخلوا بلاد الإسلام وقتلوا خليفة بغداد وغيره من ملوك المسلمين إلا بمعاونتهم ومؤازرتهم، فإن منجم هولاء الذي كان وزيرهم، وهو «النسر الطوس» كان وزيرهم لهم بألموت^٢، وهو الذي أمر بقتل الخليفة وبولاية هؤلاء. ولهم ألقاب معروفة عند المسلمين، تارة يستون (الملاحدة) وتارة يستون (القراطة) وتارة يستون (الباطنية) وتارة يستون (الإسماعيلية) وتارة يستون (النصرية) وتارة يستون (الخرمية) وتارة يستون (المحررة) وهذه الأسماء منها ما يعمتهم ومنها ما يخص بعض أصفافهم، كما أن الإسلام والإيمان يعم المسلمين وليطعنهم اسم يخصه إما لنسب وإما لمذهب وإما لولد^٣.

وبعد أن يتحدث ابن تيمية عن (دين) العلويين ملصقاً بهم شتى الاتهامات، يخلص إلى الاقتاء، فيقول:

«... لا يجوز أن ينكح لرجل مولاته منهم، ولا يتزوج منهم امرأة، ولا تباع ذبايحهم... وأما أوانيتهم وملابسهم فكأواني المجوس وملابس المجوس... فأوانيتهم لا تستعمل (من قبل المسلم) إلا بعد غلي... ولا يجوز دفنهم في مقابر المسلمين، ولا يُصلّى على من مات منهم... وأما استخدام مثل هؤلاء في ثغور المسلمين أو حصونهم أو جندهم فإنه من الكبائر، وهو بمنزلة من يستخدم الذئاب لرعي الغنم، فإنهم من أشنع الناس للمسلمين ولولاة أمورهم، وهم أحرص الناس على فساد المملكة والدولة، وهم شر من المخامر الذي يكون في السكر، فإن المخامر قد يكون له غرض، إقاماً مع أمير العسكر وإقاماً مع العدو، وهؤلاء مع الملة ونبيها ودينها وملوكها وعلمائها وعامتها وخاصتها، وهم أحرص الناس على تسليم الحصون لعدو المسلمين، وعلى إفساد الجند على ولي الأمر وإخراجهم عن

١ - يشرح هنا أن ابن تيمية يحمل التصريتين وزر ما يثبته به الفاطميون.

٢ - يشرح هنا أن ابن تيمية يحمل التصريتين وزر ما يثبته به الحشاشين.

٣ - يشرح من ذلك أن ابن تيمية قد قصد بغتواه جميع الفرق الشيعية المفاكية، وقد حمل أوزار أصعاليها جميعاً للتصريين.

طاعته. والواجب على ولاية الأمور قطعهم من دواوين المقاتلة، فلا يتركوا في ثغر وفي غير ثغر، فإن ضرورهم في الثغر أشد، وأن يستخدم بدلهم من يحتاج إلى استخدامه من الرجال المؤمنين على دين الإسلام وعلى النصح لله ورسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم، بل إذا كان ولي الأمر لا يستخدم من يشته وإن كان مسلماً فكيف بمن يفسد المسلمين كلهم؟ ولا يجوز له تأخير هذا الواجب مع القدرة عليه، بل أي وقت قدر الاستبدال بهم وجب عليه ذلك».

ويعد أن يحدّد ابن تيمية شروطاً قاسية لتشغيل العلويّ النصيريّ من قبل المسلم، ينتقل إلى أخطر ما جاء في الفتوى، إلى إباحة دمائهم، فيقول:

«... لكنّ دماهم وأموالهم ضاحية، وإذا أظهروا التوبة ففي قبولها منهم نزاع بين العلماء... لكن هؤلاء إذا أخذوا غنائم يظهرون التوبة لأن أصل مذهبهم «التقية» وكتبان أمرهم، وفيهم من يعرف وفيهم من قد لا يعرف، فالطريق في ذلك أن يحتاط في أمرهم، فلا يتركوا مجتمعين، ولا يكتوا من حمل السلاح، ولا أن يكونوا من المقاتلة، ويؤمّون شرائع الإسلام، من الصلوات الخمس، وقراءة القرآن، ويترك بينهم من يعلمهم دين الإسلام ويحال بينهم وبين معلمهم... ولا ريب أن جهاد هؤلاء وإقامة الحدود عليهم من أعظم الطاعات وأكبر الواجبات، وهو أفضل من جهاد من لا يقاتل المسلمين من المشركين وأهل الكتاب... وأيضاً فإنّ ضرر هؤلاء على المسلمين أعظم من ضرر من يقاتل المسلمين من المشركين وأهل الكتاب، وضررهم في الدين على كثير من الناس أشدّ من ضرر المحاربين من المشركين وأهل الكتاب...».

وفي نهاية إقتائه، يحضّن ابن تيمية المسلمين على أن يقوم كلّ واحد منهم بالإخبار عنهم حيث وجدوا...

وبنتيجة هذا الإفتاء، جرّد المماليك على النصيريين، جيشاً وجدوا، حملات شعواء، قتلوا بخلالها من قتلوا، ومن سلم منهم فرّ إلى الجبال النائية ليعيش في شظف العيش المرير طوال أكثر من مائتي عام، إلى أن كانت نهاية دولة المماليك على يد العثمانيين. ومن مراجعة المدونات يتضح لنا أنّ النصيرية، في حقبة اضطهاد المماليك لهم، كان بعض منهم يقطن جبال لبنان الجنوبيّة والوسطى، وقد

لحقهم الاضطهاد كما لحق الشيعة الآخرين، والدروز، والمسيحيين، ومن سلم منهم انتقل إلى أعماق جبل النصيرية في سورية.

السلطان سليم العثماني الذي دخل سورية سنة ١٥١٦، وقضى على المماليك في معركة مرج دابق، سار على خطى أجداده في محاربة النصيرية، إذ حصل على إقتاء مماثل لمفتي دولة المماليك، من علماء دولة العثمانيين، قضى بقتال « العلويين الكفرة » وذلك استناداً إلى ما جاء في الآية: « قاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله »^١.

هاجم الأتراك الكرخ البغدادية ونهب الجيش أموال العلويين وسبى نساءهم وقتل رجالهم واسترق ذراريهم، ثم زحف على حلب، فجاء الأمراء والمقدمون والمشايخ العلويون من كل ناحية يطلبون منه الرحمة على رعاياهم. وإذا اجتمع إلى السلطان سليم تسعة آلاف وأربعمائة رجل منهم، قتلهم بموجب تلك الفتوى، ثم أمر بقتل العلويين باسم الدين... فتاء قسم منهم شارداً في البراري، وقسم تبعه في جيوشه الظافرة، وهرب بعضهم إلى الجبال، والقوات التركية تتبّع أفرادهم وتقتل من تنظر به منهم، وقد قُتل في حلب وحدها أربعون ألفاً، وعمّت البلية علويي ديار بكر وماردين والعواسم والبلاد التركية وسائر الأناضول، حيث كان العلويون الذين لا يبادرون إلى الانتساب إلى المذهب السني الشافعي يُبادون... وبعد حلب وجوارها، حاول السلطان سليم الزحف إلى الجبال لتتبعهم. وإذا تعذر عليه ذلك لمناعة تلك الصرود، استقدم بعض العشائر التركية وأسكنها بجوار العلويين لمضايقتهم، « وكان القصد من ذلك تسليط العشائر التركية عليهم لمحوهم... ثم استولى الأتراك على جميع سهلة جبلة والأذقية... حتى لم يبق أثر لهم فيها سوى مقابر الأجداد »^٢.

١ - الآية ٩١٤٩

٢ - محمد الطويل، تاريخ العلويين، ص ٢٠٦ وما يليها

بعد كل هذا، تحالف الإسماعيليون مع الأتراك ضد العلويين، مما جعل هؤلاء الآخرين في حالة حصار، عرفوا خلالها الضيق القاسي، وراحت عشائهم تتناحر في صراعها من أجل البقاء، وتنافس « على تحصيل المعاش لضيق المنطقة التي لجأوا إليها، ولكثرة عدد النازحين، حتى جرى بينهم قتال وشروع، فأصبح الأخ يقتل أخاه ليأكل ما عنده، وبذلك تمكن السلطان العثماني من إبادة الملايين من العلويين القاطنين في ديار بكر والموصل وحلب وأدنى الأرض السورية ومصر. هذا عدا عمّا قتل منهم في بلاد فارس^١ ».

رغم هذه الاضطهادات « كانت مناعة جبل النصيرية سبباً في المحافظة على وجودهم فيه، غير أنهم لجأوا إلى التقيّة هذه المرة، فمرت قرون دون أن تعود تُعرف الهوية الدينية لساكني تلك الجبال، فعرفوا حيناً بأنهم مجوس، وحيناً آخر بأنهم مسيحيون... وبذلك اكتسبوا تلك العوائد المختلطة في طقوسهم التي فيها من الطقوس المسيحية والمجوسية الشيء الكثير ».

استمرّ اضطهاد العلويين طوال العهد العثماني، وقد كلف العثمانيون بعض الأقليات الأخرى بضربهم كما فعل إبراهيم باشا سنة ١٨٤٨، لما استعان باللبنانيين من موارنة ودروز لإخضاع العلويين في جبلهم، إلى أن جاء عهد مدحت باشا (١٨٢٢ - ١٨٨٤ م) الذي لُقّب بـ « سيد الأحرار في الشرق ».

كان مدحت باشا من أعظم رجالات الإدارة العثمانية، وقد تميّز عن سابقه بنشر الروح الدستورية الحديثة في البلاد العثمانية، وكانت سابقة إعطاء نوع من الاستقلال الذاتي لمسيحيي لبنان منذ العام ١٨٦٠ قد برهنت على نجاح التجربة، وكان العلويون يحاولون الحصول على ما حصل عليه موارنة لبنان من ضمانات واستقلال، إلا أنهم كانوا لا يزالون منعزلين عن الدولة العثمانية، مناصبين رجالها

١ - المصدر السابق، ص ٢١٦ - ٢٩١

العداء، فبادر مدحت باشا إلى زيارة حماة، وطلب زعماء النصيرية من مقدّمين ومشايخ، وكانوا نحو خمسمائة، فوقف بينهم خطيباً، وقال:

«يا أمراء ومقدّمين ومشايخ، لماذا تبغون نجاة الحكومة في موقع العصاة، وأنتم مصرّون على عدم تأدية التكاليف الأميرية، وعلى عدم إيفاء الخدمة العسكرية، ولا تقبلون الأحكام القانونية، وأنتم مصرّون على مخالفة الحكومة؟ يا أولادي، أنتم لا تعترفون بعدالة الحكومة، لأنكم لم تروا في أعمالها شيئاً يدلّ على النّيّات الحسنة نحوكم، ولم تصادفوا قراراً لها في شؤونكم يوافق قواعد العدل... لا تنقادون لأوامر الحكومة لأنّ المأمورين الذين يذهبون لندكم لا يعملون شيئاً إلّا تذليل نفوسكم العزيزة، ولم تكونوا في نظرهم إلّا غنيمّة تؤكل، ولم تشاهدوا في الحكومة أدناً تصغي لأنّين شكواكم، ولأنّواحكم تذهب ضياعاً. فأنتم تعتقدون أنّ هذه هي الحكومة. أمّا السوربون فإنهم يعتقدون أنّكم ذوو أخلاق تقتضي معاداتكم إلى الأبد، ويهتمون في إقناع الحكومة على ذلك... أنتم نجاة الحكومة في موقع العصاة، لأنّه لا يوجد في جبلكم مدرسة تعلّمكم واجباتكم، ولا طريق يوصلكم لمركز المدينة، ولا أثر يدلّكم على العمران والزراعة، ولم تشاهدوا سوى المظالم والتعمّيات التي أوجدت فيكم المخالفة وخشونة الطبع... فذلك بقيتم دائماً كالعصاة، وواظبتم على المعانعة، وهذا أمر طبيعي، فلا لوم عليكم يا أولادي، أطمئنكم أنّي سأدفع عنكم تلك الأحوال الإدارية السقيمة، وسأجعلكم تستقلّون في الحكم بأنفسكم كما هي الحالة في جبل لبنان... سأفتح لكم مدارس تساعدكم على الترفي، وتعلّمكم واجباتكم، ولنشئ لكم طرقاً تسمح لكم بالاشتراك في الحياة البشرية العمومية، وتكونون أنتم الحكام على أنفسكم، وحينئذ تلقون أنفسكم في حفن أنكم الشفوقة الحكومة العثمانية^١».

أوردنا نصّ هذا الخطاب لأهميّة مضمونه. إلّا أنّه من سوء طالع العلويّين - النصيرية الذين وجّه إلى زعمائهم مدحت باشا هذا الخطاب، أنّ ردّة فعل سنّة دمشق عليه كانت سلبية عنيفة، فراح أشرف الشام يدسّون الدسائس ضدّ مدحت باشا أمام السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٤٢ - ١٩١٨) مدّعين أنّه «يريد إجهاد الحكومة والاستقلال عنها». وبما كان معروفاً عن عبد الحميد من

١ - المصدر السابق، ص ٤٠٢ وما بعدها.

استبداد في مقاومة الدستور، سارع إلى نقل مدحت باشا إلى إزمير بعدما وُجّهت إليه تهمة السعي «لاستقلال سورية ومحاوله تفريقها عن الجامعة العثمانية». ثم أثبتوا عليه من خلال اللوائح المرسلة إلى الإستانة، والتي يطلب فيها الإدارة المستقلة لجبال النصيرية، أنه خائن لبلاده، فُنفي إلى الطائف حيث مات مخنوقاً في سجنه. وبذلك أصيب العلويون بخيبة أمل مريرة بسبب محاربة السوريين السنة لاستقلالهم الذي كادوا أن يحصلوا عليه، وكان قد تقرر جعل بلدة الشيخ بدر، في محافظة طرطوس السورية اليوم، مركزاً لمصرفيتهم، على أن يشكل من بلاد العلويين لواء مستقل، تكون له صبغة خصوصية تُشابه إدارة جبل لبنان يومذاك.

إثر هذه الخيبة، عاد الظلم والاستبداد ليتحكّما بالعلويين النصيريين، فإن جمال باشا المعروف بالسفاح (١٨٧٢ - ١٩٢٢) قد تمكّن من إحلال المجاعة في جبال العلويين كما فعل في جبل لبنان بالنسبة لمسيحييه، وأخذ السفاح من العلويين أموالهم وساق رجالهم إلى الحرب، وشهد جبلهم في تلك الظروف القاسية ضعفاً في الزراعة والمحاصيل، فانهارت الصحة العامة حتّى فتكت الحمى بأهالي الجبال، وأسفرت عن وفاة حوالي مائة ألف نسمة. ولم يكتف الأتراك بهذا القدر من الكوارث، بل زادوا الضغوط عليهم إلى أن طردوهم من أضنة، وصادروا أسلحتهم الحربية، وشتموهم في الأقفار البعيدة. ولم تتغيّر أوضاع العلويين - النصيريين إلّا بعد توقّف الحرب بمعاودة ١٨ تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩١٨ التي دخل الفرنسيون على أثرها الأراضي السورية وضمّنوا للعلويين حياتهم.

ما أن وضع الفرنسيون يدهم على المنطقة، حتّى سارع وجهاء العلويين إلى مطالبة السلطة المنتدبة بعدم دمج جبل النصيرية بأية دولة أخرى، وإعطاء الشعب العلوي استقلاله ضمن دولته القومية. إلى أن صدر في ٣١ آب (أغسطس) سنة

١٩٢٠ أمر من القوميسرية العليا في بيروت، أعطي بموجبه للعلويين استقلالهم الداخلي، فأصبح جبل النصيرية إذ ذاك يُعرف بـ «أراضي العلويين المستقلة». وكان الجنرال غورو قد عمد إلى تلبية رغبات سكان الولايات السورية القديمة، فراعاهما، وأنشأ الدول الأربع المؤلفة من «دولة دمشق، ودولة حلب، ودولة العلويين، وأنشأ لجبل الدروز في حوران حكومة مستقلة»، وعيّن لكل دولة حاكماً وطنياً فيما خلا بلاد العلويين حيث الحكم العسكري كان لا يزال ضرورياً.

هذه المرة أيضاً، قامت معارضة سنية ضدّ إعطاء الأقليات حقّ الحكم الذاتي، مما جعل الجنرال غورو يحاول ربط هذه الدول بنوع من الاتحاد الفدرالي، مع المحافظة على التقدير الممكن من الاستقلال الذاتي. وفي ٢٠ كانون الثاني (يناير) ١٩٢١ ألقى في دمشق خطاباً وضع فيه أساس الوحدة السورية بإنشاء مجلس اتّحاد لها، وشرح نظام إدارة الدول الأربع. وبعد يومين ألقى خطاباً آخر في حلب جاء فيه:

«... كان العمل الأول الذي قامت به فرنسا لتوطيد اتّحادكم وحرّيتكم الوطنية، تأسيس الحكومات المستقلة، وكانت غاية ذلك، مراعاة النزعات الخاصة، ووضعها في إطار بحيث يتألّف منها مجموع متناسب الأجزاء. دونكم مثلاً لذلك سويسرة، فإنّه مع ما فيها من اختلاف الألسنة والأديان، نرى سكانها يعملون متآزرين كإخوان على حفظ هذا الاتّحاد القائم على العاطفة المشتركة. وإلّكم أيضاً مثلاً على ذلك الولايات المتحدة. هذه الاعتبارات التي حملتني السنة الماضية على إنشاء دول سورية مستقلة... ولكن لم يلتفت قط وجوب أحكام الصلات بين هذه الدول التي ينبغي أن يؤلّف مجموعها سورية المستقلة، أي سورية التي طالما رغبت فرنسا في إنشائها... ويجب أولاً تنظيم هذه الدّول ومنحها قسماً أوّلاً من الحرّية وتأسيس صلة اتّحاد بينها... ولا أذكر لبنان بين دول الاتّحاد لأنّ تقاليد الخصوصية تقضي عليه بالسعي على انفراد وراء التقدّم.

١ - راجع «طوني مفرّج، حرب الردّة، دار الجريدة (بيروت ١٩٧٩) حيث تجد توسّطاً في هذا الموضوع.

٢ - عبد الله صفيّر الباشا، الانتداب الفرنسي والتقاليد الفرنسية في سورية ولبنان. مطبعة أمين هندية،

(مصر ١٩٢٢) ص ٦٥

ومشاركة قليلة في الاتحاد السوري لا تتناول إلا الواجهة الاقتصادية دون سواها إلى أن يقرّر من تلقاء نفسه الدخول في هذا الاتحاد^١ ...

عارض أعوان الحجاز السنّة هذا القرار بشدّة، مما جعل بعض أعضاء مجلس النواب في فرنسة يطالب بالتخلّي عن سورية. وبين العام ١٩٢٢ والعام ١٩٣٦ ناضل العلويّون بمراة من أجل الحفاظ على كيانهم السياسي، ولكن محاولاتهم باءت بالفشل أمام رفض الأكثرية السنيّة في المنطقة، ومصالح الدول الغربيّة معها. فذاب الكيان العلويّ في الجمهوريّة السوريّة^٢. وأكثر العلويّين النصيريّين اليوم يعيشون في الساحل والجبل النصيريّين شمال سورية، وقد توزّع قسم كبير منهم في المدن السوريّة، أمّا عددهم الإجمالي فيزيد على المليون ونصف مليون نسمة.

١ - المرجع السابق، ص ٦٥ - ٦٧

٢ - راجع، طوني مفرّج، حرب الردّة، ص ٢٠٨ - ٢١٧

خاتمة

الشيعة اليوم

الشيعة اليوم

يشكل الشيعة اليوم، بمجمل فرقهم، أقلية صغيرة نسبة إلى مجموع المسلمين في العالم. وفي البلاد العربية، يقدر عدد الشيعة من مختلف الفرق بحوالى ١٢,٢ مليون نسمة، ويتوزعون على الشكل التالي^١،

حوالى ٨ ملايين من الاثني عشرية، موزعين على العراق ولبنان وأقطار الخليج.

حوالى ٢,٥ مليونين ونصف من الزيدية، موزعين على اليمن وجنوب الجزيرة العربية.

حوالى ٢٠٠ ألف من الشيعة الإسماعيلية، موزعين على سورية ولبنان والعراق وأقطار الخليج.

حوالى ١,٥ مليون من العلويين النصيرية، أكثرهم الساحقة في سورية، وبعضهم في لبنان.

وليس في العالم العربي اليوم أي كيان سياسي شيعي، إنما كيانهم السياسي الوحيد، ينحصر في الدولة الإيرانية. أما في العالم العربي، فلهم مشاركة ملحوظة في السلطة السياسية في الدولة اللبنانية.

بالنسبة إلى الشيعة، لا يمكن قياس الفاعلية بالعدد، فلقد كانوا دوماً أقلية، ولكنهم شكلوا أبداً وقود الحركة عبر التاريخ الإسلامي العربي، سواء كان المحرك المستهلك لذاك الوقود، منهم، أو من سواهم، ذلك أن المهتم هو بقاء جذوة ثورتهم مشتعلة. فالثورة في تراثهم متلازمة مع الوجود. ومن يتعمق في الأصول، لا يسعه

١ - راجع الدكتور سعد الدين إبراهيم، المجتمع والدولة في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، (بيروت ١٩٨٨) ص ٢٢٩ - ٢٤٠

أن يتوقع نهاية للثورة الشيعية، وإن كان بوسعه أن يتوقع لها بعض هدوء من وقت لآخر.

إن جماعة كان معتقدها بحق ما، أصل نشوئها، لا يمكن أن تهدأ تماماً من غير أن تغير الواقع المناهض لما تراه حقاً، وإلا فقدت مبرر وجودها. ومتى كان إحقاق ذلك الحق شبه مستحيل، فذلك يعني دوام الثورة. أولئك هم الشيعة.

